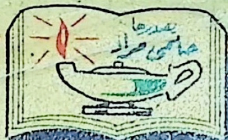


تطبيقات كتابي
ترجمة الكاملة الأصيلة لشوا من الكتب العالمية



نكت للناس!

TOP SECRET

SPELL

أسرار الجاسوسية

وأشهر قصصها الواقعية، منذ أقدم الفصور إلى اليوم!
للباحث الأخصائي: برنارد نيومان



نشر
بیرنارد نیومان

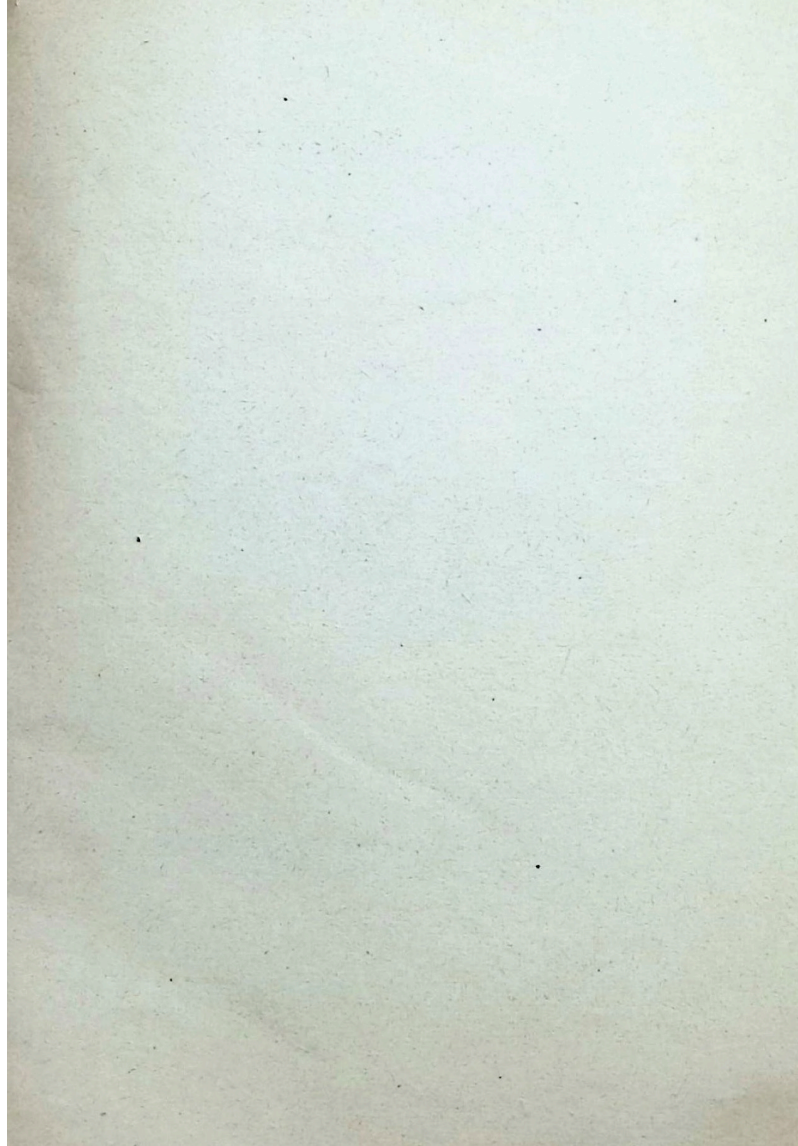
أسرار الجاسوسية



EPICS OF ESPIONAGE

BY

BERNARD NEWMAN



مطبوعات
كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالية
يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب



مضياع الفكر عند الإغريق

الكتاب الثالث والعشرون

أسرار الجاسوسية

تأليف : برنارد نيومان

ترجمة : ابراهيم موسى

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

رسالة « مطبوعات كتابي »

هل هي في حاجة الى مزيد من الايضاح ؟

عزيزي القارئ ..

✧ وصلتني منذ يومين رسالة كريمة من السيد « عبد الرحمن البيطار » - المواطن السوري العربي المقيم حاليا في بيروت - يبدى فيها بعض الملاحظات المشكورة بشأن « مطبوعات كتابي » .. ونظرا لما تنطوى عليه هذه الملاحظات من آراء تهم قراء هذه السلسلة جميعا ، فقد أحبيت أن أعرضها عليك ، مستطلعا رأيك فيها ، كي نتعاون على السير بهذا المشروع قدما نحو اهدافه المنشودة يقول السيد البيطار في رسالته ان العديدين الآخرين من « مطبوعات كتابي » قد هبطا عن مستوى هذه السلسلة ، كما هبط عنه عدد سابق صدر منذ شهور ، هو : « فانتات الرجال » .. وكما سيهبط عدد لاحق ، هو « الجاسوسية » - (العدد الذي بين يديك) ! - الذي يذكره عنوانه بعناوين الكتب الرخيصة ! هذا هو « الاتهام » الذي أحبيت الا انفرد بالرد عليه في رسالة خاصة ، بل أشركك معي في مناقشته واستعراض وجهات النظر المختلفة بشأنه . فما هي هذه الأعداد التي هبطت عن مستوى بقية أعداد السلسلة ، في نظر السيد صاحب هذا الرأي ؟ .. تعالوا نستعرض سويا الأعداد المشار إليها ، كلا على حدة :
أما أول « العديدين الآخرين » فكان كتاب « فرنسا الجريحة على ضفاف النيل » ، الذي عالج فيه المستشرق « ادوين جون ديفيز » هزيمة جيش « لويس التاسع » في المنصورة في أواسط القرن الثالث عشر ، أثناء محاولته غزو مصر . فهل يعد « هبوطا » في مستوى أية سلسلة ثقافية ، نشر كتاب علمي كتبه مؤرخ متخصص في الدراسات الشرقية ، وتناول فيسه حقبة هامة من تاريخ القرون الوسطى والحروب الصليبية ، هزم فيها العدوان على أرض شعب صغير مسالم ؟ .. أم يعد هبوطا في المستوى ما احتواه ذلك الكتاب في قصوله الأخيرة من « دراسة » جديّة لأحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية و « الحضارية » ، في ذلك العصر ؟ .. هذا ما أترك لك الحكم بشأنه ، لي أو لي !
ولنتنقل الى الكتاب التالي ، في قائمة الكتب موضع النقد والاتهام . فما هو ؟ .. انه كتاب « الابن الضال » ، الذي عالج فيه الروائي العالمي « هنري بورديو » - عضو مجمع « الخالدين » - مشكلة حيوية هامة من مشكلات الأسرة ، في كل عصر وكل مجتمع ، هي مشكلة الابن العاق الذي تستهويه امرأة طائشة فينحرف عن طريق الخلق والشرف والمبادئ ، الى جد ينبذ فيه عمله واهله ومجتمعه وبلده .. ويفر مع الزوجة المارقة الى بلاد أخرى ! .. ثم تجبره الظروف في نهاية الأمر على أن يعود الى بلده نادما ليواجه محاكمة جنائية دبرها له الزوج

المخدوع ، فكادت تعصف بمستقبله وشرف أسرته الذى مرغه فى الوحل !
فهل يعد نشر هذه القصة التحليلية الرائعة ، « هبوطا » بمستوى
« مطبوعات كتابي » ؟

أما الكتاب الثالث موضع الاتهام ، فهو « فانتات الرجال » .. وقد تناول
سيرة ست من الشخصيات النسائية التى لعبت دورا هاما فى التاريخ ، كان
له أثره فى مصائر الدول ومقدرات الشعوب . ومن هذه الشخصيات التى تحدث
عنها الكتاب : كليوباترا ، مدام دى بومبادور ، مدام دى مونتسبان ، نيل
جوين ، لولا مونتيز .. الخ

فهل يعد نشر هذا الكتاب التاريخي « هبوطا » بمستوى « مطبوعات كتابي » ؟
بقى الكتاب الاخير من « القائمة » المتهمة بهبوط المستوى ، وقد يدعشك
ان تعلم انه الكتاب الذى بين يديك الآن - « أسرار الجاسوسية » - أى ان
الحكم « عليه » قد صدر قبل صدوره ، وقبل ان يرى النور ، لمجرد ان عنوانه
يحمل كلمة « الجاسوسية » ، التى يرى السيد صاحب الرسالة انها تذكره
بعناوين الكتب « الرخيصة » ..! وأنا اعتقد انه لو تريت حتى يقرأ هذا الكتاب
لمدل عن رايه ، ولامتدحه مخلصا بدلا من ان ينتقده . فلست أعرف كتابا آخر
تناول هذا الموضوع الحيوى فى تاريخ الدول وتطورها بمثل هذا البحث
« الرصين » والدراسة المستفيضة . ولو افترضنا - جدلا - ان قصص الجاسوسية
التى « يخلقها » خيال الروائيين من مؤلفي الروايات البوليسية ، قد يحتمل ان
يوجه اليها هذا الاتهام ، من جانب من لا يسيغون هذا اللون من القصص ، فما
أظنه يجوز بحال ان يوجه الى هذا الكتاب بالذات ، الذى انفق مؤلفه اعواما فى البحث
والتقصي من شتى المراجع التاريخية ، كى يتمكن من تصنيفه بمثل هذا الشمول
وسعة الأفق اللذين تلمسهما وانت تقراه .. ففى كل صفحة منه تطالع حقيقة
تاريخية تناولتها يد التمحيص والتدقيق ، حتى لتحس وانت تتابع فصوله كان
المؤلف يأخذ بيدك فى سياحة طويلة ممتعة تعبران فيها مجرى التاريخ البشرى
منذ اقدم عصوره الى اليوم .. منذ عصر موسى ، والمسيح ، ويوسف الصديق ..
الى عصور : قيصر ، والاسكندر المقدوني ، وجنكيز خان ، وتيودورا ، ورشليو ،
ولويس الرابع عشر ، وكرومويل ، وكاترين دى مديس ، ونابليون .. حتى
القرن العشرين ، الذى شهد حروب غليوم ، وهتلر ، وستالين .. الخ

فهل يعتبر نشر هذا الكتاب ، « هبوطا » فى مستوى « مطبوعات كتابي » ؟ ..
وهل ترانى انعرفت عن الرسالة الثقافية التى استهدفتها باصدار هذه السلسلة ،
التى اوضحت منذ البداية أنها تتناول الكتب القصصية .. وغير القصصية ؟
هذا ما أحب ان أسمع صوتك فى صدده - بعد ان تفرغ من قراءة هذا الكتاب -
سواء كنت تؤيد السيد ممثل « الاتهام » فى رايه ، أو كنت تخالفه

ومرة اخرى ، اوجه - ملخصا - عميق شكرى للسيد « عبد الرحمن البيطار » ،
على رسالته الكريمة وانتقاداته ٠٠ فاننا مدين بالكثير من الفضل للمبدأ الذى
اومن به على الدوام : ان الانتقاد هو الثمر الطرى الى الكمال !
بقيت كلمة اخيرة اود ان اسجلها هنا بشأن الكتاب الذى بين يديك ، فبحكم
انه يخرج عن دائرة الادب الصرف الذى التزمت نحوه مبدا « الترجمة الكاملة
الامينة » التى لا تقفل سطرا واحدا من الاصل كما كتبه مؤلفه ٠٠ سمحت
للمترجم الفاضل هنا بحرية افعال بعض الفقرات التى تتناول تفصيلات ثانوية
مقدمة قد لا يهضمها القارئ ، ولا تؤثر فى سياق الكلام بحال
وتقبل اطيب تحياتي
حلمي مراد

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان ستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد
اول كل شهر
• وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا)
بالقاهرة (عمارة الجنبول) وثن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) - ماعدا العدد ٢٠ -
١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد العاشر وثنه ٢٠ قرشا ،
والاعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل
١٢ قرشا ، اما الاعداد الستة الاولى فقد نلت ، والادارة مستعدة لشراؤها
• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا
وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا
وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا
واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر
البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الحاطئة ،
حياة امرأة (جزان) ، الخطيئة الاولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزان) ،
عاشقات فى الحريف ، قلوب ضالة ، ديكاميون ، الظما للنخب ، جين اير (ثلاثة
اجزاء) ، فانتات الرجال ، رجال ونساء ، النار للوطن ، فرنسا الجريحة على
ضفاف النيل ، الابن الضال ، وثن كل من الاول والرابع والسابع والتاسع
عشر ٣٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر
والحادى والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر والثالث والعشرون ١٤ قرشا ،
والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون
والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل) .

سرنارد نيومان

الرجاسية

وأشهر قصصها الواقعية ، منذ أقدم العصور إلى اليوم



تطور الجاسوسية .. في .. قرنا !

جواسيس موسى .. في أرض (كنعان) !

♦ الجواسيس معروفون منذ أقدم عصور التاريخ .. وعلى وجه التحديد منذ عرفت الحروب . ونحن نجد في سجلات التاريخ الأولى تعليقات لها مغزاها عن الجاسوسية ، من مصر الى الصين . وفي أيام قبائل الرعاة الرحل ، أصبح التجسس عملية معترفا بها . ويذكر التاريخ أن يوسف اتهم اخوته بأنهم جاءوا الى مصر لكي يتجسسوا ويتعرفوا على حالة بلاده في السنوات السبع العجاف !

وقد وردت أول قصة للجواسيس ، رواها التاريخ المكتوب ، في التوراة : كان موسى قد قاد الاسرائيليين حتى خرجوا من مصر ، ثم توقف بهم في منطقة مجدية . وكان « يهوا - اى الله - هو الذى نصح موسى بأن يبعث بجواسيس الى أرض كنعان (فلسطين) ، فاختار موسى بنفسه جواسيسه رجلا واحدا من كل قبيلة . وأظهر موسى تقديره لأهمية البعثة حين اختار الرجال البارزين من قادة القبائل ، وحين زودهم بتعليمات كثيرة دقيقة ، يفهم منها أن الجاسوسية لم تكن علما . ولا غرو فان الحكمة وليدة التجربة قبل أن تكون نتيجة التلقين

يقول الكتاب المقدس :

« ثم كلم الرب موسى قائلا : ارسل رجلا ليتجسسوا أرض كنعان ، التى أنا معطيها لبني اسرائيل ، رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون ..

« فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم : اصعدوا من هنا الى الجنوب ، واطلوا الى الجبل ، وانظروا

الأرض ماهي • والشعب الساكن فيها ، أقوى هو أم ضعيف ، قليل أم كثير • وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها ، أجيدة أم ردية • وما هي المدن التي هو ساكن فيها ، أحييات أم حصون • وكيف هي الأرض ، أسمى أم هزيلة ، أقيها شجر أم لا • وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض »

ولا ينتظر من أى رئيس ضليع فى الجاسوسية الحديثة ، أن يصدر الى جواسيسه من التعليمات ما يفوق التعليمات التى أصدرها موسى فى سنة ١٤٠٠ ق.م • ، وان كان الأمر يتطلب بطبيعة الحال شيئا من التعديل والتبديل ، يتناسب مع تغير الظروف وتطور الحضارات •• لأن الواقع أن تعليمات موسى « غطت » الأمور الجوهرية فى مهمة أى جاسوس •• بل ان تنظيمه للعملية كان يدل على ذكاء • فلاشك فى أن المعلومات التى تأتى بها عدة مصادر ، تفوق فى القيمة والدقة ما يأتى به مصدر واحد

وعاد جواسيس موسى ليقولوا ان (كنعان) أرض يتدفق منها اللبن والشهد ، وان كان سكانها من العمالقة الجبابرة الضخام • وبعد ٤٠ عاما قضاهم الاسرائيليون فى تردد وتوجس ، تغلبت الرغبة فى اللبن والشهد على الخوف من الجبابرة ، بتأثير جاسوسين معينين هما : كالب ، ويوشع • وكان أن تقدم الاسرائيليون ودخلوا فلسطين

الجاسوسية والدعارة : أقدم مهنتين فى التاريخ !

♦ قد تكون صفة رحاب - عاهرة (أريحا) - من الأمور المتنازع عليها حتى الآن : فهل كانت جاسوسة ؟ أم «متعاونة» فقط ؟ أم من « الطابور الخامس » ؟

كان الزعيم الاسرائيلى « يوشع » قد بعث بجاسوسين الى (أريحا) ، فأقاما مع عاهرة محلية ، مخلصين بذلك ذكر معالقة بين حرفتين من أقدم حرف العالم : الجاسوسية ،

والدعارة ! .. وحين ارتاب ملك (أريحا) فى الأمر ، عمدت رحاب الى اخفاء الجاسوسين تحت كومة من الكتان على سطح دارها ، ثم أعانتهم بعد ذلك على تسلق جدران المدينة ، ليخرجوا منها بسلام !

ولكن ، لماذا خاطرت رحاب بنفسها كل هذه المخاطرة ؟ .. كانت فريدة فى نوعها .. نوع الذين يسرون فى ركاب الجماعات السياسية فى عصرنا الحالى ، مترسمين مبدأ معينا يرشدهم الطريق ، هو أن يكونوا الى جانب المنتصر الظافر دائما .. هذا المبدأ الذى يؤكد مسئوليتهم عن كثير من شرور العالم ! .. نعم ، فان رحاب حين اقتنعت بأن الاسرائيليين سيستولون على (أريحا) ، عمدت الى مساومتهم ، وعرضت معاونتها لهم مقابل تأمين أسرتها فى الأيام التالية للغزو .. أيام النهب والسلب والمذابح ! بل انها رتبت لهم علامة سرية ، هى خيط قرمذى ربطته فى نافذة بيتها ، حتى يعرف الاسرائيليون المنتصرون بيت التى تعاونت معهم !

دليلة .. ويهوذا الاسخريوطى !

♦ على أن لدليلة دعوى قوية ، هى انها أول جاسوسة حسناء فى التاريخ .. وقد كان اغراؤها لشمشون مبعث



ألف القصص الخيالية التي وضعت في العصر الحديث . ولكن ما فعلته دليلاً كان أعظم من أن يسمى انتصاراً للجاذبية الجنسية . . . فقد كان جاسوسية من النوع الكلاسيكي القديم ! . . . كان شمشون للفلسطينيين أقوى من جيش بأكمله ، فأخذت دليلاً تتحاييل حتى اكتشفت سر قوته ، فجردته من أسبابها ، ثم أسلمته الى أعدائه !

والأمر الذي تجب ملاحظته ، هو أن الجاسوسية أصبحت في ذلك العهد - عهد شمشون - من الأعمال التجارية التي تدر ربحاً . فقد فعل جواسيس موسى ما فعلوه لدوافع وطنية ، وكانت رحاب تنشيد أمنها وأمن أسرتها . . . أما دليلاً ، فقد دفع لها سادتها أجرها ، وهو ١١ ألف قطعة من الفضة . ولا بد أنه كان مبلغاً ضخماً في ذلك الوقت ، وخاصة اذا قورن بالقطع الثلاثين المتعصبة ، التي دفعها كهنة اسرائيل لجاسوس كان تلميذاً للسيد المسيح ثم خانته وسلمه اليهم ، وهو يهوذا الاسخريوطي !

وتختفي دليلاً فجأة من سجل التاريخ ، كعادة الجواسيس دائماً . ويحتمل انها كانت واحدة من الالاف الثلاثة الذين كانوا يحتفلون بالعيد في المعبد ، عندما قوض شمشون الأعمى أعمده ، فانهار وقضى عليهم جميعاً . . . فكان الذين قتلهم وهو على وشك الموت أكثر من الذين قتلهم طوال حياته ، على ما ورد في التوراة

وقد طالما تردد أن التوراة كانت مصدر الوحي الأول لمعظم قصص الأدب العالمي . والذي لا شك فيه هو أن الأمثلة الثلاثة المتقدمة كانت أنموذجاً أصلياً لعدد كبير جداً من القصص المثيرة التي وضعت في عصور مختلفة ، كما كانت قصة « أبو كريفا » عن أنبياء (بل) مصدر ألوف من « حيكات » القصص البوليسية الحديثة

وتعطينا التوراة أمثلة كثيرة أخرى عن حيل للجاسوسية

ما تزال تستخدم بكثرة في عصرنا الحالى . فعندما كان الملك النبى داوود فى خطر ، أرسل اليه يوناثان اشارات خاصة بالاسهم التى كانت تطلق على جهات اتفق عليها من قبل . اما داوود نفسه فانه استخدم فى نزاعه مع ابشالوم رجلا يدعى هوشاى ، كجاسوس سرى له ، تسلل الى معسكر العدو . وفى الوقت نفسه ، استعان أبشالوم بأحد مستشارى أبيه - وكان يدعى أهيتوفيل - ليتجسس له على معسكر داوود . وثبت بعد ذلك أن أساليب هوشاى السرية كانت حاسمة ، اذ وجد داوود نفسه فى موقف موات لكى يظفر بالنصر النهائى ، مما أدى الى أن شئق « أهيتوفيل » نفسه خزيا وحسرة . ولم يكن داوود بالرجل الذى يحط من شأن الجاسوسية وأهميتها ، ومن ثم قدر جهد هوشاى فى انقاذ عرشه ، وتهيئة فرصة النصر له فى حربه مع أبشالوم

الجاسوسية تتغلب على قوات هانيبال « المدرعة » !

♦ والرقابة العسكرية ظاهرة ضرورية من ظواهر مقاومة الجاسوسية فى العصر الحديث ، وهى أيضا ظاهرة قديمة قام الكتابة ذاتها . وكان الاسكندر الأكبر يقدر امكانياتها . وفى احدى حملاته بآسيا ، سمع شائعات عن خيانات سير تكبها حلفاؤه بعد وقت قصير ، فأعلن يوما أنه سيكتب عدة رسائل الى اليونان ، وعرض على ضباط جيشه وحلفائه ان يكتبوا ليحمل الضابط المختار بريدهم مع بريده . وعندما استعد ذلك الضابط للسفر ، دعاه الاسكندر وفحص كل الرسائل التى كتبها رجال الجيش . وبهذا عرف اسباب الشكوى ، وعالجها بما عرف عنه من عظمة خلق ، بدلا من ان يلجأ الى حركة تطهير تسفك فيها الدماء

وقد شجع الافريق والرومان والقرطاجنيون الجاسوسية فى بلاد البحر الأبيض وغدوها . وعندما واجه القائد المعروف

سببيو الا فريقى أفيال هانيبال ، قائد قرطاجنة - وكانت الفيلة تؤلف القوات المدرعة فى ذلك الحين ! - كان قد علم من أحد الجواسيس موطن ضعفها ، ومن ثم أفاده ذلك . فقد كانت للأفيال مناعة تقيها السهام والحراب ، ولكن جاسوس سببيو اختلط بحراسها واستطاع ان يعرف منهم ان هناك سلاحا جديدا يملأ قلوب الأفيال ذعرا ، وهو الأصوات المدوية ! . فحين هجمت الفيلة على قوات سببيو ، لم تقابل بحراب وسهام لا جدوى منها ، بل قوبلت بأصوات مصطنعة مدوية ، استخدم فى اطلاقها كل نفر فى الجيش ، ومن ثم جن جنون الفيلة ، وفقد قادتها سيطرتهم عليها فى ثوان معدودة . وبهذا استطاع سببيو ان يحرز نصرا حاسما !

أما فى روما ، فإن الجاسوسية بلغت مستوى جديدا باشراف كراسوس - الذى كان يعاصر يوليوس قيصر - فلم يكن جواسيسه يعملون فى ولايات نائية بالأمبراطورية الرومانية فحسب ، بل كانوا يعملون فى داخل روما نفسها ، فكان هذا هو أصل نظم البوليس السرية مثل الجستابو ، والتشيك ، والافجيو . وكانت روما تعج بمواطنين يخفون فى طيات نفوسهم طموحا شديدا ، فبث كراسوس جواسيسه وعيونه بين خدمهم ، خشية ان يصبخوا فى يوم ما أعداء لنظام الحكم . وقد جمع ثروة كبيرة من أعماله هذه ، عن طريق التهديد باستخدام المعلومات التى حصل عليها أو افشائها

ومنذ ذلك الوقت باتت الجاسوسية معترفا بها فى بلاط أى ملك أو امبراطور . فقد كان للأمبراطورة تيودورا البيزانطية - التى سبقت برقصاتها المثيرة للحواس فى شبابها ، الجاسوسة المشهورة ماتا هارى - من الأسباب القوية ما جعلها ترتاب فى كل من حولها . ويذكر لنا المؤرخ المعروف جيبون ان جواسيسها الكثيرين كانوا يراقبون كل حركة وكل كلمة وكل نظرة ، ويرفعون بها تقارير الا امبراطورة ، إذا كان فيها ما يمس

سيدتهم • وكان تقرير أى جاسوس من هؤلاء كافيا لسوق أى رجل الى نهاية بشعة أليمة !

لولا الشائعات لاحتل المسلمون أوروبا !

♦ ولقد كانت للنبي محمد مواهب غير عادية مكنته من مقاومة الجاسوسية ، ولكن بعض خلفائه ذهبوا ضحايا لسلاح يعتبر من أسلحة المخابرات السرية ، أصبح فيما بعد قوة كبيرة فى الحروب •• هذا السلاح هو : الشائعة •• فى معركة « تور » - التى دارت بين المسلمين الاندلسيين والفرنسيين - فزع المسلمون لنبا جاء فيه ان الفرنسيين أخلوا ينيهبون خيامهم الملائى بالكنوز ، ومن ثم ترك الفرسان المسلمون الميدان ليحموا خيامهم من الناهبين الوهميين • وظنت بقية الجيش ان هذا يدل على الرغبة فى التقهقر ، فاقتدت بالفرسان ، وبذلك كسب الفرنسيون المعركة • وانه لمن المحزن حقا ان يجهل التاريخ اسم ذلك العبقري الذى روج هذه الشائعة الزائفة ، فحال بين المسلمين وبين النصر ، وغير بذلك مصير أوروبا كلها !

وكان جنكيز خان بين جموع المغوليين عدد كبير من الجواسيس •• وكان نظام الجاسوسية فى ذلك العهد يتقدم بخطى سريعة • ولما كان جنكيز يخوض غمار حرب خاطفة ، فقد كان عليه ان ينظم الجاسوسية بين صفوف أعدائه وينظم فى الوقت نفسه وسائل سريعة لتصله المعلومات التى يحصل عليها جواسيسه • وما زال بعض أنواع التجسس التى استخدمها متبعا الى اليوم : كان يبعث الى أعدائه مثلا بجاسوس يدعى انه فار من جيش جنكيزا ، ثم يوحى اليهم بأن هجومه ليس وشيكا ، حتى اذا ما اطمانوا الى ذلك ، فاجأهم جنكيز بهجوم خاطف فيأخذهم على غرة ! •• كذلك استخدم جنكيز نوعا آخر من الجواسيس ، هو التاجر الجاسوس ، الذى كان يزور معسكر العدو ببضائعه ، ويفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع كل ما يفيد مولاه • وما زال

التاجر الجوال الى يومنا هذا خير « غطاء » أو « ستار » مناسب للجاسوس !

أساليب ديوان التفتيش الازهاية

♦ وكان للكنيسة - فى القرون الوسطى - نظامها الخاص لتجسس الانبياء . وقد جاء على أوروبا وقت كان « البروتستانت » يهتمون فيه كل « جزويتى » بأنه جاسوس عليهم . كذلك نجد فى تاريخ الكنيسة ان ثمة اتصالا وثيقا بين الاستبداد والطغيان ، من ناحية ، وبين الجاسوسية الفردية من ناحية أخرى . ويعيب بعض المؤرخين نظام التجسس الذى كانت تتبعه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ويلقون عليه تبعة فشل هذه الكنيسة فى الاحتفاظ بسلطانها فى شمال غربى أوروبا ، قائلين ان الأساليب المنافية للضمير التى كان الجواسيس يتبعونها ، والمعاملة القاسية التى كانوا يصوبونها على ضحاياهم ، قد أدت الى تعزيز المذهب البروتستانتي ، فى حين انها كانت تهدف الى هدمه !

الا ان احدا لا يستطيع ان ينكر على جواسيس الكنيسة - اذ ذاك - كفاءاتهم . وقد أدت نظم « ديوان التفتيش » ومحاكمه فى اسبانيا ، الى رفع الجاسوسية الى مستوى جديد من حيث التنظيم والأساليب . فقد كانت شبكة جواسيس ديوان التفتيش تنتظم أعوانا من كل الطبقات ، من الأمراء الى المتسولين ، ومن الجنود الى الأطفال . . . فسبقت النازية - بعدة قرون - الى تشجيع الاتباع المخلصين على ان يشوا بأقاربهم ، وبشت جواسيسها فى كل مكان ، وكانت تعليماتها اليهم تقضى بأن : « على الجاسوس ان يكتسب صداقة المتهم وان يسعى الى استدرأجه حتى يعترف له بجرمه . . . وليذهب فى ذلك الى درجة ان يدعى انه من شيعة المتهم » !

جاسوسية ريشيليو فاقت جاسوسية ديوان التفتيش !

♦ على ان جاسوسية ديوان التفتيش كانت ضيقة الأفق اذا قيست بالنظام الذى ابتدعه **الكاردينال ريشيليو** ، الذى قيل عنه انه كان خليقا بأن يبتكر « الجاسوسية » لو انها لم تعرف قبله ! . وكان رئيس مخابراته السرية هو الأب « جوزيف دى ترامبلاى » ، الذى اشتهر بلقب « القس الرمادى » . . .

وقد كان اجتماع السياسة البعيدة النظر ، مع التطبيق الأمين الدقيق ، من أقوى أساليب « ريشيليو » التى لا تقاوم ، والتى خلقت جاسوسية عريقة ، بعيدة كل البعد عن الأساليب الاجرامية التى كانت متبعة فى ذلك العصر . . . **فلقد كان ريشيليو فرنسيا قبل ان يكون كاثوليكيًا** - أى انه كان يقدم مصلحة الوطن على دواعى الدين - ومن ثم شجع أمراء ألمانيا البروتستانت وحليفهم « **جوستاف ادولف** » السويدى . وفى الوقت ذاته ، كان الجيش الألمانى الكاثوليكي تحت قيادة التشيكي العبقري **والنشتاين** ، الذى كان يحظى بحب جنوده وولائهم ، ومن ثم كان أعظم خطر يهدد القضية البروتستانتية ، كما كان خطرا يهدد ريشيليو ذاته . ومن ثم أوفد الكاردينال السياسى مساعده - الأب جوزيف - الى ألمانيا ، فأخذ هذا القس الوديع المظهر يتصل بالأمراء الكاثوليك من الألمان ، ويشير بالايجاز الحفى غيرتهم ضد « والنشتاين » . وكان جواسيسه - فى الوقت ذاته - يوافونه بما كانوا يكتشفون من مواطن الضعف فى كل أمير ، فراح القس يعالج كل أمير على حدة ، ببراعة أدت فى النهاية الى عزل « والنشتاين » . . . وبهذا لم يتلاش أعظم خطر كان يتهاد ريشيليو فحسب ، وانما أدى عزل « والنشتاين » الى ثورة جنوده وانضمامهم الى الجيوش البروتستانتية ! . وفازت الجاسوسية على المهارة العسكرية فى هذه المعركة !

ولعل القارئ المدقق قد لاحظ ان الأمثلة التي سقتها حتى الآن ، تبين ان الأساليب المستحدثة فى الجاسوسية كانت جد قليلة . ولقد كان والنشتاين بالذات مثالا لظاهرة حديثة أخرى . اذ انه كان شديد الايمان بعلم الفلك ، ولم يكن يقدم على أية حركة دون استشارة الطوالع والنجوم . ويبدو ان الفلكيين الذين كانوا يخدمونه كانوا أسلم نية واكثر جرأة من أولئك الذين خدموا هتلر ! . فقد تنبأ واحد منهم بساعة موت ذاك القائد العظيم ، والطريقة التي يتم بها . وقد آمن والنشتاين بهذه النبوة الى الدرجة التي جعلته يستسلم لمصيره - عندما حان - فلم يجرد سيفه ليصد الرجل الذى اغتاله !

دروس . . فى حسن التجسس !

♦ ومن الممكن الاسهاب فى الحديث عن عراقة الجاسوسية ، دون ان يؤثر ذلك فى طرافة الحديث وتشويقه . . واذا كانت أقوال موسى عن جواسيسه قد بلغت من الدقة درجة تدعو الى الاعجاب ، فان الأقوال التى صدرت عن قائد عظيم أتى بعده بزمان طويل - هو مارشال دى ساكس - ليست أقل روعة . فقد قال : « لا تستكثر كل اهتمام يبدل للجواسيس والمرشدين . . فهم كالعينين من رأسك ، ولا غنى لائى قائد عنهم . . ولا تستكثر أى مال ينفق فى الحصول على جواسيس مهرة . ويجب الحصول عليهم من البلاد المعادية . . ولا بد ان يكونوا اذكياء بارعين ، وأن يثبتوا فى كل مكان : بين ضباط القيادة ، وحملة الأسلحة ، بل وبين المتعاهدين وموردى الاطعمة للجيش . . فان مخازن التهوين والمخابز من أروع المصادر للحكم على نوايا العدو !

واذا كانت لقضية التجسس السوفيتى فى كندا اية قيمة ، فانها تؤيد اقتناع الروس بما قاله ذلك القائد عن استخدام الأعوان المحليين - من الأهمالي - بأعداد كبيرة ، وفى الأماكن

التي يمكن الحصول على معلومات منها
ويستطرد المارشال دى ساكس قائلا : « ويجب ألا يعرف
أحد من هؤلاء الجواسيس رفاقه ، كما يجب ان يكلفوا بمهام
متعددة . . . فيتسلل بعضهم - وهم الصالحون للتسلل - بين
الضباط ، بينما يرافق بعض آخر الجيش كباعة أو تجار . على
ان يكون بين الفريق الأول عضو على اتصال بعضو من الفريق
الثاني ، ليتسنى بذلك نقل المعلومات الى القائد الذي يستأجرهم
جميعا . الا ان هذه المهمة بالذات يجب ان لا توكل الا الى كل
ذكي جدير بالثقة ، وان يختبر وفاؤه في كل يوم ، للتأكد من ان
لا سبيل للطرف الآخر الى رشوته »
وفى هذه العبارات الأخيرة ، نجد بذور النظام الذي يتبع
فى « الخلايا » الشيوعية فى هذه الأيام !

هنرى السابع كان يسرق مكافآت جواسيسه !

♦ ولقد اقتبس « ادوارد الثالث » - عندما كان يحكم
بريطانيا - نظام « المخابرات السرية » عن جمهورية البندقية .
على ان بريطانيا كانت تستخدم الجواسيس قبل ذلك ، حتى ان
ملكها « ألفريد العظيم » لم يكن يتوزع عن ان يقوم بنفسه بمهمة
الجاسوسية ، وكان له فى ذلك أسلوب فنى بارع . كان يتنكر فى
ثياب كاهن ، ويرتاد أندية الضباط الدائمينركيين ، فيصغى الى
أحاديثهم . على ان ادوارد الثالث نظم الجاسوسية فى هيئة
رسمية تستمد نفقاتها من خزانة الدولة

ولم يكن جواسيس تلك الأيام يهتمون بالبيانات العسكرية
كهدف أول . . اذ كان ملوك تلك الأيام يحسون بأن العروش
تهتز من تحتهم ، فكان هم كل منهم ان يجمع - عن طريق
جواسيسه - البيانات المفصلة عن المؤامرات والدسائس . . ولم
يكن الجواسيس - بوجه عام - من ذوى الخلق المتين والمقدرة
الفنية . وكان الذين يكلفونهم بالتجسس يتصرفون فيهم كيفما

يشاءون .. بل انهم قلما كانوا يثقون في اتهاماتهم للناس !
ومع ذلك فقد كان هؤلاء الجواسيس يعاونون الملوك على التخلص
من كل منافس قوى !

وفي عهد هنرى السابع تقدمت المخابرات الرسمية بى
الكيف ، وزادت فى الكم .. اذ اغتصب هنرى الملك بالقوة ،
ولهذا لم يكن يثق فى أحد . وكثرت فى حسابات « الجيب
الخاص » أرقام تصلح أساسا لاية مغامرة من مغامرات
الجاسوسية . ومع ذلك فان سجلات الحسابات قالت عن
جاسوس ذى حية انه تقاضى مكافأة قدرها جنيه واحد ، وكوفئ
راهبان جاسوسان بجنيهين !!

كذلك ادخل هنرى السابع نظام الشفرة فى مراسلاته مع
سفرائه فى الخارج ، وفى الوقت نفسه لم يترفع عن الاطلاع على
بريد ممثلى الدول الأجنبية فى بلاده ! وكان ابنه - هنرى
الثامن - والوزير « ولسى » فى مثل نشاطه ..
بل لقد كان للأخير جواسيسه ، الذين كانوا كثيرا ما يعرقلون
- بنشاطهم - أعمال الملك ذاته . ويجب الاعتراف بأن من
يتولى أعمال الوزارة للملك ذكى ، محب للحياة - مثل الملك
هنرى الثامن - لا بد وأن يحتاج الى ادارة خاصة للجاسوسية ،
ولو كان هذا لحماية نفسه . على أن هذه الادارة لم تنقذ ولسى ،
بل انها ساعدت واحدا من أعوانه ، هو توماس كرومويل ، على
أن يرتقى الى أعلى مناصب الدولة ! .. وفى جو الدسائس
الذى كان يحوط بمغامرات هنرى الخاصة ، وجد الجواسيس فرصا
كثيرة لنشاطهم ، وخاصة فى مراقبة كل شاب يرشح للجلوس
على عرش قلب الأميرة الصغيرة اليزابيث !

اليزابيث .. وجاسوسها الأعظم !

♦ ومن المحتمل أن « التلمذة » فى مدرسة الجاسوسية قد
أحدثت تأثيرها فى اليزابيث .. إذ أنها أثبتت - حين أرتقت

عرش انجلترا - انها ليست « مستجدة » فى فن المخابرات السرية ، فقد اتخذت من سفرائها جواسيس لها ، وكانوا يرفعون تقاريرهم اليها بالشفرة . أما وزيرها « سيسل » فقد تتلمذ على يديها !.. ولكن « الشرف الاكبر » فى المخابرات السرية ، فى ذلك العهد ، كان معقودا للسفير **فرانسيس والسنجهام** ، هذا الرجل القدير الذى يصلح كنموذج للجواسيس فى أى عصر . فقد كان عالما خبيرا فى اللغات ، وعرف عادات شعوب كثيرة فى أسفاره ، وتلقى كثيرا من فنون الجاسوسية على أيدي الجزويت والايطالين ، وكانوا فى ذلك الوقت أدهى جواسيس المخابرات السياسية !.. وكان جواسيسه مستقرين فى مناصب عالية ، فى عواصم كثيرة . وكانت تلك الايام أيام بيع وشراء ، ولذا لم يكن من الصعب شراء ذمة أى انسان ، ولو كان وزيرا !.. وقد استطاع هذا الرجل أن يحذر اليزابيث من مؤامرات كثيرة ، كان عقل الملكة اليقظ - حينذاك - قادرا على مواجهتها . ولم يكن فرانسيس يستبقى جاسوسا واحدا « فى خدمته » مدة أطول مما يجب ، وبدلا من أن يمنح الجاسوس - فى نهاية الخدمة - مكافأة مالية كبيرة ، كان غالبا ما يعينه فى منصب كبير . ومن الأمثلة على ذلك أنه عين أحد جواسيسه ، بعد خدمة خمس سنوات ، فى منصب « مراقب الدواجن » فى مطبخ الملكة !

وكان أعظم نصر أحرزه فرانسيس ، هو أنه حذر حكومته فى الوقت المناسب من خطر أسطول الأرمادا الاسباني ، الذى كان يجهز لتدمير قوة بريطانيا البحرية . وكان قد وضع أحد جواسيسه بين خدم وأتباع أميرال الأسطول الاسباني ، الذى اتفق أن مات فى ذلك الوقت ، فذب الاضطراب فى صفوف الاسبانين . (فهل كان موت هذا القائد من قبيل المصادفات أم بتدبير محكم ؟!) . وقد استطاع ذلك الجاسوس أن يزود رئيسه فرانسيس بقائمة كاملة عن عدد السفن

الاسبانية وبحارتها ومخازنها . وعندما أعلن نبأ موت الرجل بعد ذلك ، كتب فيليب ملك أسبانيا على هامش الرسالة : « هذه أنباء طيبة » !

اغفال مكافاة الجاسوس يكلف غالبا !

♦ وفي عهد ملوك أسرة ستيوارت - وكانوا أشداء دائما - زادت قيمة المخابرات السرية الخاصة بأسرة تيودور المنافسة لهم . وقد ثبت بعد ذلك أن الإهمال يكلف صاحبه كثيرا جدا . . . فانه كلف أسرة ستيوارت عرشهم ، وكلف واحدا منهم حياته . . . ولا غرو فقد كانوا غالبا ما يغفلون عن مكافأة أتباعهم وجواسيسهم ، ومن ثم أغفل هؤلاء ابلاغ الملك بحقيقة شعور الشعب . وفي عهد هذه الأسرة كانت هيئة « حجرة النجم » قد بدأت كمجلس عدالة ، ثم تحولت الى ادارة للمخابرات السرية ، وأخيرا أصبحت وكالة للقمع والارهاب . . . فكانت تعبئ من الجواسيس والمرشدين عددا يزداد يوما بعد يوم . وكان هؤلاء يجعلون من حياة من يخالف أوامر السلطة القائمة جحيما لا يطاق . على أن هذه الهيئة السرية أدت الى احراز نتيجة هامة واحدة . . . فانها عاونت على تعمير أمريكا ، اذ كان المهاجرون الأوائل اليها هم أولئك الذين استبد بهم اليأس - من الانجليز - بسبب جواسيس هيئة « حجرة النجم » ، الذين لم يكن لهم أى مبدأ أو ضمير ، والذين كانت الحرب الأهلية فى انجلترا تنأى بهم عن التجسس السياسى ، وتحول هيئتهم الى « مخابرات عسكرية »

على أن النظام الديموقراطى كان ينهض ببطء ، رغم هذا الفساد . ولم يتسن وقف الفساد تماما الا عندما جاء حكم وليم ومارى . . . فقد كان وليم جنديا أصيلا ، فأولى المخابرات العسكرية اهتمامه ، بينما كان يحترق المرشدين العاديين (المخبرين) ، ويفضل إنشاء قوة خاصة تحل محلهم ، وتكون

تابعة للبوليس . .

وازدادت أهمية المخابرات السرية في عهد أسرة هانوفر ، فأصبحت جزءاً من نظام الدولة ، واستخدمت وسائل كثيرة ما زالت مطبقة الى اليوم ، مثل : الرقابة على البريد ، وتسلي الجواسيس ، واستخدام الشفرة ، والحبر السري . . وهي حيلة كيميائية تجعل الكتابة منظورة أو غير منظورة ، وفقاً للظروف والأحوال . على أن التوسع الذى حدث فى تلك الادارة كان يسيرا اذا قورن بما حدث فى بداية القرن الحالى . وفى سنة ١٩١٣ - مثلاً - وصل المبلغ الذى اعتمده البرلمان البريطانى للمخابرات السرية الى ٥٠ ألف جنيه . وفى سنة ١٩٤٨ وصل المبلغ الى مليون ونصف مليون جنيه !

أباطرة . . يتجسسون لمصلحتهم !

♦ كذلك كان للجاسوسية فى ألمانيا شأن كبير . وقد زرت - منذ عهد قريب - حانة قديمة فى (ستراسبورج) ، ألحق بها فناء لم يكده يتغير فيه شئ خلال القرون الثلاثة الاخيرة . . وأتيح لى أن أرى على جدار فى تلك الحانة ، أسماء من مروا بها من المشاهير ، فاذا اسم فردريك الاكبر - الامبراطور الالمانى المعروف - بينها . والشئ الذى لم يذكر الى جانب الاسم ، هو أن فردريك ، حين زار الحانة ، كان يتجسس لمصلحته الخاصة ! . . ولم يكن فردريك أول زعيم يفعل ذلك . . فقد ذكرنا أن « ألفريد » - ملك انجلترا - كان كثيراً ما يتسلل الى خطوط الدانيمركيين . . كما كان « جوستاف أدولف » - ملك السويد - يعرف عن أرض ألمانيا أكثر مما يعرف الامراء الالمان أنفسهم ، اذ كان يسافر متخفياً باسم الكابتن « جارس » ، وهو اسم مؤلف من الحروف الأولى لاسمه ولقبه . وقد ثبت أنه لم يدرس التجسس فحسب ، وانما حذق أيضاً فن التعمية أو « الكاموفلاج » ، وهو فن عرقه الصينيون منذ القدم . .

واذا كانت الأساطيل الحديثة تستخدم الدخان كستار مصطنع تخفى تحته حركاتها ، فإن جوستاف سبقها الى ذلك ، إذ أحرق أكواما من القش المبتل ، فانبعث منها دخان كثيف يستتر زحف مراكب جيشه فى أحد الايام !

ولما كان الألمان مولعين بطبعهم بضخامة الهيئات والمنظمات ، فإن شبكة جاسوسيتهم كانت هائلة ، حتى أن فردريك الأكبر ذكر انه حين كللت حروبه بالظفر ، كان فى جيشه مائة جاسوس فى مقابل كل طباخ ! . . . وقيل انه كان يطلق فى أثر المارشال «دى سوبيز» مائة جاسوس متنكرين ، يتسللون الى معسكرات الجيش المعادى على أنهم طهاة !

من ساحات القتال . . الى مخادع الملوك !

♦ وانتقل التجسس - بعد ذلك - من ساحات القتال الى مخادع الملوك . . وقد حدث هذا فى عهد ملوك كان لكلمتهم حكم القانون . فقد يكون من الميسور اندساس الجواسيس بين مستشارى الملك ، أو بالأحرى ابتياع ذم بعض مستشارى الملك ليكونوا جواسيس . . ولكن الملك يكون - فى الغالب - أكثر تأثرا برأى المرأة التى تشاطره فراشه ، منه برأى مستشاريه . . وليس من المحتوم أن تكون تلك المرأة هى الملكة ، إذ أن الملكة لم تكن تحظى بمشاطرة الملك فراشه الا عندما يبقى انجاب ورثة رسميين للعرش ! . . ومن ثم فقد كانت النساء اللاتى نقلن الجاسوسية الى مخادع الملوك هن . . الخيلات والمحظيات !

ولم يكن ثمة سبيل الى الاستعانة بالبغايا فى هذا المضمار ، وانما كان الاعتماد الأول على السيدات ذوات المكانة والحسب . . حتى لقد كان بين السياسيين من يدفع بأخته لتكون عشيقه للملك ، فى سبيل مصالحه الخاصة . . ومن أبرز الأمثلة فى هذا الصدد « لويز كيرواى » ، التى أعارها لويس الرابع عشر

— ملك فرنسا — **لتشارلس الثانى** ، ملك انجلترا . وكانت امرأة رائعة ، تنحدر من أصلا ب ملكية فى فرنسا وانجلترا ، اذ كانت من سلالة « **هنرى نافار** » — الفرنسى — كما كانت من أحفاد تشارلس جيمس الانجليزى . وقد منحها تشارلس الثانى لقب «**دوقة بورتسموث**» . . . تقديرا لخدماتها الغرامية! فى حين منحها لويس الرابع عشر لقب «**دوقة أوبينى**» ، اعترافا بخدماتها كجاسوسة . وكان أعظم أعمالها فى هذا المجال ، هو أن أغرت ملك انجلترا بقبول معاهدة دوفر ، التى كانت فى الواقع استسلاما تاما لرغبات فرنسا ، وتراميا فى أحضانها ، الى درجة جعلت تشارلس الثانى يستعين بالجيش الفرنسى على اتحاد ثورة رعاياه على هذه المعاهدة !

وقد أدى اقبال الملوك على اتخاذ محظيات لهم الى قيام منافسات شديدة بين الوزراء — بعضهم وبعض — وبين الدول الاجنبية كذلك . . . فكان بعضهم يدفع بالغوانى الحسان فى طريق الملك ، بينما كان غيرهم يسعى الى الاستعانة بالمحظيات الموجودات بالفعل . . . وكانت هذه الطريقة من طرق التجسس تكلف صاحبها أبهظ النفقات !

ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن الملكات كن ينشأن على معرفة حقوقهن والتزام حدودهن . . . ولكنهن — مع ذلك — كن كثيرا ما يسعين الى معرفة أقرب المحظيات الى قلب الملك ، فى أية لحظة معينة . . . وكن يلجأن فى ذلك الى أساليب التجسس ، وقد كانت « **كاترين دى مديتشى** » أبرعهن فى هذا المضمار . . . ويقال ان دم الجواسيس كان يجرى فى عروقها . فقد حرصت ، عند انشاء قصر اللوفر فى فرنسا ، الى دس أنابيب خفية فى الجدران ، لتتمكن من أن تسترق السمع فى إحدى الغرف ، لما يدور بين أفراد الحاشية فى غرفة مجاورة . . . ولعل هذا منشأ المثل السارى : « **للجدران آذان !** » وكانت نسبة كبيرة جدا من الوصيفات تعمل فى التجسس

٠٠ على أن مهامهن كانت تتجاوز مجرد تسقط المعلومات ، إذ كن يساهمن أحيانا فى خلق الثورات الشعبية التى أطاحت ببعض الملوك عن عروشهم . فقد كان مما يثير عقول أهل الريف والعمال - فى أوروبا الغربية - أن يدفعوا الضرائب لينفق منها الملوك فى بذخ على خليلاتهم ! ٠٠ ولم تكن المحظيات أنفسهن لترهبين تلك الثورات ، بل انهن كن من الذكاء بحيث يدركن تماما مدى تلك القوى التى كن ييسبن فى إطلاقها من عقالها !

ظهور الجاسوسية العسكرية الحديثة

♦ على أن الثورات فى أوروبا لم تلبث أن تحولت الى طوفان أغرق الملكية فى كثير من الدول - وحمل هذا الطوفان على أمواجه نوعا آخر من الجواسيس والبوليس السرى والمرشدين - كما جرف فى طريقه النبلاء ، وأتبعهم بمن كانوا فى حكم النبلاء وسادت عهود ارهايية ، انحط فيها مستوى التجسس ، حتى غدا مجرد اتهام شخص ما كافيا لاعدامه ٠٠ تماما كما حدث فى أوروبا الغربية عقب سنة ١٩٤٥ ، إذ كان اتهام أى شخص بأنه « تعاون » مع الأعداء الألمان ، كفيلا بأن يورده مورد الهلاك !

على أن التجسس لم يقتصر فى فرنسا على مجرد تدبير الدسائس والمؤامرات السياسية . إذ كانت أوروبا دائما فى حروب ، أو فى ارتقاب حروب ، وهى ظروف كلها موافية للجاسوسية . وكانت الجاسوسية قد غدت - فى تلك الاثناء هيئات منظمة معترفا بها فى كل دولة كبيرة . ولكن سياسة « مخادع النوم » والدسائس ، التى تفشنت فى القرون الأخيرة ، أثلمت نصل الجاسوسية ، كما هبطت بكفاءة التجسس الحربى . وقد أدرك « ولينجتون » - قاهر نابليون - قيمة الحصول على بيانات عن حركات الجانب الآخر فى المعركة ٠٠ وكانت هذه

بداية وجود الجاسوس العسكرى الحديث . وكان نابليون أكثر منه اهتماما بالجواسيس ، حتى لقد كان يرى أن الجاسوس الواحد - فى المكان المناسب - قد يعادل فى قدرته وعمله عشرين ألفا من الجنود !

ولم يغفل نابليون ابتكار الأساليب التى تعتمد على الذكاء . . حتى لقد كانت أعظم المهام التى عهد بها مرة الى جاسوس له ، دسه فى معسكر الروس ، هى أن يتبين « من التى شاطرت القيصر فراشه فى الليلة السالفة » ، والعمل على أن تكون المقربات الى القيصر ، على استعداد لأن يعملن لحساب الفرنسيين !



الفصل الأول

« امبراطور الجواسيس »

♦ أطلق نابليون لقب « امبراطور الجواسيس » على « كارل شولميستر » . وليس لى أن أرتاب فى رجاحة رأيه ، فقد كان « شولميستر » فى مكانة شاهقة بالنسبة لكافة جواسيس العصور الماضية ، بل انه كان يبرز أى منافس من جواسيس العصر الحاضر . . . ولا ينفى هذا ان الوقت والظروف كانت فى صفه ، اذ ان لثورة الفرنسية والحروب النابليونية كانت تمهد سبيل الحياة لعملية الحافلة لكل رجل اوتى مهارة وعزما وضميرا لا يحقل كثيرا بالحساب !

ولقد ولد شولميستر فى سنة ١٧٧٠ ، بالقرب من « ستراسبورج » ، لأب كان قسا من أتباع « لوثر » ، وكان يعتقد - سواء عن صواب أو عن خطأ - أنه من سلالة نبلاء لمجر . وعندما سئل يوما أن يثبت هذا الزعم ، لم يتورع عن نزوير الوثائق اللازمة !

وقد اقترن شولميستر بفتاة من بنات الالزاس ، وأنشأ بنفسه هناك متجرا متواضعا لبيع السلع المصنوعة من الحديد ، لسرعان ما أثرى . . . ولكن ثراءه جاء عن طريق غير طريق مهنته . . . ولما كان اقليم الالزاس من أقاليم الحدود - الواقعة بين فرنسا والمانيا - فان التهريب من أكثر المهن رواجاً فيه . . . ومع ان القانون يحرمه رسمياً ، الا ان السكان لم يكونوا يرون فيه أى عيب يضير ، ومن ثم لم يلبث شولميستر ان ذاع بوصفه مهرباً جريئاً بارعاً ! . . . واستطاعت هذه السمعة أن تجتذب انتباه أحد قادة جيش نابليون - وهو الجنرال سافارى -

فاستخدمه جاسوسا . وبعد ان اختبر مهارته ، عهد اليه بالمهمة الشاقة ، غير المستساغة ، التي دفعت به الى الالمام فى مضمار الجاسوسية

نابليون يستعين بالجاسوس المجرى من القلب !

♦ كان ذلك فى سنة ١٨٠٤ ، وقد فرغ نابليون من تقليم أطافر الثورة ، واتخذ لنفسه تاجا امبراطوريا . وكان عليه - فى بادىء الأمر - ان يحسب حساب الأخطار التى تتهدد ملكه وتواجه من امراء آل بوربون المنفيين . فمع ان هؤلاء الامراء كانوا عاجزين عن أى عمل ، الا انه كان فى وسع اعداء نابليون فى الخارج أن يتخذوهم مطايا للنيل منه . وكان من هؤلاء الامراء « دوق انجين » الذى لجأ الى ألمانيا . وادرك نابليون ان بوسعه أن يرهب جميع الامراء ، اذا هو أقدم على تصرف صارم مع واحد منهم ، ومن ثم وقع اختياره على « دوق انجين » ليكون كبش الفداء ، وعهد الى شوليبستر باستدراج الدوق الى أرض فرنسية !

وعمد شوليبستر الى القاعدة العسكرية التقليدية : مهاجمة العدو فى أضعف مواقعه . . وكان أضعف مواقع « دون انجين » هو قلبه ، اذ كان متعلقا بفتاة تقيم فى (ستراسبورج) ، فما كان من شوليبستر الا ان اختطف عشيقه الدوق ونقلها الى بيت ريفى فى جنوب الازراس ، بالقرب من الحدود ، ثم زور رسالة من الفتاة الى الدوق ، تناشده فيها ان يخف الى نجدةها . . وكأى عاشق ولهان ، بادر الدوق الى نجدة حبيبته ، وقد خيل اليه ان بوسعه ان يرشوا الحراس القائمين على الفتاة ، ثم يختطفها ويحملها على جواده عابرا بها الأميال القلائل التى تفصل بين سجنها وبين الأراضى الألمانية . . حيث الحرية !

أما شوليبستر ، فبعد أن أعد الفخ وزوده بالطعم الشهى ، قبع ينتظر ان تغتر الفريسة بالطعم ، فيطبق الفخ عليها فكيه . .

ثم استبد به القلق ، فلم ينتظر وصول الدوق الى الفخ ، بل كمن له في الطريق خشية أن يفتن الى الخدعة في آخر لحظة فيبادر الى النجاة . . واستطاع الجاسوس الداهية ان يوقع بالدوق وهو على الحدود ، قبل ان يصل الى الأرض الفرنسية . . وتولى نابليون ما بقى من هذا الأمر ، اذ قدم الدوق المنكود الطالع الى محكمة عسكرية تولت محاكمته فوراً ، وقضت باعدامه رمياً بالرصاص . . أى بقتله بطريقة قانونية !

وقال تاليران - وزير خارجية نابليون - ان ما حدث كان غلطة سياسية تفوق الجريمة شناعة . . وقد أصدر حكمه هذا عن حكمة وبصيرة نافذة . ولكن الجنرال سافارى قدم شوليستر الى نابليون قائلاً : « هذا يا مولاي رجل كله عقل مفكر ، ولكنه



مجسرد من القلب » . . فوعده نابليون بأن يهيئ له مثل هذا « الوحش » فرصاً كافية ، وأجزل له العطاء وهكذا اطلق العنان لشوليستر في مضمار الجاسوسية ، فكانت المغامرة التالية أعظم ما عمل في حياته . . بل ان تاريخ الجاسوسية بأسره لم يضم لها مثيلاً !

جيش كامل يتبعده . . بخدعة امبراطور الجواسيس !

♦ كان « وليم بت » - رئيس وزراء بريطانيا - قد وقف كل جهود بلاده ومالياتها على تنظيم حلف دولي يحد من توسع

نابليون في بسط نفوذه السياسى . وكان العضوان الرئيسيان فى ذلك الحلف هما النمسا وبروسيا . ولكن نابليون لم يشأ أن ينتظر حتى تقوم لهذا الحلف قائمة ، فتتوطد دعائمه ، وإنما آثر أن يكون البادئ بالضرب ، فيهاجم الحلف وهو فى مهده . . . وفى سبيل ذلك ، سافر شولميستر الى (فيينا) منتحلا لنفسه شخصية نبيل مجرى من سلالة عريقة ، زاعما أنه طرد من فرنسا حيث كان يتجسس على نابليون . . . وهى حيلة كثر اللجوء اليها فى المناورات الجاسوسية الحديثة !

وعرض شولميستر خدماته على المارشال « ماك » ، القائد النمساوى . . . واستطاع أن يدلى الى القائد بأمر كثيرة عن أحوال جيش نابليون ، أقنعتة بقيمة هذا اللاجئ الطريد . . . اذ أوحى الدهاء الى شولميستر بأن يتعمد أن تكون المعلومات التى أدلى بها - فى البداية - صحيحة ، يتسنى للنمساويين أن يستوثقوا من صحتها بسهولة . . . وبذلك اكتسب ثقة السلطات العسكرية ، الى درجة أنه عين رئيسا للمخابرات النمساوية لقوات المارشال ماك ، بعد أشهر قلائل !

وكان هذا العمل من أروع المغامرات الجاسوسية التى لا مثيل لها . . . بل انه فاق الخيال ، حتى لقد اتخذ منه الكتاب موضوعا لأكثر من قصة من القصص المثيرة !

واستطاع شولميستر - وهو فى هذا المنصب الفريد - أن ينقل الى نابليون كل حركة كانت تحدث فى صفوف أعدائه . ولما كانت الموارد المالية التى وضعت تحت تصرفه واسعة ، فانه استطاع أن يرشو ضباطا من النمساويين لمعاونته . . . وتعمد أن يحصل على رسائل مزورة ادعى انها مهربة اليه من عناصر فرنسية سناخطة على نابليون . . . بل انه أقدم مرة على نشر حديث كان نابليون قد أدلى به الى خاصته ، وزعم هو كبرؤسانه فى النمسا ان أعوانه المنبئين فى فرنسا قد حصلوا له على نصه . . . ومن ثم وقع المارشال ماك فى أقدم خدعة عرفها

التاريخ ، اذ اعتقد أن فرنسا تضطرم استياء من نابليون ،
وان جيش الأمبراطور يوشك أن يتمرّد عليه !

ثم مضى شولمستر فى خطته البارعة خطوة أخرى ، اذ
أثبت للقائد النمسوى ولرؤسائه - بأدلة ووثائق مزورة
بالطبع ! - ان نابليون شرع فى سحب قواته من الميادين
الخارجية ، لقمع الاضطرابات التى بدأت تستشرى فى فرنسا
.. ومن ثم انطلق ماك بجيشه مغادرا الأراضى النمسوية ،
راحا صوب (ميونيخ) ، ليطارد الجيش الفرنسى المنسحب ..
ولكنه لم يلبث أن فوجئ بجيش فرنسى يعترض طريقه ،
زاحفا نحو الشرق ! .. وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت ثلاثة
جيوش أخرى عند جناحى جيش ماك .. وتبين القائد النمسوى
أن الفرنسيين قد أحاطوا بقواته ، وقطعوا خطوط اتصاله
بقاعدته ، فجاهد متقهقرا الى (أولم) ، ولكن انطباق فكى
الكماشة الفرنسية عليه اشتد ..

ولم تكن ثمة حاجة الى قتال يذكر ، لأن رجلا واحدا كان قد
أعد كل شيء لضمان انكسار النمسويين دون محارب .. ولم
يكن هذا الرجل سوى شولمستر !

ومع ذلك ، فان الجاسوس الداهية لم يكشف عن حقيقته
- فى نشوة النصر - ولا فضحته الأحداث .. بل انه كان
بين الضباط النمسويين القلائل الذين تمكنوا من الافلات من
حلقة الحصار الفرنسى ! .. واستطاع - بما أوتى من جرأة
تبلغ حد الاستهتار - أن يندس فى أعلى مجالس الحرب
الروسية والنمسوية .. ولم يقدر لنابليون يوما أن يحصل على
معلومات عن أعدائه تضارع تلك التى كان شولمستر يزوده
بها .. على أن دور شولمستر لم يقتصر على استقصاء المعلومات ،
وانما راح يغرى أعداء نابليون باتباع التوجيهات الاستراتيجية
التي كان يملئها عليهم ، مما أدى الى انتصار نابليون فى معركة
(أوسترليتز)

ولقد حاول الروس والنمساويون أن يبرزوا نابليون في خططه الفنية ، وأن يعزلوا جيشه عن قاعدته ، فانتشرت قواتهم في ساحة طويلة ، ولكن خطوطهم كانت ضعيفة الى درجة جعلت نابليون يقول مباهيا : « لسوف يصبح هذا الجيش ملكي قبل أن يأتي الغد ! » . ولم يكن يبني حكمه على غير منطق أو حكمة ، فتم له ما أراد ! . وأدى انتصاره في (أوسترليتز) الى القضاء على ما كان يسمى اذ ذاك « الحلف الأعظم » ، كما قضى على « بت » ، رئيس وزراء بريطانيا الذي ناصب نابليون العداء طوال حياته . . . وقد بلغ من حسرة « بت » وتشاؤمه ، انه قال عادة انتصار غريمه : « اطووا خريطة أوروبا ، فاننا لن نحتاج اليها طيلة العشرين سنة التالية ! »

وهكذا استطاع جاسوس واحد أن يغير مجرى التاريخ ، وهو عمل نادر لا يكاد يكون له مثيل ! . على أن أعداء فرنسا كانوا قد بدأوا يرتابون في شولميستر في تلك الأثناء ، فلم ينقذ حياته من عواقب اكتشاف أمره سوى تقدم قوات فرنسا في أوروبا . . . وقد حرص شولميستر - حتى اللحظة الأخيرة - على أن يحتفظ بأعوانه في أرقى المناصب الرفيعة ، مما أدى الى ارتباك خطط النمسا وروسيا . . . وبينما كان جيش كل منهما ينتظر وصول الجيش الآخر لينضم اليه ، كان نابليون قد استولى على العاصمة النمساوية !

وكان اللقب الوحيد الذي خلعه نابليون على شولميستر هو : « امبراطور الجواسيس » ! . ولقد حاول الجنرال سافاري أن يحمل نابليون على أن يمنح شولميستر وسام « اللجيون دونير » ، ولكن نابليون أصر على أن يكتفى باللقب الذي ذكرناه ، قائلا ان الذهب هو المكافأة الوحيدة التي يحق للجاسوس أن يطمع فيها . والواقع أن نابليون كان سخيا ، اذ أصبح شولميستر موفور الثراء ، كما انه تبوأ مناصب

رفيعة خطيرة الشأن : فكان مديرا للبوليس فى النمسا ، وقوميسيرا عاما للقوات الفرنسية ٠٠ ولكنه احتفظ دائما الى جانب كل منصب - بمركزه كمدير للمخابرات السرية . وقد هيات له المناصب فرصا كافية لزيادة ثروته ، فاستغلها أعظم استغلال

وما كان سخاء نابليون بالمال دون الانقلاب الا رغبة منه فى أن لا تتسلط الأضواء على الجاسوس ٠٠ فقد كان غروره كفيلا بأن يزين له أن يبدو للناس أنه صاحب الفضل كله فى انتصارات نابليون !

الجاسوس الذى يخدم وطنه ٠٠ لا يكون وضعيا !

♦ ولقد ينظر بعض الناس الى الجاسوس نظرتهم الى «مخلوق وضع » ، يستخدم وسائل قوامها الجبن والنذالة . ولكن هذا القول لا يصدق فى كل الاحوال ، فان الجاسوس الذى يعمل لنصرة قضية بلاده يؤدى خدمة من «أنبل» الخدمات ٠٠ كما ان الجاسوس يحتاج الى شجاعة ، اذ انه « وحدة » قائمة بذاتها ، فهو لا يعتمد على اخوان أو زملاء يساندونه ويقوون روحه المعنوية . ولا مراء فى أن « الشجاعة » - بما لهذه الكلمة من مدلول عسكرى - لم تعوز شوليبستر . فقد حدث فى احدى المناوشات بمدينة (ويزمار) أن دب الاضطراب فى صفوف القوات الفرنسية ، واذا شوليبستر يتصدى لثلاثة عشر من الفرسان الهاربين ، فينظم منهم قوة شن بها هجمة عنيفة مكنته من الاستيلاء على المدينة ٠٠ واستطاع فى معركة أخرى أن يدافع وحده - تقريبا - عن جسر ذى قيمة حربية ٠٠ وعندما قامت حوادث الشغب فى (الازراس) ، سعى حتى اعتقل زعيمها وأعدمه فى الحال ، فقمع الثورة برصاصة واحدة ! ومن سخریات القدر ان نجاح شوليبستر أدى - فى الوقت ذاته - الى انهيار مكانته . اذ أن نابليون لم يكد يطمئن الى

انه أصبح سيد النمسا بأسرها - وكان جزء من الفضل في ذلك يرجع الى دهاء شوليبستر - حتى بادر الى الزواج من الاميرة « ماري لويز » النمساوية . وقد قدر لها أن تعرف الدور الذي لعبه هذا الجاسوس في ايقاع الكارثة بوطنها ، فعملت على حرمانه من الخطوة التي كان يتمتع بها في البلاط الفرنسي . . .

واعتزل شوليبستر الناس في ضيعة له بالألزاس . ولكن الجيش النمساوي لم يكد يدخل هذا الاقليم ، بعد انهيار نابليون ، حتى اتجهت بطارية كاملة من مدفعيته الى تلك الضيعة ، وأزالت بيت شوليبستر من الوجود . . . ومع ذلك ، ظل الرجل وفيا لنابليون في محنته ، فما ان غلب الامبراطور من جزيرة (البا) ، حتى انضم شوليبستر اليه . . . ولكن نابليون لم يلبث أن هزم في معركة (واترلو) ، فاعتقل شوليبستر . غير انه تمكن من الهرب بعد أن رشى الحراس وخسر الجزء الأكبر من ثروته

ومع أن أسرة « بوربون » لم تبد كرما نحو رجال نابليون - حين عادت الى حكم فرنسا - الا انها تركت شوليبستر يعيش . . . بل انها منحته ترخيصا بفتح حانوت لبيع السجائر والتبغ في (ستراسبورج) . . . وقد حدث في سنة ١٨٥٠ أن زار رئيس جمهورية فرنسا - الذي أصبح امبراطورا باسم نابليون الثالث - عاصمة الالزاس ، فذهل وزراؤه حين رأوا ان أول عمل حرص عليه ، هو أن زارحانوتا متواضعا لبيع التبغ ، وصافح صاحبه الشيخ !

وضرب شوليبستر رقما قياسيا في أعمار الجواسيس ، اذ مات وهو في الثالثة والثمانين من عمره !

الفصل الثانى

« أستاذ الجاسوسية »

♦ اذا كان شولميستر « امبراطور الجواسيس » ، فان ولهيلم شتاير كان أستاذًا للجاسوسية . وهما معا يتقاسمان فضل تأسيس الجاسوسية بشكلها الحديث !

ولقد كان كل منهما ينحدر من أسرة فقيرة ولكنها كريمة الاصل . وكان لكل منهما اتصال بالكهنوت . فقد اتجهت دراسة « شتاير » فى البداية الى الدين ، ثم اتجه الى دراسة القانون فى برلين ، وادى اتصاله بالمجرمين - بحكم مهنته كمحام - الى ان يحترف الجاسوسية . ولم تكن مغامراته الأولى مشوقة ، لان بروسيا كانت تحت حكم عاهل مستبد ولكنه جبان ، هو « فردريك ولهيلم » ، الذى كان يعيش فى رعب من الأفكار الديمقراطية التى اجتاحت أوروبا حوالى عام ١٨٤٨

وكانت وسائل شتاير سهلة بسيطة ، اذ كان ينضم الى الجمعيات الثورية ويتظاهر بالتحمس لها ، لكى يتمكن من معرفة أسرارها . وحدث مرة ان هاج القوم ضد الملك ، واتجهوا الى قصره ، فتحايل شتاير حتى صار على رأسهم ، وأبدى من النشاط والتحمس ما حملهم على « انتخابه » متحدثا باسمهم . واذا ذاك ، استطاع ان يطمئن الملك المذعور الى ان « جاسوسه شتاير » يقبض على أزمة الموقف ! ولم ينس الملك قط هذا الحادث طيلة حياته . أو طيلة السنين التى ظل خلالها محتفظا بعقله ، على الأقل ! . ولما كانت لشتاير خبرة واسعة بالقانون الجنائى ، لذلك لم يكن ثمة عجب فى أن تعينه السلطات العليا مديرا للبوليس ، وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره !

وما ان تولى هذا المنصب ، حتى شرع فى تنظيم ادارته وفق

رغبته ، فاستعان الى جانب ضباطه النظاميين بنفر من عملائه المجرمين! ورحل الى انجلترا ليراقب الألمان المبعدين عن بلادهم، ومنهم كارل ماركس ، صاحب كتاب رأس المال !

وظل شتاير يتمتع بنفوذ هائل حوالى عشر سنوات ، ثم أصبح جنون الملك أشد من ان يخفى . . وكان الوصى على العرش - وقد تبوأ الحكم فيما بعد باسم الامبراطور غليوم الأول - يعتقد ان تعيين شتاير فى منصبه من آثار جنون ابيه، ومن ثم فصله من الخدمة فجأة . وانتهاز اعدائه الكثيرون هذه الفرصة ، فساقوه الى ساحة القضاء متهما بائنتى عشرة تهمة . . ولكن ذكاه والمأامه بالقانون الجنائى مكناه من ان يبرىء نفسه امام القضاء . وقد عمد فى سبيل ذلك الى ااماطة اللثام عن جهوده فى الجاسوسية ، مثبتا أنه ما بذل هذه الجهود الا لمصلحة العرش .

وهنا حدثت ظاهرة عجيبة : فمن المعروف ان افتضاح أمر الجاسوس وتكشف هويته ، يسدان أمامه ميدان التجسس بعد ذلك . أما فى حالة شتاير ، فان ااماطة اللثام عن أسرارها كانت بداية حياة جديدة بالنسبة اليه . فقد التحق بخدمة قيصر روسيا ، وقضى خمس سنوات مشرفا على مراقبة أعداء القيصرية من الروس المقيمين فى الخارج

على ان شتاير ظل فى قرارة نفسه بروسيا ، متعلقا بوطنه، رغم عمله فى خدمة القيصر . فما ان انتهى أمد هذه الخدمة ، حتى عاد الى بلاده بثروة كبيرة من المعلومات عن روسيا وكان تجسسه - حتى ذلك الحين - قاصرا على الميــدان السياسى دون العسكرى . ولكنه قدم الى « بسمارك » فى سنة ١٨٦٣ ، فأدرك ذلك السياسى الثاقب البصيرة ، مدى مقدرة شتاير وكفاءته . .

وكان أهم ما يسعى اليه بسمارك - فى تلك الاونة - ان يجرب قوة بروسيا ازاء النمسا ، بعد ان أعد الجيش البروسى

تمام الاعداد لتلك المهمة ، طامعا في أن يدحر النمسا ويمكن لبروسيا من ان تتزعم الدويلات الالمانية ٠٠ ومن ثم طلب الى شتاير ان ينظم النشاط الجاسوسى - فى قلب النمسا ذاتها - تمميدا لهذه الغاية

بائع التماثيل الذى أصبح مستشارا للملك !

♦ واتبع شتاير ، فى سبيل التسلل الى معسكر الاعداء ، ما اتبعه شوليستر من قبل ، مع فارق واحد : فقد دخل شوليستر النمسا منتحلا شخصية سليل لحدى الأسرات النبيلة ٠٠ أما شتاير فقد دخلها كبائع متجول ، يدفع امامه عربة محملة بالتماثيل الدينية الصغيرة ، والايقونات ، وبطاقات البريد القذرة ! ٠٠ وكان موفقا فى اختياره ، فان الجنود يشغفون عادة بالايقونات والصور !

وظل شتاير يدفع عربته فى أرجاء النمسا أربعة أشهر . وكان يدخل معسكرات الجيش ويساوم عملاءه من الضباط والجنود ،



ثم يجاذبهم أطراف الحديث ٠٠ وعندما عاد الى بروسيا ، دهش الجنرال فون مولتكه - القائد البروسى المشهور - لدقة المعلومات والبيانات المفصلة التى حملها ، والتى استعان بها بسمارك ، فلم يلبث ان اتخذها قادته اساسا فى رسم خططهم ، وتحديد مواعيد عملياتهم الحربية ٠٠ وبهذا استطاعوا ان يكسبوا المعركة

الحاسمة بعد ستة أسابيع من بدء الحرب !

ولقد عين شتاير - أثناء هذه الحملة - مديرا للأمن ، ولكن الضباط الاوتوقراطيين فى الجيش البروسى كانوا ينفرون منه ، وان كان « فون مولتكه » قد أسبغ عليه رضاءه ، وأنعم عليه بوسام رفيع . ولم يكن القائد البروسى محاييا فى هذا ، فان شتاير لم يقتصر على كشف مواطن الضعف فى النمسا ، بل انه نظم هيئة جد قديرة لمقاومة جاسوسية الاعداء فى بلاده ، واستغل ما أصبح معروفا اليوم بأنه أقوى سلاح فى الحرب الباردة أو الساخنة على السواء . . سلاح الدعاية ! وقد بلغ من براءة شتاير ، انه استخدم هذا السلاح بحديه : استخدمه فى رفع الروح المعنوية لدى البروسيين ، كما استخدمه فى اضعاف الروح المعنوية لدى الاعداء !

وفى تلك الاثناء ، كان « غليوم الأول » - الذى أقصى شتاير عن منصبه حين كان وصيا على العرش - قد أصبح ملكا لبروسيا . . ولكنه اضطر فى هذه المرة الى الاعتراف بفضل شتاير وجهوده ، فمنحه مكافأة مالية سخية ، وعينه مستشارا خاصا للملك !

« أستاذ الجاسوسية » . . يمهّد لغزو فرنسا !

♦ وما ان انتهى بسمارك من حرب النمسا ، حتى بدأ يتطلع الى محاربة فرنسا . ولم يشغل باله - اذ ذاك - سوى ان قادة جيشه أبدوا رغبتهم فى تجنب فتح جبهة ثانية ، أو بالاحرى فى تجنب اشتباك روسيا مع بلادهم اثناء محاربة الفرنسيين . وقد استطاع شتاير بداهته وذكاؤه ان يحقق لهم رغبتهم هذه . اذ جمع معلومات تثبت وجود مؤامرة بولندية لاغتيال قيصر روسيا - الذى كان يزور فرنسا فى تلك الفترة - ولكن شتاير تكتّم هذه المعلومات حتى اطمأن أولا الى ان البوليس الفرنسى اعتقل المتآمرين فى الحفاء ، اى دون ان يدري القيصر بما كان

يجرى ٠٠ واذا ذاك فقط ، اذاع شتاير ما كان لديه من معلومات ٠٠ ولما لم يكن التامر على قيصر روسيا بالجريمة الخطيرة ، لا سيما في عهد ديمقراطية نابليون الثالث ، فان المتأمرين لم يعدموا ، مما أحق القيصر الروسى ٠٠ ومن ثم دب الجفاء بين روسيا وفرنسا !

وبدا شتاير بعد ذلك حملة التجسس التى اراد ان يمهّد بها لغزو فرنسا ، ففضى ثمانية عشر شهرا يجوس خلال الاقاليم الشمالية الشرقية من فرنسا - وهى التى كان مقدرا ان تغدو ميادين للقتال المقبل - وانشأ شبكة للجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل ، وقد ساعده فى ذلك ان القيود لم تكن شديدة على الحدود القائمة بين بروسيا وفرنسا ، حتى ان كثيرا من الألمان كانوا ينتقلون الى فرنسا وينتشرون فى أرجائها سعيا وراء الرزق .

وكان شتاير يدرك فداحة المسئولية الملقاة على عاتقه ٠٠ فلو انه ارتكب خطأ واحدا ، لكانت فى ذلك الطامة الكبرى ، اذ كان بسمارك يعتمد على تقاريره ويعول على ما يجيء بها لاتخاذ قراره النهائى ، سواء بالحرب أو السلام ! ومن ثم عكف الجاسوس على دراسة « طبوغرافية » المنطقة التى كان مقدرا أن يدور فيها القتال ، وعنى بملاحظة مواطن الضعف فى خطوط المواصلات والامدادات ٠٠ وبذلك أدى خدمة جديدة للجاسوسية الحربية التى تسبق العمليات !

كذلك جمع وأعوانه احصاءات سرية دقيقة عن الشئون الاقتصادية لمناطق الحدود ، ليتمكن القائد الالماني من تقدير ما تستطيع كل قرية أن تمد به الجيش الغازى من مؤن وأقوات وما لبث شتاير ان عاد الى بروسيا فى أوائل سنة ١٨٧٠ ، وقال لبسمارك - مباهيا - انه بث ثلاثين الفا من اعوانه فى فرنسا ٠٠ ومع ان العدد الحقيقى لم يتجاوز أربعة آلاف - فى الواقع - الا

انهم كانوا يؤلفون اكمل شبكة للتجسس عرفها التاريخ حتى ذلك الحين !

وانتصرت قوات بروسيا ، ووقع الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث في أسر الالمان ، واستقر شتاير ورجاله في قصر (فرساي) . حتى اذا سعى السياسي الفرنسي المعروف « جول فافر » الى مفاوضة الغزاة المظفرين ، انزله الالمان في ذلك القصر . واذ ذاك ، انتحل شتاير شخصية خادم عين للمعناية بحاجات الضيف ، وبذلك تسنى له ان يتجسس عليه ، وأن يفحص رسائله ويتعرف من خلال سطورها مواطن الضعف في موقف الفرنسيين ، مما ضاعف من فرص المساومة لدى الجانب الالماني !

وازداد عدد الأوسمة التي نالها شتاير ، حتى أصبح ٢٧ وساما . ومع ذلك ، فان العسكريين الالمان ظلوا يزدرونه !

والواقع ان النصر لم يغر شتاير على أن يخفف من وطأة الجاسوسية على فرنسا ، اذ كان يرى ان فرنسا لن تقعد عن الانتقام من ألمانيا . ولهذا ظل يحتفظ بشبكة جاسوسيته ، وأخذ يبتاع الفنادق ويعين أعوانه في مناصب الادارة فيها ، كما راح ييشهم في دور الوزراء ومكاتبهم . حتى لقد كانت خلية زفير الحربية الفرنسي ، كما كان حوزيه ، من جواسيس شتاير ، في فترة من الفترات !

موت محسورا . . لأن الالمان كانوا يزدرونه !

♦ على أن المهام التي كانت ترتقبه في ألمانيا ، كانت أخطر وأكثر ارهاقا . فان الدويلات التي اندمجت في الامبراطورية الألمانية الجديدة كانت مصدر خطر كبير ، اذ كان من المحتمل أن تنتقض على الامبراطورية في أي وقت . ومن ثم حرص شتاير على أن لا يغفل مراقبتها قط . كذلك كان عليه أن يتخذ

الحيطة لنفسه ، ازاء أعدائه المجردين من الرحمة . ومع ذلك ، فانه مات مثقل القلب بالهم محسورا ، لأن المجتمع الألماني ظل يزدريه !

ويصف مؤرخ معاصر جنازته ، فيقول ان عدد المشيعين كان كبيرا ، وان عليه القوم ساروا عن بكرة أبيهم وراء تابوته . . ولكن جو الجنازة لم يكن قاتما حزينا ، لأن بعض هؤلاء القوم لم يجيئوا الا ليتثبتوا من أن شتاير قد مات . . الى الأبد !

ومع أن شتاير كان « أستاذا » فى الجاسوسية ، الا انه لم يكن عبقرىا ، اللهم الا فى قدرته على تحمل الآلام ، وفى براعته فى تنظيم الجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل فى اتساعه وكفاءته . . وقليلون هم الذين لم يفيّدوا من آثاره ، من العاملين اليوم فى المخابرات السرية . كذلك يعتبر شتاير المسئول عن المعاملة العنيفة التى يلقاها الجواسيس اليوم ، اذا وقعوا فى قبضة أعدائهم ، اذ انه لم يكن يرحم أى جاسوس فرنسى يقع فى قبضته . . وكان مجرد اقدم أى فلاح فرنسى على مساعدة مواطنيه - ابان الاحتلال الألماني لفرنسا - ذنبا يجعله فى نظر الألمان جاسوسا ! . . ولا جدال فى أن الفرنسيين استخدموا بدورهم هذا الأسلوب فى معاملة أى جاسوس وقع فى أيديهم ، من أعوان شتاير على ان أهم أثر تركه شتاير فى عالم الجاسوسية ، هو ذاك الذى يتمثل فى حجم نظامه وكفاءته . . ومن الممكن أن يقال انه ارتقى بالجاسوسية من « التجزئة » الى « الجملة » .

الفصل الثالث

جواسيس قدامى . . وعالم جديد !

♦ كان أول آثار الجاسوسية على الدنيا الجديدة - أمريكا -

انها أثارت جدلا طويلا حول مشروعية اعدام الجاسوس ، من الناحية القانونية . فعندما اشتد النزاع بين بريطانيا والمهاجرين الأوائل - الذين عمروا أمريكا - كان البريطانيون على دراية بتطورات موقف الأمريكيين . ولا عجب في ذلك ، فان عددا كبيرا ممن عمروا أمريكا ظلوا يحتفظون لوطنهم بالولاء . على ان نشاط المخابرات البريطانية لم يستند الى هؤلاء ، ولا اقتصر على حدود المستعمرات الامريكية ، وانما امتد الى فرنسا وأسبانيا ، اذ كان ملوكهما يمدون أيديهم بالعون لأولئك الأمريكيين الأوائل . لا لأن هؤلاء الملوك كانوا يتشيعون للديموقراطية ، وانما لأنهم كانوا لا يتورعون عن أى عمل يضر بانجلترا !

ولقد تجلى تقدير الأمريكيين للفرنسيين في انهم أوفدوا أحد أقطابهم - وهو بنجامين فرانكلين - ليمثلهم في باريس . وكان فرانكلين يستعين بمساعد يدعى الدكتور ادوارد بانكروفت . ولكنه لم يكن يدري ان هذا «البانكروفت» كان جاسوسا بريطانيا . وقد اضطر بانكروفت الى أن يكون جاسوسا مزدوج الشخصية . ذلك لأنه كان ينقل الى لندن كل ما يرد في ملفات فرانكلين وأوراقه الخاصة . ولكى يجد حجة يستند اليها فى سفره الى لندن ، تظاهر بالتجسس على بريطانيا لمصلحة أمريكا ، حتى يطمئن فرانكلين . ومن ثم فقد كان يعود الى باريس - من لندن - محملا بأنباء متباينة ذات قيمة ، ولكنها كانت عادة من الأنبياء القديمة التى لاسبيل لفرانكلين الى الافادة منها . وتوحى الأساليب الدقيقة المدروسة التى كان ينتهجها هذا الجاسوس ، بأن « حرب الاستقلال » الأمريكية كانت خليقة بأن تفقد الشطر الثانى من اسمها - أى تصبح « حربا » دون « استقلال » - لو أن البريطانيين عنوا بأساليبهم العسكرية فى الحرب قدر ما عنوا بتنظيم جاسوسيتهم !

أما في أمريكا ، فقد كان « جورج واشنطن » - بطل حرب الاستقلال - مشغولاً بدراسة تاريخ فردريك الأكبر ، ومن ثم أدرك قيمة الجواسيس . ولكن تجربته الأولى جاءت بفشل أليم ، وأن كان الجاسوس الذي قام بها قد اكتسب مكانة في تاريخ القومية الأمريكية ، شبيهة بمكانة أبطال الأساطير وكان ذلك الجاسوس هو : « ناثان هيل » . . . وكان شاباً باسلاً ، أوفد إلى صفوف القوات البريطانية ليتجسس أنباءها . ولكن الشجاعة ليست عنصراً كافياً لأي جاسوس ، إذ أن الخبرة والمران يفوقان الشجاعة في هذا المضمار . . . ولم يكن « هيل » مدرباً ، وإنما كان غراً ساذجاً ، فسرعان ما انكشف أمره ، وحوكم وشنق . ومع ذلك فقد أذيعت قصص مثيرة عن شجاعته عند الموت ، وعزى إليه أنه قال إنه يأسف لأنه لا يملك سوى حياة واحدة يضحى بها من أجل وطنه . . . وقد ردد كثير من الساسة هذه العبارة في خطبهم ، كما أقيم لناثان هيل تمثال في نيويورك !

على أن جورج واشنطن ما لبث أن أدرك أن لا جدوى من الجواسيس الهواة ، ومن ثم أنشأ « قلما » للمخابرات السرية مؤلفاً من جواسيس محترفين ، فسجل هذا القلم نجاحاً فائقاً . كذلك نظم واشنطن هيئة لمقاومة تجسس الأعداء أنباء أمريكا ، وقد استطاعت هذه الهيئة أن تتأثر لناثان هيل . . . وكان أعظم نصر لها يوم ساقط الجاسوس البريطاني الميجر جون أندريه إلى حتفه . ففي أوائل سنة ١٧٨٠ اتصل قائد أمريكي يدعى « بندكت ارنولد » بالبريطانيين ، مبدياً استعداده لخيانة الجانب الأمريكي ، وتسليم قلعة (ويست بوينت) إليهم . فأرسلت بريطانيا إليه الميجر جون أندريه ، في زيه العسكري ، ومعه علم الهدنة . وفيما كانت المفاوضات وتديرات التسليم دائرة ، اضطرت سفينة أندريه إلى التوغل في نهر هدسن ، هرباً من النيران الأمريكية . ولكي يعود أندريه أدراجه -

بعد أن فقد سفينته - عمد الى ارتداء الثياب المدنية ، مخالفاً بذلك الأوامر التي كانت صادرة اليه . واذ ذاك اعتقله الأمريكيون ، وحاكموه على انه جاسوس ، ونفذوا فيه حكم الاعدام . وجزع السير هنرى كلينتون - قائد القوات الاستعمارية البريطانية - لأن أندريه كان صديقاً شخصياً ، وجاسوساً ، له !

وقد ظل الجدل دائراً حول مشروعية اعدام أندريه لسنوات عديدة بعد الحرب ، فكان ثمة من يرون انه أعدم ظلماً ، لأنه كان في مهمة تتعلق بمفاوضات في ظلال هدنة . . وكان هناك من يرون أن تخليه عن الزى العسكري ، وارتدائه الثياب المدنية ، يتضمنان مخالفة لشرط جوهرى من شروط المفاوضات العسكرية . على أن حكومته أصرت على انه أعدم ظلماً ، وغالت في اظهار رأيها ، بأن دفنته مع العظماء في مقابر (ويستمنستر) ، فكان بذلك الجاسوس الوحيد الذى دفن مع العظماء

الجاسوسية فى الحرب الأهلية الأمريكية

♦ وانتهت الحرب ، وأعلن استقلال أمريكا ، فانصرف الأمريكيون الى شئونهم الداخلية ، واهملوا المخابرات العسكرية اهمالاً تاماً . . وما حاجتهم الى التجسس والدولة الناشئة قد آثرت - فى نزوعها الى التحرر - أن تنأى بجانبها عن كل ما يقحمها فى مشكلات أوروبا ؟

ولكن الغيب كان يضمّر للأمريكيين وقتاً يحتاجون فيه الى التجسس ، لا على اعدائهم ، وانما على بعضهم بعضاً . . وكان ذلك عندما بدأت الحرب الأهلية الأمريكية . فقد اعترف أحد زعماء الولايات الشمالية - والحسرة تفرى فؤاده - بأن هذه الحرب كان من الممكن تلافيها لو أن الولايات الشمالية أوتيت نفراً من الجواسيس الأكفاء الذين كانوا

خليقين بأن يعرفوا ان سكان الجنوب كانوا يتأهبون للاشتباك! على أن الشماليين بادروا فى مطلع الحرب الى انشاء ادارة للمخابرات ، نظمت أدق تنظيم على يدى « ألان بينكرثون » ، الذى كان قبل ذلك من رجال البوليس السرى غير الحكوميين . ولعله أقرب رجال المباحث شبها بأولئك الذين يرد ذكرهم فى القصص البوليسية الخيالية !

وقد استطاع اثنان من أعوان بينكرثون - هما : تيموثى وبستر ، وهارى ديفز - أن يندسا بين صفوف عصاة من أبناء الجنوب ، كانت تتآمر على قتل « ابراهام لينكولن » ، الذى كان قد انتخب رئيسا للدولة الناشئة وأوشك أن يتقلد المنصب رسميا . وما ان عرف بينكرثون بالمؤامرة ، حتى بادر الى اتخاذ التدابير التى تقى سلامة الرئيس ، فنقله سالما الى مدينة واشنطن . على ان السلطات أقدمت اذ ذاك على عمل لم يكن ينطوى على روية أو حكمة ، اذ روجت أنباء المؤامرة وفشلها ، فأخذ الرأى العام يسبغ على النبأ من خياله ويحيطه بجو روائى ، مما ألهب الشعور فى الولايات الشمالية ، وأقنع أبناء الولايات الجنوبية بأن بلادهم مكنتة بجواسيس من الشمال . . . وعى فكرة أثارت ذعرهم وحنقهم رغم بعدها عن الحقيقة !

وبدأت المعركة بين الشمال والجنوب ، فأصبح بينكرثون أول رئيس للمخابرات السرية التابعة للحكومة الاتحادية فى أمريكا . وساعدت دقة البيانات والمعلومات - التى كان يحصل عليها - على سد بعض النقص الذى كان ملموسا فى الاستعدادات الحربية لدى الشماليين . وأخذ جهاز المخابرات السرية فى الاتساع والتشعب ، ولكنه منى بكثير من الفشل ، لأن بينكرثون كان يضطر الى تجنيد أو تعيين ألوف من الهواة ، الذين لم يؤتوا - رغم تحمسهم - من الكفاءة والاستعداد ما يمكنهم من النهوض بأعباء المهام التى كانوا

يكلفون بها ! .. وكانت طرق هؤلاء الهواة تختلف كل الاختلاف عن طرق مدرسة شولمستر وشتاير التي كانت تتصف بالكفاءة والتجرد من الرحمة . ولقد اكتشف بينكرثون يوما ان احدى السيدات ذات المكانة فى واشنطن تتجسس لحساب الولايات الجنوبية ، فاعتقلها ، وحاول أن يستخدم دارها فحالا لاعتقال المتعاونين مع تلك السيدة . ومن ثم كمن مع رجاله فى الدار ليعتقلوا المترددين عليها ، ولكن أحدا لم يفد . . وتبين أن قلم المخابرات السرية هزم على يدى صبية فى الثامنة من عمرها ، جلست بين أغصان شجرة مجاورة للدار ، وراحت تحذر كل الوافدين عليها ، فكانوا يعودون أدراجهم من حيث أتوا !



على أن تيموثى وبستر - مساعد بينكرثون - حصل بحيلة بارعة على معلومات وافية عن جواسيس الولايات الجنوبية . فقد رسم خطة مجبوكة أدت الى اعتقاله على انه من جواسيس الجنوب الهاربين من السلطات الشمالية ، وبذلك اتيح له أن يعاشر الجواسيس المعتقلين وان يجمع معلومات كثيرة عنهم وعن الجنوب . وما لبث ان فر من السجن ورحل الى الجنوب ، واستطاع بهذا « الماضى » أن يلتحق بخدمة الولايات الجنوبية ، وان ينفذ الى الاوساط العليا فيها . وقد اعترف قادة الشمال

— بعد ذلك — بقيمة ودقة البيانات التي أمدهم بها في هذه المغامرة

على انه لم يلبث — لسوء الحظ — ان مرض • وهنا ارتكب بينكرثون غلطة شنيعة ، اذ أوفد اثنين من رجاله لانقاذه ، فاعتقلا وافشيا سر « وبستر » • وكان ان قضى عليه بالاعدام • ولم تبد حكومة الشمال براعة كافية في علاج قضيته • • فقد كانت سجونها ملأى بالجواسيس الجنوبيين ، ولو انها هددت باعتبارهم رهائن واعدامهم ، لاستطاعت — في الغالب — أن تنفذ « وبستر » • ولكن المذكرة التي أرسلتها هذه الحكومة الى السلطات الجنوبية كانت « ديبلوماسية » ، نمت عن ضعف جعل هذه السلطات تستهين بها • ولم يثر اعدام جاسوس من الهياج ما أثاره اعدام وبستر في الرأي العام الشمالي ، لا سيما حين طلب الجاسوس اعدامه رميا بالرصاص كأي عسكري ، فأبى الجنوبيون الا أن يشنقوه !

ينتحل شخصية مصور • • ويصور أهداف الأعداء !

♦ **وبزغ نجم جديد في أفق الجاسوسية الأمريكية ، استطاع أن يفتزع رئاسة المخابرات السرية من بينكرثون • • ذلك هو « لافاييت بيكر »**

ولم يكن بيكر جنديا ، وانما كان من رجال الاعمال ، وقد أدت أعماله التجارية الى اتصاله بالمخابرات ، والثابت انه عرض بنفسه المساهمة في هذا المجال الخطير ، فطلب اليه أن يقدم « عينة » مما كان بوسعه القيام به • وكانت الحرب لا تزال مشتعلة الأوار بين الشمال والجنوب ، فأخذ بيكر يجوس خلال معسكرات الجنوبيين ، منتحلا شخصية مصور متجول • وكانت آلة التصوير في ذلك الحين شيئا مستحدثا طريفا ، فكان الجنود — بل والقادة — يتسابقون للوقوف أمام بيكر كي يلتقط لهم صورة • • وكان من الممكن أن يستمر الجاسوس طويلا في جولته ، لولا أن آلة التصوير كانت مجرد

ستار .. كانت آلة ناقصة العدسات ، ولم يكن بيكر يحمل زجاجا حساسا ، ولا معدات التحميص والطبع . فلما أخذ الذين صورهم يطالبونه بالصور ، اضطر الى الفرار عائدا الى خطوط الشماليين ! .. على أنه كان قد التقط عدة صور لأهداف هامة ، فكان جزاؤه أن عين ضابطا في المخابرات

وأخذ نجم بيكر في الصعود بسرعة خاطفة .. كان أقرب الجواسيس الأمريكيين الى طراز شتاير ، اذ كان يمضى نحو هدفه دون أن يعجزه أى شئ . وكان يسلك فى سبيل ذلك أساليب لا يستسيغها أحد ، كالنصب والابتزاز . على انه استطاع أن يمد نظام الجاسوسية الأمريكية - الذى كان فى ذلك الحين فجأ - بالناحية الواقعية التى كانت تعوزه . ومن ثم اتسع نطاق المخابرات السرية عندما تولى رئاستها ، وتحسن مستوى كفاءتها ونشاطها .. ولكنه ارتكب غلطة جسيمة ، اذ أهمل الجانب المقاوم لجاسوسية الاعداء ، فى ادارته ، مما أوقع بأمريكا والعالم خسارة فادحة

**لينكولن يعارض فى اعدام الجواسيس ..
فيقتله جاسوس !**

♦ **والذى** يقرأ التاريخ العسكرى الأمريكى فى تلك الفترة - فترة الحرب الأهلية - قد يعانى بعض الارتباك ، لأن الجيشين الشمالى والجنوبى كانا يطلقان على جواسيسهما اسم « الكشافة » أو « الرواد » . على أن الاسم لا ينال من قيمة الاعمال التى قام بها أولئك الجواسيس ، ولا من بسالتهم ، رغم أن أكثرهم كانوا من الهواة !

وكان ابراهام لينكولن يعارض فى اعدام جواسيس الجنوب . وقد وقعت فى أيدي الشماليين يوما جاسوسة أكرموا وفادتها وأحسنوا معاملتها رغم انها قتلت جنديا من أبنائهم وهى فى السابعة عشرة من عمرها .. تلك هى « بيل

بويد» ، التي استطاعت بجمالها أن تحمل كثيرا من ضباط الشمال على أن يطمئنون اليها ، ويتحدثوا دون حرج على مسمع منها ، فجمعت معلومات كثيرة مكنتها من أن تنذر «جاكسون» - قائد الجنوبيين - من هجوم قوى كان الشماليون يدبرونه له! على انها لم تلبث ان اعتقلت - نتيجة وقوع أحد رسلها فى أيدى السلطات - وانتهى الأمر بأن سلمت الى الجنوبيين فى مقابل جاسوس شمالى كان فى قبضتهم . حتى اذا انتهت الحرب ، تزوجت من ضابط من أبناء الشمال ، واكتسبت صيتا ذائعا وثروة طائلة بما ألقته من محاضرات وصفت فيها مغامراتها !

وكانت تقابلها فى مخبرات الشماليين جاسوسة مشهورة ، هى « اليزابيث فان لو » ، التي اعتمدت على ذكائها اكثر مما اعتمدت على جمالها . فقد كانت من أسرة جنوبية طيبة الأعراق ، وكانت لها آراء ضد الرق أثارت الشبهات فى مدى سلامة عقلها ، حتى أطلق عليها لقب : « بيت المجنونة » . . . فكان هذا خير ستار لها ! . . ولم تكن مغامرة بطبعها ، ولكنها كانت بارعة فى التنظيم والتدبير ، فمكثت فى دارها بريتشموند - عاصمة الجنوبيين - وبسطت شبكة جاسوسيتها لحساب الشماليين ، وكانت تستخدم «شفرة» خاصة لموافاة السلطات الشمالية بتقاريرها ! . . ولم تكن مهمتها عسيرة - اذ كان مستوى تدابير الأمن فى الجنوب منخفضا - وقد بلغ من دقة خططها أن نظمت وسيلة لتهريب الأسرى من الجنود الشماليين ، على نطاق واسع !

وقد أنفقت الأنسة « فان لو » ثروتها فى دفع أجور أعوانها ، فكان الجزء الوحيد الذى كافأها به الحكومة الاتحادية عندما تم لها النصر - أن عينتها مديرة للبريد فى (ريتشموند)! ولكن هذا المنصب لم يعوضها شيئا ، لأن الجنوبيين كانوا قد فطنوا - فى ذلك الحين - الى الدور الذى قامت به تلك التي

حسبوها « مجنوبة » .. وزاد من نحسها أن تولت الحكم
وزارة خفضت منصب مديرة بريد (ريتشموند) الى درجة
كتابية بسيطة ، ثم عزلتها منه فى النهاية .. فماتت فقيرة !
على أن الانسة « فان لو » ما كانت لتحرز ما أحرزت من
نجاح - رغم دهائها وذكائها - لولا اهمال الهيئة الموكلة
بمقاومة جاسوسية الشمال ، لدى الجنوبيين .. وهو عيب
كان الشماليون يعانون منه هم الآخرون . وقد ازداد
استفحالا بعد انتهاء الحرب ، لأنهم لم يفتنوا اذ ذاك الى أن
الجنوبيين لم يسلموا لهم فى الحرب الا قهرا ، وقد ظلوا بعد
انتهاء القتال يعارضون الشماليين جهرا وعلانية .. وكان من
أعنف أنصار مبدأ انفصال الجنوب عن الشمال ، « جون
ويلكس بوث » الذى كان ممثلا وخطيبا مفوها . وقد
سد رجال المخابرات الشمالية آذانهم دون ثرثرته ، اعتقادا
منهم بأن الرجل الذى يتكلم كثيرا لا يعمل شيئا على الاطلاق .
ولكنهم كانوا على خطأ عظيم فى ذلك ، اذ دفعوا حياة « ابراهام
لينكولن » ثمنا لفظتهم هذه ! .. فقد استطاع بوث أن يقتل
ابراهم لينكولن أثناء وجوده فى المسرح . وقد حاول بيكر -
مدير المخابرات - أن يغطى اهماله باثارة عاصفة من الهياج
ضد القاتل وشركائه !

وهكذا نرى أن الجواسيس الذين مجدهم الأمريكيون - فى
تاريخ حرب الاستقلال والحرب الأهلية - لا يشغلون مكانا رفيعا
فى سجلات الجاسوسية العالمية !

الفصل الرابع

قضية دريفوس

♦ كان « ألفريد دريفوس » يهوديا .. ولو لم يكن يهوديا
لما أصبح محور قضية من قضايا التجسس والدسائس اهتزت

لها الجمهورية الفرنسية فى فترة من فترات تاريخها الحديث .
ذلك لأن هتلر لم يكن خالق مذهب الاضطهاد العنصرى ، وانما
كان أكثر المؤمنين به تطرفا !

وقد أمارت لثام المؤامرة التى اتهم فيها هذا اليهودى ، ضابط
من المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، من رجال المخابرات السرية
الفرنسية . فقد كان من مهام « بريكيه » - الضابط - ان يراقب
الملحق العسكرى الالمانى فى باريس ، لأنه كان من الجواسيس
الديبلوماسيين . وكانت اساليب « بريكيه » عادية الى درجة
كبيرة ، اذ كان يرشو المرأة الموكله بجمع قممات دار ذلك
الالمانى ، فكانت تحمل اليه محتويات سلة الاوراق المهمله . .
وهى حيلة عتيقة ، تشر أحيانا بعض النتائج



على أن « بريكيه » لم يلبث ان عمد الى وسيلة ثانية أسفرت
عن نجاح أعظم ، اذ زاح ييىدى هوى عنيقا لزوجة بواب دار
الضابط الالمانى ! . . وما ان استجابت له المرأة حتى أصبح
فى مقدوره ان يراقب رسائل الضابط . وفى ذات يوم ، طرب
« بريكيه » حين وجد بين الرسائل الواردة للالمانى ، خطابا
غفلا من التوقيع ، يشير الى خمس خطط عسكرية كان كاتب
الرسالة على استعداد لان يبيعها للالمان . . وبدا من اول الامر
ان هذه الرسالة كانت خطيرة الشأن ، اذ لم يكن هناك من
يعرف شيئا عن تلك الخطط سوى نفر قليل من ضباط أركان

الحرب العامة • ومن ثم بدأت التحريات بين أولئك الضباط ، حتى انحصرت الشبهات فى خمسة ، كان بينهم « دريفوس » اليهودى !

وكان الكاتب « ألفريد دريفوس » من أسرة ألزاسية طيبة ، آثرت فى سنة ١٨٧١ ان تكتسب الجنسية الفرنسية • وقد التحق دريفوس بالجيش ، فأبدى مقدرة فائقة • ومع أنه لم يكن محبوبا من رفاقه ، الا ان أحدا لم يكن يملك ان ينكر عليه ذكاه وتفوقه الذهنى ، ولهذا عين فى هيئة اركان الحرب ، فكان اول يهودى يبلغ هذه المرتبة السامية فى الجيش الفرنسى • ثم دبرت مؤامرة خطيرة ، فاختير ليكون الضحية ، اذ كان من الانسب للجيش أن يدان يهودى بالخيانة ، عن أن يدان سليل أسرة فرنسية عريقة • لذلك اتهم بأنه كاتب الرسالة التى عثر عليها « بريكيه » • وأجريت له محاكمة صورية ، وقضى بتجريمه من رتبة العسكرية ، وبسجنه مدى الحياة فى (جزيرة الشيطان)

على ان أعداء دريفوس هم الذين أفسدوا بأنفسهم المؤامرة التى دبروها ، اذ عمدت صحيفة معادية لليهود الى نشر وصف زائف للقضية ، وغالت فى ذلك الى أبعد الحدود • والدعاية اذا تبادت اكثر مما ينبغي انقلبت الى عكس ما هو مرغوب منها • وقد ادى اسراف الصحيفة الى ان انقلبت قضية دريفوس الى قضية سياسية ، اذ استغلها الراديكاليون التقدميون كسلاح لمهاجمة غرمائهم الرجعيين

وبعد عدة اشهر من محاكمة دريفوس ، تولى رئاسة المخابرات السرية الفرنسية ضابط متوقد الذكاء يدعى الكولونيل بيكار ، فجاءه جاسوس - ذات يوم - برسالة من سلة مهملات الملحق العسكرى الالمانى ، وقد مزقت الى قصاصات صغيرة • وبضم تلك القصاصات - بعضها الى بعض - تبين ان الرسالة كانت تتضمن مسودة مذكرة موجهة من الضابط الالمانى الى الميجر

« استرهازى » .. وكان ضابطا فى الجيش الفرنسى ، ينحدر من أصل مجرى !

وظن بىكار انه وقع على قضية شبيهة بقضية دريفوس ، ولكنه دهش حين رفض رؤساؤه المضى فى التحقيق . فلما ألح عملوا على نقله الى شمال أفريقيا . واستغلت الكتلة المعادية لليهود هذا الحادث فى الدعاية ، وبذلك اشهرت سلاحا رد الى صدرها . اذ نشرت احدى الصحف - بتلك المناسبة - صورة للرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها ، ونشرت الى جوارها رسالة أخرى بخط دريفوس ، لتقنع القراء بتشابه الخط فى الرسالتين .. فاذا القدر يفسد على الصحيفة غرضها ، اذ تعرف صاحب مصرف مالى على خط صاحب الرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها .. وكان الخط لأحد عملائه .. وكان ذلك العميل هو « استرهازى » بالذات !

وقدم « استرهازى » للمحاكمة فبرئت ساحتة .. ولم تلق العدالة من السخرية مالمقيته فى فرنسا اذ ذاك . على ان القلم انبرى ليثبت مدى سلطانه ، فكتب الكاتب الفرنسى المعروف « اميل زولا » حملته المعروفة : « انى أتهم ! » ، وتولى جورج كليمنسو نشرها ، واذا فرنسا تنقسم الى فريقين : فقد انحازت العناصر التقدمية الى دريفوس ، ووقفت الدولة والكنيسة ضده ، وهما صاحبتا النفوذ والسلطان . وحوكم زولا بدوره وأدين ! وبلغت العنصرية أوج استعارها ، فلم يكن ينقصها سوى اعدام اليهود فى حجرات الغاز ، لتبلغ ما بلغته من مستوى فى عهد هتلر !

ثم وقع حادث غريب : كان بين كبار ضباط المخابرات السرية الفرنسية رجل يدعى الميجر هنرى .. وقد اكتشف هذا الضابط ان الرسالة التى حوكم من أجلها دريفوس ، كتبت على نوع خاص من الورق الازرق الرقيق ، لم يكن يستخدمه بين ضباط هيئة اركان الحرب الفرنسية سوى « استرهازى » .

ولكن هنرى كنتم اكتشافه ، لأنه كان متواطئاً مع المتآمرين . .
على أنه ما لبث ان خلف بيكار فى رئاسة المخابرات السرية ،
فأزعجته حملة زولا وكليمنسو ، وزور وثيقة لتعزيز اداة
دريفوس ، ولكن التزوير لم يكن متقناً . وشاء الحظ أن يكون
وزير الحربية اذ ذاك غير الوزير الذى بدأت فى عهده القضية ،
فاعتقل هنرى . . واذا به يعترف بالحقيقة . ثم انتحر فى
سجنه ، بينما فر استرهازى الى انجلترا .

وتجلت الحقيقة . . ومع ذلك فان السلطات رفضت الافراج
عن دريفوس ، فثار الرأى العام ، واضطرها الى اعادة محاكمته .
ولكن المسئولين زوروا ضده أوراقا جديدة ، فأدين مرة أخرى .
بيد أن رئيس الجمهورية تدخل وأصدر عفوا عنه . واذ ذاك
راح دريفوس يبذل جهودا جبارة لاثبات براءته

وفى سنة ١٩٠٦ أعيد الى خدمة الجيش ، كما أعيد الكولونيل
بيكار الى رئاسة المخابرات السرية . . واسدل الستار على أخطر
قضية جاسوسية هزت فرنسا بأسرها مرات عديدة !

الفصل الخامس

« المرقص رقم ١٣ بالأوبرا ! »

♦ كان الكولونيل « ألفريد ريدل » من الشخصيات
المبرزة فى ادارة مقاومة الجاسوسية فى النمسا ، وقد أوتى
ذكاء فائقا ونشاطا عارما . . ولكنه كان فى الوقت ذاته خائفا ،
يتجسس لحساب الروس ، وقد وقع فى فخ الادارة التى أنشأها
بنفسه !

فقد عين الكولونيل رئيسا لأركان الحرب فى براج - وكانت
اذ ذاك تابعة لأمبراطورية النمسا والمجر - فتولى معاونه
الكابتن «رونج» رئاسة قسم مقاومة الجاسوسية ، خلفا له . .
وكان له من الكفاءة ما يمكنه من أن يعزز النظم الدقيقة التى وضعها

ريدل . ثم أضاف إليها - عندما تخرجت الأحوال في أوروبا - نظماً جديدة ، كانت هي الأخرى من ابتكار ريدل ، إذ كان قد رسم مشروعاتها ثم أرجأ تنفيذها . وكان من بين هذه النظم فرض رقابة على البريد . وقد أحيطت هذه الرقابة بتكتم شديد ، وقيل لمن تولوها أن الغرض منها هو مراقبة التهريب ، ومن ثم كان عليهم أن يوجهوا اهتماماً خاصاً إلى الرسائل الواردة من مناطق الحدود بالذات . ولكن أحداً لم يكن يدري الغرض الحقيقي من هذه الرقابة سوى ثلاثة أشخاص فقط !

وفي شهر مارس سنة ١٩١٣ ، عثرت الرقابة على خطابين يحملان طابع بريد (ايو تكونين) - في بروسيا الشرقية - على مقربة من الحدود الروسية . وكان العنوان المكتوب عليهما غريباً : « المرقص ١٣ بالأوبرا - شباك ادارة البريد العامة - فيينا » . ولم يكن في المظروفين أية رسالة ، وإنما احتوى أحدهما على أوراق مالية قيمتها ثمانية آلاف كرونر ، والاخر على أوراق مثلها قيمتها ستة آلاف . وأعدت ادارة مكافحة الجاسوسية الشرك المعهود ، اذ عمدت الى مد سلك كهربائي من مكتب الموظف المسئول عن « شباك البريد » ، ينتهى بجرس في قسم للبوليس مجاور لادارة البريد . وعين رجلان من البوليس السرى لمراقبة الجرس ليل نهار ، حتى يقبل الشخص المقصود بعبارة « المرقص ١٣ بالأوبرا » ، فيتعلم الموظف تعطيله ريثما يضغط زر الجرس ، فيندفع المخبران الى ادارة البريد ويعتقلانه !

وتوالت الايام دون أن يظهر الرجل ، ففتر تحمس رجل البوليس . وفي ٢٤ مايو ، دوى رنين الجرس . وكان أحد الرجلين في دورة المياه ، والاخر منهمكا في غسل يديه . فلما بلغا دار البريد كانا قد ضيعا دقيقتين ثمينتين . ولم يكن في وسع الموظف المسئول عن « شباك البريد » أن يعرقل الرجل لفترة أطول من ذلك !

واندفع المخبران الى الباب، فلمحا سيارة من سيارات الأجرة منطلقاً عند ركن من الشارع، وتلفتا يبحثان عن سيارة يستقلانها، فلم يجداً. وانقضت عشرون دقيقة وهما في حيرة، يفكران فيما سيتعرضان له من نقمة رؤسائهما. وفجأة، لمحا السيارة التي رأياها من قبل، وحدثا أن المجهول استقلها، فسألا السائق عن المكان الذي ذهب اليه. وكان جوابه أنه نقل الرجل الى مقهى صغير يدعى «كايزرهوف»، فطلبوا اليه أن يحملهما الى هناك. وعنياً - أثناء الطريق - بتفتيش السيارة، فعثرا على قراب من الجلد الرمادي، من النوع الذي يستخدم لصيانة سكين الجيب - المطواة - وكان من المحتمل أن راكبا آخر، غير ذلك الرجل «المجهول»، هو الذي أسقط القراب. ولكنهما احتفظا به لأنه كان الأثر الوحيد الذي يعلقان عليه أى أمل!

وكان المقهى خالياً عندما بلغاه. ولم يتذكر صاحبه شيئاً عن الشخص الذي كانا ينشدانه. ولكنهما رأيا موقفاً قريباً لسيارات الأجرة، علما منه أن الرجل الذي كانا يسألان عنه، قد استقل سيارة الى فندق «كلومسر». ومن ثم فانهما سعيا الى هناك، وسألا موظف الاستعلامات عن الأشخاص الذين وفدوا على الفندق خلال نصف الساعة الأخير، فذكر أنهم أربعة. وهنا طلب اليه أكبر المخبرين رتبة أن يسأل عن فقد منهم قراباً لمطواة. وفيما هم كذلك، هبط رجل له قوام عسكري، رغم ثيابه المدنية، فدفع الى موظف الفندق بمفتاح غرفته. واذ ذاك، قدم اليه الموظف قراب المطواة، وسأله: «معذرة يا سيدي. هل سقط هذا منك؟». فتناول الرجل القراب قائلاً: «أجل، انه لى. شكراً!»، ثم خرج! ثم ذلك في ثوان معدودات، ولكنها كانت كافية لأن يعرف المخبران الرجل، اذ كان رئيساً لهما يوماً ما! ومن ثم أسرع أحدهما الى التليفون، فأبلغ رؤسائه أن «المركب ١٣ بالابورا،

لم يكن سوى ٠٠ الكولونيل ألفريد ريدل ، الرئيس السابق لقسم مقاومة الجاسوسية بالنمسا !

الموت ٠٠ عن الخيانة !

♦ وكان للنبا وقع أذهل الرؤساء ٠٠ بل ان في وسع القارئ أن يتصور انزعاج الكابتن رونج - رئيس قسم مقاومة الجاسوسية - عندما علم أن رئيسه السابق خائن ! ٠٠ ومن ثم فقد ذهب بنفسه الى ادارة البريد ، وبحث عن « الاستمارة » التي كتبها الشخص مقابل تسلم الرسائل ، ثم قارن الخط الذي كتبت به بالخط الذي وجده في مذكرة مؤلفة من أربعين صفحة ، كان رئيسه السابق قد كتبها عن مقاومة التجسس . وشد ما كانت دهشته حين تبين أن الخطين كتبتهما يد واحدة ! وفي تلك الاثناء ، كان المخبران يعملان على تعويض ما فاتهما ، فاقتفيا أثر ريدل بعد مبارحته الفندق ٠٠ ولكنه - وهو الحبير بتعقب الجواسيس - لم يغفل أمرهما ، فحاول أن يغرر بهما . غير أن محاولاته أخفقت . ولا بد أنه أدرك أن خيانتة قد افترضت ، فأراد أن يشغل المخبرين عنه ليتمكن من الهرب . ومن ثم أخرج من جيبه ورقة مزقها اربا ، وألقى بها في الطريق . ولكن المخبرين كانا من الذكاء بحيث أن أحدهما عاد ليجمع القصاصات ، بينما واصل الآخر تعقبه للجاسوس الكبير !

وضم الكابتن رونج القصاصات التي وافاه بها المخبر ، فوجد أنها قطع من ثلاثة ايصالات لرسائل مسجلة وجهت الى بروكسل ووارسو ولوزان ٠٠ وكان رونج يعرف هذه العناوين ، اذ كان قد اكتشف منذ أمد طويل أنها مراكز للجاسوسية الفرنسية والروسية والاطالية ! ٠٠ ومن العجب أن الذي أثبتتها في القائمة السوداء ، هو الكولونيل ريدل نفسه ، حين كان رئيسا لقسم مقاومة الجاسوسية !

وحمل الكابتن رونج الى رئيسه - ثم الى القائد العام - هذه التطورات ، وهو مثقل القلب . وفي تلك الاثناء ، كان ريدل قد عاد الى فندقه ، حيث وجد فى انتظاره صديقا يدعى الدكتور « بولاك » . وكان محاميا مبرزاً ، كثيراً ما تولى الدفاع أمام المحاكم فى قضايا الجاسوسية

وتناول الصديقان عشاءهما فى الفندق ، فقام بخدمتهما « جرسون » من رجال البوليس السرى . ولم يغب عن « بولاك » ما كان يبدو على صديقه من كرب ، فما زال به حتى زعم ريدل أنه مهموم لأنه كان مصاباً بالشدوذ الجنسى ، وهى ظاهرة تسبب تشنت البال ، كما تكبد صاحبها نفقات مالية باهظة ! . على أنه لم يذكر شيئاً عن خيانتة . وأراد بولاك أن يسرى عنه ، فعلم له ما يشعر به بأنه نتيجة الارهاق فى العمل ، واقترح عليه أن يعجل بالعودة الى (براج) . غير أن القائد العام للجيش كان فى تلك الاثناء قد عهد الى ثلاثة من الضباط بأن يرافقوا رونج الى الفندق ، وقال لهم انه يريد أن يعرف « مدى » خيانة ريدل ، وأنه لا بد لهذا الضابط من أن يموت ، دون أن يعرف أحد سر موته !

وعندما صعد الكولونيل ريدل الى غرفته فى الساعة الثانية عشرة مساءً ، عكف على الكتابة ، واذا بالضباط الأربعة يقتحمون الغرفة ، فبادرهم قائلاً : « اننى أعرف سبب مجيئكم . . لقد هدمت حياتى بيدى ، وهأنذا أكتب رسائل الوداع ! » . فقال له رونج : « لابد لنا من معرفة مدى نشاطك ، والفترة التى قضيتها فى خيانة بلادك » . وكان جوابه : « لسوف تجدون كل شئ فى بيتى ، فى براج . أما الآن ، فأرجو أن يعيرنى أحدكم مسدسه ! » . واذا ذاك قدم اليه أحدهم مسدساً صامتاً ، ثم خلفوه وحيداً ، وان أحكموا الرقابة حتى لا يفر !

وفى الساعة الخامسة صباحاً ، أوفدوا أحد المخبرين الى غرفته ، فألفاه ميتاً . وكانت آخر عبارة كتبها ، عبارة مؤثرة



أليمة : « لقد قضى على التبذير والشهوة ! صلوا من أجل ، فاني أدفع حياتي ثمنا لزلاتي » !.. ولم يكن قد مضى على تسلمه الخطابين أكثر من ثلاث عشرة ساعة ، حين كفر عن خيانتة وكتب : « هأنذا أموت ! »

وكانت المصلحة العامة تتطلب احاطة الحادث كله بكتمان شديد .. ولكن الظروف عملت على عكس ما أرادت السلطات ، اذ صاح تابع ريديل ، عندما قيل ان الرجل انتحر : « ولكن هذا ليس مسدس سيدى » .. على أنه أمر بالصمت . وصدر بلاغ رسمي جاء فيه ان الكولونيل ريديل أصيب بضيق واكتئاب عصبين نتيجة الارهاق في العمل والأرق ، مما دفعه الى الانتحار !

الجاسوس المنتحر .. كان يرقص فى كل حلبة !

♦ كانت أول صدمة للسلطات ، هي ان ريديل ظل يتجسس لحساب روسيا أكثر من عشر سنوات ، وقد أفشى لهم - الى جانب ذلك - أسرار النمساويين الذين كانت بلاده تبعث بهم للتجسس على روسيا ، كما وشى بالروس الذين حاولوا أن يبيعوا للحكومة النمساوية أسراراً عسكرية روسية !.. وقد دلت أوراقه على أن اجرامه وعبثه فاقا كل حد ، مما أزعج القيادة النمساوية العليا ، وحفزها على مواصلة السعى لمعرفة

مدى ما بلغته خيانة ريديل . وشد ما كان ذهول المسئولين حين تبينوا أن الرجل باع لعدوهم المنتظر - روسيا - خطة حربية سرية ، كانت تعرف بالخطة « رقم ٣ » . وكانت من أهم خطط القيادة النمساوية . فقد كانت السلطات الاوربية العليا توجس خيفة من وقوع الحرب ، قبل سنة ١٩١٤ بزمان طويل ، وكان من المرتقب أن يقع حادث ما بين النمسا ودولة الصرب الصغيرة ، فتضرب النمسا ضربتها في البلقان ، واذ ذاك تتدخل روسيا لحماية الصرب بوصفها دولة سلافية ، فتبادر ألمانيا الى مناصرة النمسا . وكانت النمسا تحسب لكل هذا حسابا ، فأعدت « الخطة رقم ٣ » وضمنتها تفصيلات كاملة عن تجميع القوات ، ووسائل النقل ، ومناطق القتال ، وأهداف الهجوم . وكان كل هذا مرفقا بخرائط وجداول احصائية دقيقة

اكتشف الضباط المحققون أن ريديل قد باع لروسيا كل هذا ، وان الصرب قد أصبحت على دراية بالخطة - عن طريق حليفتها - ومن ثم أدخل القادة النمساويون تعديلات كثيرة عليها ، ولكن المجال كان محدودا ، وكانت هيئة أركان الحرب قد حشدت في الخطة الاولى أجود أفكارها

وهكذا غيرت خيانة ريديل سير الحرب كلها . فان الخطة النمساوية نمت الى بلغراد - عاصمة الصرب - بالفعل ، فتلقفها الماريشال بوتنيك - القائد العام الصربي - وكان محاربا عبقريا ، فدرس الخطة دراسة دقيقة حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب . وكان عالما نفسيا كذلك ، فقرأ بين السطور والأرقام والخرائط ما كان يدور في رؤوس قادة العدو من أفكار ، واستطاع أن يحدد التعديلات التي يحتمل أن يدخلوها على الخطة

فعل بوتنيك كل هذا بدقة تدعو الى العجب ، وأعد قواته أتم اعداد . وبهت العالم حين رأى دولة الصرب الصغيرة

تصد هجوم جيوش امبراطورية النمسا والمجر - عندما نشب القتال - وكأنها كانت على دراية بكل حركة عسكرية اعتمدها العدو . وبدلاً من أن تبديد النمسا الضخمة دويلة الصرب الصغيرة في أيام ، أو في أسابيع قلائل ، امتدت الحملة ثلاثة عشر شهراً . بل ان الحرب في هذه الجبهة لم تنته الا بعد أن وفقت النمسا وحلفاؤها الى اغراء بلغاريا على دخول الحرب ضد الصرب ، مقابل منحها مساحة كبيرة من الأراضي البلقانية . وعندما ازداد الموقف حرجاً ، طلبت النمسا معونة ألمانيا ، رغم أن هذا الاستنجد كان بمثابة ضربة أليمة لكبرياء النمسا ولروحها المعنوية !

وكانت هذه الحيلة حلقة أولى في سلسلة نتائج وخيمة . . فان العجز المخزى الذي أظهرته النمسا - في قتالها مع الصرب - كان مثيراً لآعصاب المسؤولين الى حد لا يمكن تجاهله ، مما جعلهم ينقلون قوات من الجبهة المواجهة لروسيا الى جبهة الصرب ، فقلب ذلك خططهم الأصلية رأساً على عقب . . ذلك لأن اضعاف القوات النمساوية في الجبهة الروسية مهد للروس سبيل شن سلسلة من الهجمات العنيفة على (غاليسيا) ، فأوقعوا بالنمسا خسائر فادحة . . ولولا غباء هيئة أركان الحرب الروسية القيصرية ، لكانت المعركة حاسمة في مصير الحرب !

وكانت هذه هي النتيجة الأولى لخيانة ريدل . أما النتيجة الثانية فكانت أقل شأنًا من الأولى ، وان كبدت النمسا خسارة كبيرة أيضا . . اذ أن روسيا كانت قد بدأت - قبل انتحار ريدل - تعزز قواتها سرا تأهباً للحرب . ولو ان ريدل أبلغ السلطات النمساوية هذه الحقيقة ، لتراجع دعاة الحرب في النمسا عن تحمسهم . . ولكن اخفائه الأمر جعل أولئك الداعين للحرب يتمادون في إثارة الرأي العام ، وجعل النمساويين يقدرّون استعداد الروس بأقل من حقيقته ، مما

انتهى الى أن دفع عدد كبير من الضباط والجنود النمساويين حياتهم ! ٠٠ وقد ذكر أحد الثقات ان جاسوسية ريدل كلفت النمسا نصف مليون قتيل وجريح !
وقد امتدت آثار خيانة ريدل الى الميادين الاخرى طيلة الحرب ٠٠ بل ان هذه الخيانة كانت من الأسباب التي أدت الى انقلاب هذه الحرب الى حرب عالمية !

الفصل السادس

جاسوس ألماني ٠٠ يباشر عمله علنا !

♦ كان ذلك في أوائل القرن العشرين ، وقد اقتضت مكافحة الجاسوسية في بريطانيا على فرع خاص في « اسكتلنديارد » ، كان يفرض رقابة متواصلة على كل من يشتبه في انه جاسوس ، ويتولى حراسة الشخصيات الكبيرة في بريطانيا ، والشخصيات الكبيرة التي تزورها من الخارج . على أن هذا الفرع لم ينشأ في البداية لمقاومة الجاسوسية ، وانما كانت مهمته مراقبة الأجانب الذين يقدون على انجلترا كلاجئين ، إذ كانت بينهم نسبة كبيرة من المجرمين السياسيين والفوضيين

ولقد استنزفت جنازة الملك ادوارد السابع ، في عام ١٩١٠ ، موارد هذا « القلم الخاص » - كما كان يسمى - إذ اشترك في تشييعها عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات والشخصيات الكبيرة الموقدة من الدول ٠٠ فتولى رجال « القلم الخاص » حراستهم منذ هبوطهم أرض انجلترا . وقبل بدء الجنازة ، شرع أحد المفتشين في توزيع الحراس ، ولكنه استبقى اثنين من المخبرين المشهورين - هما « دروري » و « سيل » - الى النهاية ، فقال لهما ان غليوم - امبراطور ألمانيا - اصطحب

فى قدومه عددا من ضباطه ، بينهم ضابط من الاسطول يدعى البارون روستوك ، كان ملحقا بحريا فى احدى دول أمريكا الجنوبية يوما ما ، وكانت له أصبع فى قضية للجاسوسية . ولهذا فلا بد من مراقبته بعناية ودقة

وانصرف درورى وسيل الى مراقبة البارون روستوك عن كئب - أثناء الجنازة - فرأياه يعود بعد انتهائها الى الفندق ، فتردى ثيابا مدنية ، ثم يخرج فيستقل سيارة أجرة . واقتفى المخبران أثره فى سيارة أخرى . واجتازت السيارة الأولى شارع (تشارنج كروس) ، ثم عرجت الى شارع (توتنهام كورت) ، فالى (يوستون) ، ووقفت أخيرا فى شارع (كالدونيان) . واستولى على المخبرين فضول عجيب وهما يريان البارون يدخل حانوتين من حوانيت الدرجة الثالثة ، حمل أحدهما لافتة كتب عليها : « ك . ج . ارنست - حلاق »



•• وكان أشد ما أدهش المخبرين ، أن ذلك الحلاق لم يكن من مستوى يليق ببارون من حاشية امبراطور ألمانيا ! ورجع درورى وراء البارون الى الفندق ، بينما انهمك سيل فى القيام ببعض التحريات فى منطقة الحانوت ، فعلم ان ارنست - الحلاق - كان ألمانى الاصل ، ولكنه اكتسب الجنسية

الانجليزية . وكان يتجر في أدوات الحلاقين الى جانب عمله في حانوته . ومن ثم انتقلت المراقبة الى ارنست ، بعد عودة البارون الى ألمانيا . وان هي الا أيام ، حتى وصل الى ارنست طرد من شركة ألمانية كانت بين محتوياته نشرات تبين كيفية استخدام أدوات الخلاقة ، وقد دست بينها توجيهات لتجنس أبناء الأسطول البريطاني

وظهر أن الأمر أخطر مما كان « القلم الخاص » يتصوره ، ومن ثم أحيل الأمر الى قسم مقاومة الجاسوسية في مخابرات الجيش ، فتولى القسم مراقبة ارنست ، وسرعان ما تجلى ان حانوت الحلاق لم يكن سوى « صندوق بريد » .! اذ كان رئيس الجاسوسية الألمانية يرسل اليه نسخا من التعليمات - وقد لف فيها صابون الخلاقة والأمواس وما اليها - فيتولى تسليمها الى الجواسيس المحليين بطريقة مأمونة .! اذ كان يرسلها بالبريد العادي كأي رسالة !

واستطاع المراقبون أن يروا ارنست - في اليوم التالي لوصول الطرد - وهو يلقي باثنتين وعشرين رسالة في صناديق البريد ، فعمدوا الى استخراجها منها ، وبذلك توفر لديهم الدليل القانوني على التجسس .! ولكن ادارة المخابرات السرية لم تحاول اعتقال الجواسيس . فقد حدى المسئولون أن ألمانيا تتأهب لحرب بعد ثلاث أو أربع سنوات - وكان ذلك في سنة ١٩١٠ - ومن ثم توقعت ادارة المخابرات أن اعتقال الجواسيس لن يؤدي الا الى انشاء شبكة أخرى للجاسوسية قد لا يكشف سرها قط .! ولهذا رأى مراقبة أولئك الجواسيس وعدم مصادرة رسائلهم ، لتجنب إثارة ارتياحهم أو ارتياح السلطات الألمانية ، حتى اذا حانت الساعة ، اعتقلوا في الحال، فتدخل ألمانيا الحرب بغير جواسيس كما يسير الاعمى في الطريق !

ولقد قال رئيس المخابرات البريطانية - فى ذلك الحين - انه كان سعيد الحظ ٠٠ فقد كان عدد رجاله لا يتجاوز ١٤ فقط ، منهم ٧ ضباط و ٧ من الكتبة ٠٠ ولكن الدهاء عوضه عن عدد الرجال ، اذ ممكنه من الافادة من أخطاء كثيرة ارتكبها الجواسيس الالمان ٠٠ منها ان رجلا يدعى « جوستاف شتاينهاور » زار الجواسيس الالمان فى انجلترا - قبيل نشوب الحرب - وكان كثيرا ما يتباهى بأنه كبير جواسيس الامبراطور غليوم ، وان ظهر بعد الحرب انه كان مجرد موظف صغير فى ادارة الجاسوسية الالمانية ! وقد ذهب علانية الى شمال اسكتلندا ليرى بنفسه « امكانيات » قاعدة الأسطول البريطانى فى (سكا بافلو) ٠٠ وأخذ يقيس الأعماق بخيط ، ليتبين مدى استطاعة البوارج الالمانية دخول تلك القاعدة واستخدامها ، مع انه كان خليقا بأن يحصل على هذه المعلومات لو انه اشترى دليلا عن الموانئ والأسطول ، كان يباع بشلنين ٠٠! والواقع أن شتاينهاور فشل فى كل عمل أتاه كجاسوس ، ولكنه نجح فى شيء واحد ، هو أنه لاحظ مراقبة المخابرات البريطانية له ! وفجأة ، أسرع شتاينهاور بمغادرة بريطانيا ، وتبعه جاسوس آخر ٠ وأدركت المخابرات أن الحرب وشيكة الوقوع ، فبدرت باعتقال شبكة الجاسوسية الالمانية بأسرها ٠٠ وكان الفضل فى تنبيه المخابرات لتلك الزيارة التى قام بها « البارون » لحانوت حلاق !

الالمان يحطمون جهاز الجاسوسية الفرنسى

♦ وعندما بدأت الحرب ، لم يجد الحلفاء صعوبة فى انشاء هيئة فعالة للجاسوسية خلف خطوط الالمان ، لاسيما بعد ان احتل هؤلاء شمال فرنسا ٠٠ ولكن الاهمال دب فى هذا الجهاز ، لأن الجواسيس كانوا من الفرنسيين ، وكانوا يعملون

فى الأراضى الفرنسية المحتلة ، بين أصدقاء واخوان ٠٠ ولعل العيب كان فى كثرة هؤلاء الجواسيس عما كان ينبغى وقد حدث ان ارتابت الادارة الألمانية المختصة بمقاومة الجاسوسية فى أمر اثنين من هؤلاء الجواسيس ، ولكنها اتبعت عين الأسلوب الذى اتبعته انجلترا ازاء جواسيسها ، فلم تعتقل الجاسوسين ، وانما اقتصرت على مراقبتهم ومراقبة كل من كانا يتصلان بهم . وبذلك كشف الألمان أسرار جاسوسية الحلفاء - دون ان تفتن قيادتها - وعرفوا أن الحلفاء كانوا يعدون العدة لهجوم كبير قد يحدث خلال عام ١٩١٦ . ومن ثم اتجهت نية القيادة الى اضعاف الجيش الفرنسى بسلسلة من عمليات الزحف التى تؤيدها قوات كبيرة من المدفعية

وكانت الدلائل توحى بأن (فردان) و (بلفور) هما هدفا للهجوم ، فأخذ الألمان يتقدمون تارة ويتقهقرون أخرى لتضليل المخابرات الفرنسية . حتى اذا حانت اللحظة التى تأهب فيها الحلفاء للقيام بعملياتهم الحاسمة فى هذا الهجوم ، اعتقل الألمان ٦٦ جاسوسا فرنسيا دون أى انذار سابق ! وبهذا تحطم جهاز الجاسوسية الفرنسى . ولم يفتن القادة الفرنسيون الى ما كان الألمان يبيتونه ، فانهمكوا فى وضع خطة لهجوم فرنسى ، وشغلوا بذلك حتى فاجأهم الألمان بهجومهم ! ولكن هذه لم تكن خاتمة مأساة التجسس فى معركة

(فردان) . اذ أن من المرجح أن الألمان أهملوا هم الآخرون فى تدبيراتهم ، عندما اعتمدوا فى هجومهم على حشد عدد كبير من المدافع ، واطلاق كميات هائلة من الذخيرة . وكان أكبر مستودع لهم على مقربة من (هرسون) . وقد لاحظ فلاح فرنسى - يوما - ان الألمان انهمكوا فى اعداد قنابل المدافع وشحنها ، فأبلغ الأمر للقيادة الفرنسية ، التى بادرت بالعمل على تفجير مئات الألوف من هذه القنابل قبل اللحظة الحاسمة

بوقت قصير .. وبذلك أفسدت على الألمان هجومهم !
وهكذا نرى أن مجرى المعركة ومصيرها يتوقفان على أمور
تافهة - كدقة ملاحظة ذلك الفلاح الفرنسي - ولكن الأناظر
غالبًا ما تغفل المسئولين الحقيقيين عنها ، فيظلون دائماً ..
جنوداً مجهولين !

الفصل السابع

نساء .. في الجاسوسية !

♦ اذا قلت ان النساء - بوجه عام - من أقل العناصر
توفيقاً في ميدان الجاسوسية ، فأننى لا أرمى بهذا الى الخط من
شجاعتهم وذكائهم ، اذ انهن أوتين من هاتين الميزتين ما يكفى
لأن يحذقن التجسس .. فان التجسس فى واقع الأمر
تدريب ومران .. وأما الذى أهدف اليه ، فهو ان الجاسوسة
الناجحة ليست كما تصورها القصص والسينما : غانية فاتنة
تسبى العقول ، وتستتهوى القادة .. وقد كانت الجاسوسات
اللواتى استخدمهن الروس فى الحرب العالمية الأولى - وحذا
حذوهم الألمان فى الحرب العالمية الثانية - أبعد النساء عن
الفتنة والسحر .. كن نسوة فى أوسط العمر ، يجدن رتق
جوارب الجنود فى المعسكرات !

ويكفيها فى هذا المجال مثال واحد : امرأة كانت تعيش فى
(لشبونة) فى سنة ١٩٤٠ ، وكانت تزعم انها انجليزية ..
وكان لها أبناء يعملون فى البحر ، ففتحت أبواب دارها الصغيرة
- القريبة من الميناء - لملاحى السفن البريطانية ، الذين
ارتاحوا الى كرمها ، وألفوها ، وأصبحوا يسمونها « العمة » !
.. وكان كل ملاح يقصد دارها يثق مقدماً انه سيلقى عندها
قدحاً من الشاي ، وعناية بغسل ثيابه ورتق جواربه !

وفى ذات يوم ، اندفع الى الدار ملاح ، بادرها متسائلا :
 « هل غسلت ثيابى يا عمتى ؟ » .. فأجابته فى دهشة : « لا ..
 ألم تقل انك ستتركها الى يوم الأربعاء ؟ » .. ولكن البحار قال :
 « بلى ، ولكننا تلقينا أوامر مفاجئة بالرحيل عندما يحين المد فى
 هذا المساء ، كى نلحق بقافلة للسفن عند مصب النهر » ..
 فقالت العمة بأسف : « آه يا عزيزى .. ان ثيابك فى حالة
 يرثى لها ! ولكن ، الى أين تذهبون ، حتى أرسل اليك الثياب
 بعد اعدادها ؟ »

— سنذهب الى جبل طارق أولا ، وهناك تحدد لنا وجهاتنا
 — اذن فسأرسل لك الثياب بعنوان « بيت الملاحين » بجبل
 طارق

وبرت « العمة » بوعدهما ، فتلقى الملاح ثيابه حين بلغ
 (جبل طارق) سالما .. فقد كان حسن الحظ ، ونجا من
 الأحداث التى أصابت القافلة فى الطريق ، بعد اذ علم الألمان
 بنبأها ! .. وأحسبك أدركت ان « العمة » الانجليزية لم تكن
 سوى جاسوسة ألمانية !

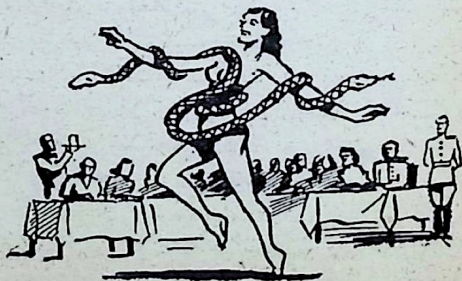
هذا المثال يبين لك حقيقة الجاسوسات الحديثات . ولكن
 معظم الروائيين والكتاب يفضلون ان يصوروا الجاسوسات فى
 صور الغوانى الفاتشات . والكاتب الروائى يسعى الى اثاره
 قارئه ، والى منافسة غيره من الكتاب بالاسراف فى ابتداع
 المغامرات المثيرة .. وقد اشتدت هذه المنافسة فى أعقاب
 الحرب العالمية الأولى ، حتى ساد الظن بأن القسط الأوفر من
 القتال ، انما دار فى الخفاء ، وبين شبكات الجاسوسية ، لا بين
 أسلحة الجيوش ! .. والواقع أن كل هذه المغامرات كانت من
 وحي الخيال ، اذ انك لاتجد من يروى مغامراته — من الجواسيس
 الحقيقيين — الا قلة ضئيلة .. وحتى فى هذه الحال ، تجد ان
 هؤلاء الجواسيس ليسوا من ذوى الأدوار الرئيسية ، لأن كل

جاسوس يعمد - أثناء الحرب - الى الاستعانة بكثير من الأعوان المحليين ، الذين يكونون غالباً من الهواة ، ولا تقيدهم القوانين العسكرية التي تحرم على الجاسوس المحترف أن يسرف في الكلام . . وغالباً ما يجد الناشر ان من مصلحته التجارية ان يضيف الى ما يكتبه هؤلاء الهواة قسطاً من المبالغة والاغراق في الخيال . . بل والكذب !

ومن هنا نستطيع ان ندرك سر رواج القصص التي أذيعت عن جاسوسة كان اسمها يوما على كل لسان . . وهي « مانا هارى » !

الجاسوسة العالمية . . كانت ترقص عارية !

♦ كان اسمها الاصلى « مرجريت تسيليه » ، وكانت هولندية قدر لها ان تتزوج من ضابط هولندى - يدعى « مكلويد » - من ضباط المستعمرات ، كان ينحدر من أصل اسكتلندى ، وكان وحشاً ضارياً في معاملته لها ، مما اضطرها الى الفرار منه . . وكانت قد قضت الشطر الأكبر من الفترة التي قضتها مع زوجها ، فى (جاوه) ، حيث حذقت الرقص الوطنى . ومن ثم فانها - عندما اضطرت الى كسب عيشها ،



وهي تقترب من سن الأربعين - لم تجد خيرا من ان تحترف الرقص ، وان تبتكر لنفسها رقصات مقتبسة عن رقصات بنات (جاوه) ، كما اتخذت اسما من أسماء بنات (الملايو) ، هو « ماتا هارى » ، أى « عين الصباح » !

وسرعان ما نجحت ماتا هارى ، لا لأن جمالها كان خلابا ، ولكن لأن جسمها كان مثيرا لفرائز الرجال ، وكانت تفتن في اظهار مفاتنه ، حتى انها كانت ترقص أحيانا شبه عارية . . بل وعارية ! . . وزادها شهرة انها لم تكن تصد أحدا من المعجبين ، طالما كانوا أغنياء . ومن ثم فانها سرعان ما أصبحت شائعة الاثارة في عواصم أوروبا الغربية ، وكان يتبعها أينما ذهبت موكب من العشاق والمعجبين يشمل رجالا من أرقى الأوساط والمناصب ، بينهم نفر من كبار ضباط الجيش الألماني . . وهو ما اتخذ دليلا ضدها فيما بعد

ومن الصحيح ان اسم ماتا هارى وضع في القوائم السوداء ، كجاسوسة ألمانية ، ولكنها فى الواقع لم تكسب - باسم الجاسوسية - سوى النذر اليسير من الأموال الطائلة التى تدفقت عليها . . اذ ان الأموال التى سجلها الضباط الألمان على انها مكافآت لها عن خدمات جاسوسية ، لم تكن فى الغالب سوى مكافآت عن الأوقات الممتعة التى قضوها فى أحضانها ! ولو ان ماتا هارى كانت جاسوسة حاذقة مدربة ، لوجدت أمامها فرصا لا حد لها ، اذ كانت تعرف كثيرا من المسؤولين الذين لا يملكون كبح ألسنتهم فى رفقتها . . ولكنها كانت قليلة الخبرة ، محدودة الذكاء ، لم تستطع الافادة من المعلومات التى كانت تصل اليها . . ولم تنجح فى شئ قدر ما نجحت فى اثارة الشبهات حولها ، وهى لاتزال فى مرحلة مبكرة من «عملياتها» فى فرنسا . ولم ينقذها من الاعتقال سوى حماية أصدقائها من ذوى المراكز العليا . ولكن السلطات الفرنسية لم تلبث أن

قررت الخلاص منها ، باقصائها عن فرنسا . فما كان من الغانية الا أن عرضت على السلطات الفرنسية أن تتجسس لها على الألمان . . . وقالت ان الجنرال « فون بيسينج » - حاكم بلجيكا البغيض - كان من عشاقها ، ومن ثم ففى وسعها أن تظفر منه بمعلومات . . . كما ذكرت أسماء رجال أعلى منه مقاماً !

وأوقعها الحظ بين يدي ضابط فرنسي أكثر منها دهاء ، فتظاهر بقبول عرضها ، وأوفدها الى بلجيكا بعد أن زودها بأسماء ستة من الجواسيس كى تقضى اليهم بما تحصل عليه من معلومات . وكان الستة الذين اختارهم ، من الشخصيات التى كانت السلطات الفرنسية توقن من انهم يعملون لحساب ألمانيا ! . . . ووقعت مانا هارى فى الفخ ، اذ انها لم تكد تصل الى منطقة الاحتمال الألمانية ، حتى أفضت للألمان بأسماء الجواسيس الستة . . . واذا خمسة منهم جواسيس لألمانيا ، فى حين ان السادس كان جاسوساً لبريطانيا !

وكانت هذه هى الخطوة - أو العملية - الايجابية الوحيدة التى قامت بها عاتا هارى . . . ولقد سافرت الى انجلترا بعد ذلك ، فاعتقلت هناك ، واذا بها تعترف بأنها جاسوسة فعلاً ، ولكن . . . لحساب فرنسا ! . . . وكان تجسس دول الحلفاء - بعضها على بعض - أمراً مسلماً به ، كما كانت هذه الدول مضطرة الى تبادل المخابرات ، ومن ثم أطلقت السلطات البريطانية سراح الغانية ، لتعود الى فرنسا عن طريق اسبانيا . وفى هذه الدولة ، دفع لها الملحقان البحرى والعسكرى الألمان مبلغاً كبيراً من المال ، « لقاء خدمات أدتها » ، ولكن شيئاً عن ماهية هذه الخدمات لم يذكر . وما أن وصلت الى فرنسا ، حتى كان الفرنسيون قد جمعوا أدلة كافية على اتصالها بالألمان ، فحوكمت وأعدمتم ، رغم دفاعها عن نفسها ، وتأكيداتها ان الأموال التى تقاضتها من الضباط الألمان ، كانت فى مقابل ما باعتهما اياه من حب !

ولقد أثارت قضيتها ضجة كبيرة ، وأزمات سياسية ، لا سيما حين قالت في اعترافاتها ان وزيراً فرنسيا يدعى « م » كان من المعجبين بها ، فاستغل الجيش هذا الاعتراف لاقصاء وزير يدعى « مالفى » عن الحكم . ثم ظهر - بعد الحرب العالمية الأولى - انها كانت تقصد الجنرال « ميسيمى » ، الذى كان وزيراً للحربية الفرنسية فى سنة ١٩١٤ ! ومع ان الحكومة الفرنسية ردت الى « مالفى » اعتباره ، الا ان الوصمة ظلت عالقة به طيلة حياته !

على ان أعجب ما أثير حول هذا الفصل من فصول الجاسوسية ، تمثل فى الشائعات التى روجت بعد اعدام ماتا هارى . ومنها ان أحد عشاقها قدم رشوة للجنود الذين كلفوا باعدامها ، فحشوا بنادقهم بالخرطوش الفارغ بدلا من الرصاص ، وبذلك نجت من الموت ! . ولكنها فى الواقع ماتت بالفعل !

والرأى المجمع عليه ، هو ان ماتا هارى كانت شخصية غير عادية ، ولكنها لم تكن ذات كفاءة جاسوسية . . . اذن ، ففيم كانت الضجة التى أثارت حولها ؟ . . . الواقع ان هذه الضجة كانت وليدة الدعاية وخيال الروائيين . . . ليس الا !

واذا أخذنا ماتا هارى دليلا على ما قلته من ان النساء من أقل العناصر توفيقا فى ميدان الجاسوسية ، فان الانصاف يحملنى على أن أذكر امرأة كانت جاسوسة من الدرجة الأولى ، رغم انها كانت هاوية !

بائعة « الدانتيل » . . . وآكلة السجق !

♦ فى الأسابيع الأولى من الحرب العالمية الأولى ، تدفق على انجلترا آلاف من اللاجئين البلجيكيين والفرنسيين . . . وكانت بينهم شابة فرنسية تشتغل بالتدريس فى مدينة (ليل) . وقد استرعت انتباه ضباط المخابرات البريطانية ، اذ كانت

المعلومات التي قدمتها - عندما سئلت فور وصولها - واضحة ، وكان ذكاؤها ملحوظا ، كما كانت تتكلم الألمانية بطلاقة ٠٠ ومن ثم أومض في بال أحدهم خاطر مثير ، فعرض عليها أن تعود الى فرنسا ٠٠ كجاسوسة بريطانية !

وما لبثت « لويز دي بتيني » - المعلمة - أن تلاشت من الدنيا ، لتظهر بدلا منها ، في فرنسا ، سيدة شابة تباع «الدانتيلا» والخردوات ، وتدعى « أليس ديبوا » ! ٠٠ وكانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني اذ ذاك ، فسرعان ما أخذت الجاسوسة الشابة تنتقى أعوانا لها في دقة وحرص : فاختارت كيميائيا قام بمهمة الخبير في ابتكار المداد الحفى وتزوير الوثائق للشبكة ٠٠ واختارت فنيا من رجال الطباعة ابتكر لها أسلوبا للاختزال والشفرة ، حتى انه كتب تقريراً من ١٦٠٠ كلمة في ظهر طابع بريد ، مستعينا بعدسة مكبرة ! ٠٠ على ان أنشط أعوانها كانت فتاة تدعى الآنسة « ماري ليونى - فالنوت » ، وتتسمى باسم « شارلوت » ٠٠ وظلت الاثنتان خمسة عشر شهرا تستغفلان الألمان ، وترسلان ما يوافقهما به الأعوان من معلومات الى هولندا ، حيث كان جواسيس بريطاني يتلقونها . وكانتا تبتكران وسائل لنقل تقاريرهما تنم عن ذكاء خارق : فكانتا ترسلانها أحيانا مع صبية صغار ، أو تدسانها فى ساق خشبية لشيخ أعرج ٠٠ بل ان « شارلوت » دست تقريراً فى قطعة من « السجق » - ذات مرة - فلما استوقفها جندى ألماني ليفتشها ، عرضت عليه قطعة السجق ليأخذ منها « قزمة » !

٠٠ كانت هذه جاسوسية من نوع بسيط متواضع ، ولكنه كان عظيم القيمة . وقد فعلت يقظة الفتاتين وذكاؤهما ، فى يوم واحد ، ما لم تفعله ماتا هارى فى حياتها كلها ! ٠٠ وقد قدر للفتاتين أن تقعا فى أيدي السلطات الألمانية ، ولكنها لم تعدمهما ، لأن اقدامها على اعدام الممرضة « اديث كافيل »

قبلهما ، أثار عليها نائرة الرأي العام .. ومن ثم اكتفت بسجنهما ، فعاشت «شارلوت» الى نهاية الحرب ، حين استردت حريتها ، وحظيت بأوسمة كثيرة ! أما « لويز » فقد ماتت في سجنها قبيل الهدنة . فلما وضعت الحرب أوزارها ، شيع جثمانها مرة أخرى ، في احتفال رسمي ، ونقل الى موطنها الأصلي بمدينة (ليل) ، وخلد اسمها بين الجواسيس القلائل الذين سجل التاريخ سيرهم !

« السيدة الطيبة » .. التي كانت تعلم فن الجاسوسية !

♦ وإذا اعتبرنا « شارلوت » و « لويز » مثالين للجاسوسات الناجحات ، فإن كل الناجحات - مثلهما - لم يكن من الشابات ، بل ان من المسنات من وفقن الى تخليد ذكرهن في تاريخ الجاسوسية .. وهذه واحدة تعتبر مثالا لهؤلاء المسنات :

ففى الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، ذاع صيت جاسوسة أطلق عليها لقب « السيدة الطيبة » ، حتى طغت شهرتها على شهرة ماتا هارى فى ميدان التجسس النسوى .. على ان المقارنة بين المرأتين لا تنطوى على شيء من الانصاف ، فقد كانت « السيدة الطيبة » بارعة ، حاذقة فى اداء مهمتها ، بقدر ما كانت ماتا هارى عاجزة ! .. الا ان الروايات التى تناقلها الناس عنها كانت خيالية ، تنأى عن الحقيقة .. بل انها كانت تنطوى على كثير من التناقض ، لا سيما فيما يتعلق بنهايتها : فقد قال أحد المؤرخين ان الروس شنقوها فى بروسيا الشرقية .. وقال آخر ان الألمان أعدموها فى بروسيا الغربية .. وقال ثالث انها ماتت كسيرة القلب فى ساعة من ساعات اليأس .. وزعم رابع انها لا تزال على قيد الحياة ، وانها تعيش فى سويسرا ، وقد انصرفت الى تعاطى المواد المخدرة .. وكل هذه - فى الواقع - روايات مختلفة !

كذلك اختلف الرواة في وصفها ، فقال بعضهم انها أوتيت عينين متقدتين رهيبتين ، تنفذان الى أعماق النفوس . وكان أعجب ما في قصتها ، ان أكثر من اثنى عشرة سيدة تنافسن في انتحال شخصيتها بعد الحرب ! .. وربما كانت بينهن جاسوسات بالفعل ، ولكن ايا منهن لم تكن « السيدة الطيبة » !

ويقول المؤرخون ان اسمها الحقيقي هو « آن ماري ليسر » ، وان حبيبها مات في مغامرة من مغامرات الجاسوسية ، فخلفته في مهمته .. ثم ظهر ان هذا القول ينطبق على تلميذة من تلميذات « السيدة الطيبة » .. أما هذه ، فكانت في الواقع سيدة من أب ألماني وأم هولندية ، وكانت تدعى «سكراجيلر» .. وقد تعلمت - في صغرها - في مدرسة داخلية بالقرب من (ارنهم) ، ثم انتقل أبوها الى (مينستر) فالتحقت بجامعة ، حيث أبدت تفوقا في الدراسة ، لا سيما في اجادة اللغات ، مما رشحها - عندما نشبت الحرب العالمية الأولى - لآن تعين في الرقابة الألمانية .. وكانت اذ ذاك - كما يؤكد الرواة - في الخمسين من عمرها .. أى انها لم تكن شابة حسنة ذات عينيّن ثاقبتين جذابتين !

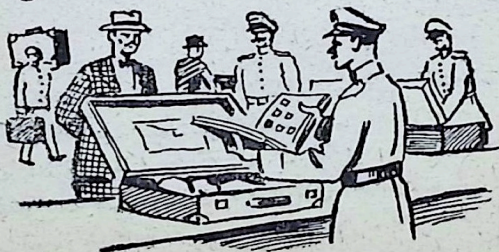
ولم تلبث « سكراجيلر » أن نقلت من الرقابة الى التجسس .. لا كجاسوسة ، وانما كمعلمة للجواسيس في مدرسة أنشأتها في (انفرس) ببلجيكا ! وقد أثنى عليها الكولونيل نيقولاى - رئيس المخابرات السرية الألمانية - في ذلك الحين ، ثناء طيبا . وكان طلابها يتكتمون أسماءهم ، فلا يعرف أحد منهم الا برقم معين يطلق عليه . كذلك لم يكن أى منهم يعرف رفاقه ، حتى لا يفشى سرهم يوما ! .. وكان التدريب في تلك المدرسة دقيقا الى أقصى درجة .. وكان من التعليمات التى تلقنها « السيدة الطيبة » للطلبة : أن يخفوا درايتهم باللغات حتى

يطمئن الناس الى الحديث أمامهم دون تحفظ ، وأن يتجنبوا الحديث والكتابة باللغة الألمانية اذا ما كانوا فى مهمة بالخارج . . وكانت تحذر الطلبة كذلك من تسجيل شىء على الورق ، لأن احراق الورق لا يخفى ما به ، بل ان الفحص الميكروسكوبى يكشف أحيانا عن الكتابة التى قد توجد بالورق المحروق ! . . كما ان تمزيق الورق والقاءه فى أماكن متباعدة لا يقضى على ما فيه من معلومات . . ولهذا فان الاعتماد على الذاكرة هو خير الطرق !

على ان مدرسة « السيدة الطيبة » لم تلق النجاح الذى كان من الميسور أن تبلغه . . وكان ذلك راجعا الى أن القواعد التى وضعتها السيدة كانت جافة ، غير مرنة . . كانت نظرية أكثر منها عملية . . وكانت السيدة لا تعامل كل طالب على حدة ، وفقا لاستعداداه ومواهبه وميوله . . وهو أسلوب فى التعليم لا يؤدى - اذا طبق فى الجاسوسية - الا الى الدمار !

لغة طوابع البريد . . فى الجاسوسية !

♦ وقد حدث - عندما بلغت الحرب الأولى ذروتها ، فى سنة ١٩١٥ - أن هبط فى ميناء (تلبورى) بهولندا ، مسافر يدعى « جوزيف ماركس » . . وعشر رجال الجمارك فى أمتعته على



مجموعة من طوابع البريد ، فاذا بالرجل يبادر قائلا انه يريد أن يسلم نفسه ، وهو مغتبط لنجاته من « تلك المرأة الرهيبة » ! إذن ، فقد كان الرجل جاسوسا ! ٠٠ وبدا لأول وهلة ان الخطة التي رسمت له للاتصال بغيره من الجواسيس ، تنم عن مهارة فائقة ، اذ كان عليه أن يرسل الى « صديق » في (روتردام) عددا من الطوابع تمثل ما ينبغي تبليغه من بيانات ٠٠ فاذا أراد أن يذكر عدد ما لدى بريطانيا من « بوارج » ، أرسل طوابع « أوربية » بهذا العدد ٠٠ وتمثل الطوابع « الافريقية » طرادات القتال ، أما طوابع « أمريكا الجنوبية » فتمثل الطرادات الثقيلة ، في حين ان الطوابع « الاسترالية » ترمز الى الطرادات الخفيفة ، وطوابع « أمريكا الشمالية » ترمز الى المدمرات ، وطوابع آسيا ترمز الى السفن الحربية الصغيرة ٠٠ فاذا تلقى جاسوس في (روتردام) مثلا ، طابعين فرنسيين وأربعة استرالية وسبعة كندية وعشرة هندية في مظروف يحمل خاتم ميناء (بلايموث) ، كان معنى ذلك ان في هذه الميناء ، في التاريخ الذي يسجله خاتم البريد ، بارجتين ، وأربع طرادات خفيفة ، وسبع مدمرات ، وعشر سفن حربية صغيرة !

وشاء نحس ما ركس أن تكون هذه الطريقة معروفة ، اذ سبق أن اتبعت من قبل ٠ وكان من الغريب حقا أن تغفل « السيدة الطيبة » درسا سبق للتاريخ أن ألقاه على القائمين بأعمال الجاسوسية والمخابرات ٠ وكانت هذه هي الغلطة الأولى ٠ أما الغلطة الثانية ، فلم يكن للسيدة ذنب فيها ، وانما كانت تبعثها واقعة على السلطات الألمانية ذاتها ٠ اذ ان ألمانيا كانت تحتل بلجيكا في تلك الآونة ، فكان من حماقة أن تؤسس مدرسة في بلد أصبح الحلفاء يعتبرونه « أرضا معادية » ، يرتابون في كل من يفد منها !

وفضلا عن ذلك ، فان البلجيكيين الكارهين لوجود الألمان في

بلادهم ، كانوا قد ارتابوا فى تلك الدار المحوطة بالغموض .
دار مدرسة الجاسوسية التى أقيمت فى (انفرس) ، ولذلك
أخذت منظمات الهواة - التى كانت منتشرة فى البلاد لمقاومة
الاحتلال والخنونة - فى مراقبتها ليل نهار ، وفى ملاحظة أوصاف
كل من يدخلها أو يغادرها ، بل وفى تصوير المترددين عليها
ما أمكن ذلك . وكانت هذه البيانات تصل الى أقلام مخبرات الحلفاء ،
خلال شبكات الجاسوسية ، فأصبحت سلطات الأمن فى فرنسا
وبريطانيا ترتقب باستمرار ، وفى يقظة تامة ، أن يتسلل خريج
تلك المدرسة الى بلادها !

يظن صديقه غيبية . . وهى تتجسس عليه !

♦ بقى أن نضرب مثالا للجاسوسة « الجميلة » بكل ما فى
هاتين الكلمتين من معان . وخير مثال لها هى « مارث ريشار » ،
. . . وكانت فرنسية ، قتل زوجها أثناء الحرب - فى سنة
١٩١٤ - فاذا حبها المشبوب له ، يولد فى نفسها حب الثأر ،
ويذكى لديها الدهاء والجرأة . ومن ثم تطوعت للعمل فى
المخابرات السرية ، فأوفدت الى اسبانيا ، حيث استطاعت
بحسبها الحلاب أن تسلب الملحق البحرى الألمانى ليه !
وظفرت « مارث » بنجاح كبير . وكانت تزعم انها من أهل
اللورين ، ومن أصل ألمانى تعتز به . وساعدها فى ذلك انها كانت
تتحدث الألمانية بطلاقة تامة . واذ أصبحت خلية للملحق
البحرى الألمانى ، باتت أسرار وأسراره دولته فى متناول يدها
. . . لا سيما حين خيل للرجل ان بوسعه أن يستغلها فى
التجسس لمصلحة ألمانيا ، فقبلت متحمسة ، رغبة منها فى أن
تزداد تعمقا فى الأسرار الألمانية . وقد أبلغت ذلك الى مركز
مقاومة الجاسوسية - التابع لقيادة الحلفاء - فى باريس ، وسألت
المشرفين عليه أن يمدوها بمعلومات تطمئن الملحق البحرى

الألماني الى اخلاصها له . ومن ثم فانهم أخذوا يمدونها - بين حين وآخر - بوثائق لا تؤدي اذاعتها الى الاضرار بمصلحتهم العليا . . . ويمكنها ذلك من أن تستخلص من عشيقها الألماني أسراراً خطيرة أدت الى اغراق أكثر من غواصة ألمانية !

وهكذا كانت « مارث » تتجسس لمصلحة الحلفاء ، وتتقاضى أجرها من الملحق البحري الألماني ! . . . ولا يدري أحد ما جرى لهذه المرأة البارة - بعد الحرب - ولكن المهم في أمرها انها ساعدت على تحطيم الأسطول الألماني ، وعلى هزيمة ألمانيا ، فانتقمت لزوجها !

على ان الجنس اللطيف لا يفيد في الجاسوسية بقدر ما يفيد في مقاومتها ، وكشف الستار عن جواسيس الأعداء . ومن الأمثلة التي تذكر في هذا الصدد ، حادث وقع في سنة ١٩٣٨ وأثار انتباه العالم ، اذ وقع ثلاثة من عمال المصانع الحربية في (وولويتش) - بانجلترا - تحت اغراء جواسيس دولة أجنبية ، وكانت لأحدهم صديقة تبدو - رغم جمالها - غبية ، حتى انه لم يكن يرى حرجاً في أن يلتقط صور ما كان يحمله الى داره من رسوم وخطط ، في حضورها . . . وشدها كانت دهشته عندما قدم الى المحاكمة - بعد اعتقاله - فاذا به يتبين ان الحسنة كانت من جاسوسات الهيئة الموكلة بمقاومة الجاسوسية الأجنبية . . . وانها لم تكن غبية كما خالها !

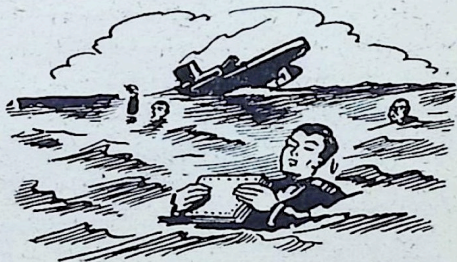
الفصل الثامن

« رقيب » . . . يغير مجرى التاريخ !

♦ من الطبيعي أن يظفر الجواسيس بقسط من الشهرة فوق ما يحصل عليه العاملون في مقاومة الجاسوسية . ذلك لأن هذه المقاومة تعتمد على التنظيم أكثر مما تعتمد على الفرد ذاته ، وان

كانت نتائجها لاتقل قيمة وخطورة عن نتائج أعمال الجواسيس .
وليس أدل على ذلك من أن رقبيا في البحرية البريطانية ،
استطاع يوما أن يغير مجرى التاريخ ! ٠٠ فما أن قامت الحرب
العالمية الأولى ، حتى أنشأت وزارة البحرية البريطانية ادارة
للرقابة ، كانت دقيقة النظم ، فعالة في نشاطها ، موفقة في
عملها !

وحدث في الأسابيع الأولى من الحرب ، أن أغرق الطراد
الألماني « مجدبورج » في مياه بحر البلطيق ، وألقت الأمواج
جثث بحارته على الساحل الروسى ، فاذا بينها جثة ضابط - من
ضباط الصف - تيبست ذراعاه على كتاب ذى غلاف حديدي ،



يتضمن « الشفرة » التى كان الطراد يستخدمها فى رسائله ٠٠
وقد وضع فى ذلك الغلاف ليغوص فى قاع البحر عند الخطر .
وكان من الجلى أن الضابط كان يهم بالقاءه فى البحر عندما
وافته المنية

وأبلغ الروس بريطانيا بالأمر ، اذ كانت فى تلك الفترة
صديقة لهم . وسرعان ما أوفد تشرشل طرادا الى (اركانجل)
ليحضر ذلك الكتاب ٠٠ فقد كان جديرا بكل عناية ، نظرا لما
كان يتضمنه من أضواء تكشف غوامض الشفرة السرية للاستطول
الألماني ٠٠ ومع ان الشفرة قد تتغير من حين لآخر ، إلا أن أية

صيفة لها خليفة بأن تساعد الباحث على الوصول الى أسرارها . . ولم تقنع البحرية البريطانية بذلك ، بل انها كلفت غواصا يدعى « ميلر » بالهبوط الى قاع البحر ليفحص حطام غواصة ألمانية كانت غارقة قرب ساحل (كنت) بانجلترا ، سعيًا وراء مزيد من أسرار البحرية الألمانية . وكانت الأسماك الكبيرة تحاصر موقع الغواصة لتنهش جثث الغرقى ، ولكن « ميلر » استطاع - بعد لائى - أن يشق لنفسه طريقا الى غرفة القائد ، حيث عثر على صندوق معدنى بدا ان القائد لم يجد فرصة لافراغ محتوياته بعيدا عن المقر الأخير لغواصته !

وعند فتح الصندوق ، ظهر أنه يضم خططا ومشروعات هامة عن حقول الألغام ، فأرسلت هذه الوثائق الى وزارة البحرية فى الحال ، وهناك أقبل عليها الرقباء البحريون ، واستخلصوا منها أسراراً خطيرة . وكان من جرأ ذلك ، أن اتخذ « ميلر » نواة لمنظمة أحيطت بسرية تامة ، ومنحت سلطات عليا . . وكانت هذه المنظمة تندفع الى مواقع غرق الغواصات الألمانية - بمجرد غرقها - لتفحصها ، فخرجت من ذلك بكثير من مفاتيح الشفرة ، ومواطن الألغام والمشروعات . وبهذه الطريقة ، كان الرقباء البحريون الانجليز ، على دراية مستمرة بكل التغيرات التى كانت تدخل على الشفرات الألمانية !

خطر الجاسوسية . . فى الحرب البحرية !

♦ ولقد تحدثت عن أثر الخيال فى تصوير أعمال ماتا هارى . . وهناك مثال آخر ، فقد كثرت القصص الخيالية عن « الحجرة رقم ٤٠ - أو . بى . » ، وزعم مؤلف انها فى « اسكتلنديارد » ، بينما ادعى آخر انها فى وزارة الحربية البريطانية ، وقال آخرون انها فى المركز الرئيسى للجاسوسية ، بل ان بعضهم ذهب الى أنها فى مقر رئاسة الوزارة ، فى رقم ١٠ « دونينج ستريت » . .

والواقع ان « الحجرة رقم ٤٠ » كانت فى المبنى القديم لوزارة البحرية البريطانية ، وكانت مقر « الرقباء البحرين » ! ٠٠ وتدين هذه المنظمة بوجودها الى مدير المخابرات السرية البحرية فى انجلترا ، فى بداية الحرب العالمية الاولى ، وكان اذ ذاك الكابتن « رجنالد هول » ٠٠ وقد أصبح أميرالا فيما بعد . وقد عجم « هول » عيدان رفاقه وأعوانه ، بحثا عن أصلح رجل لتولى هذه الادارة الجديدة ٠٠ وفى لمحة من لمحات الالهام ، تذكر « هول » رجلا يدعى « الفريد أبوينج » كان يتولى ادارة التعليم البحرى اذ ذاك ٠٠ وكان عالما أوتى عبقرية فذة فى معالجة كل ما يتعلق بالشفرات السرية ، واتخذ من دراستها هواية له منذ أمد بعيد . ومن ثم أقبل على عمله الجديد بأقصى ما كان لديه من نشاط ، متعاوناً مع الأساتذة الذين عينوا لمساعدته ٠٠ وكان لبعضهم « أنف » عجيب يحذق تشتم أسرار شفرات الألمان وحلفائهم ! ٠٠ وكان الأساس الذى اتخذه هؤلاء الخبراء لعملهم ، يتمثل فى تلك الكتب التى عثر عليها ميلر وزملاؤه ، ولذلك لم تعد تستعصى عليهم شفرة ألمانية !

ولم تكن فى أية وزارة بحرية أخرى ادارة مطلعة اطلاع رجال « الحجرة رقم ٤٠ » ، فكانوا يلتقطون كل رسالة لاسلكية تذيعها البحرية الألمانية ويفكون رموزها ، مما أدى الى تغييب عدد كبير من الغواصات الألمانية فى قيعان البحار والمحيطات ، والى اعتقال عدد كبير أيضا من الجواسيس الألمان . وكانت هذه الحجرة هى التى حذرت الحلفاء قبل الهجوم الألمانى على (فردان) بثلاثة أسابيع ٠٠ كما انها هى التى اكتشفت خطة انزال السير « روجر كيسمنت » الى ايرلندا لاشعال ثورة قومية هناك أثناء الحرب (١) ٠٠ وكانت أغرب مغامراتها نجاحها فى أن تدس

(١) نشرت تفصيلات هذه الخطة فى العدد ٥٨ من « كتابى » ، عن جماعة « السين - فين » الايرلندية التحريرية

جاسوسا لها فى وزارة البحرية الألمانية ، بعد أن زودته بنسخة من الشفرة السرية الألمانية ، ليستخدمها فى تضليل سفن وغواصات أسطول غليوم الثانى !

ولقد انتهت أول معركة بحرية فى الحرب ، بين انجلترا وألمانيا ، بهزيمة للأولى ، اذ التقى الأدميرال « فون شيبى » بقطع من الأسطول البريطانى على مقربة من (كورونيل) فدمرها . وفى الحال قررت البحرية البريطانية أن توجه الى الأسطول الألمانى ردا قاسيا ، فأصدرت أمرا الى أسطول قوى ، يضم بين قطعه طرادتين للقتال ، بالابحار من البحر الأبيض المتوسط الى جنوب المحيط الأطلسى ، ووضعت فى مكان الطرادتين نموذجين زائفين لتضليل الجواسيس الألمان الذين كانوا يراقبون الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط . . .

واذ ذاك نشط الجاسوس البريطانى المندس فى البحرية الألمانية ، فأرسل الى الأدميرال فون شيبى أوامر زائفة بالشفرة ، كى يتجه الى جزر (فولكلاند) بالمحيط الأطلسى الجنوبى . . . واستجاب الأدميرال للتعليمات ، ظنا منه انها صحيحة ، فأبحر الى الجنوب حيث كان الأسطول البريطانى يتربص له . . . ووقع فى الكمين فأبيدت سفنه ! . . . وقد ظهر - بعد الحرب - ان الامبراطور غليوم كتب على هامش تقرير البحرية عن المعركة : « انه لشيء غامض غير مفهوم . . . لماذا ذهب فون شيبى الى جزر فولكلاند ؟ » . . . وقد بقى الجواب سرا مكتوما ، حتى انتهت الحرب وتكشفت الأسرار !

وفى معركة (جوتلند) البحرية ، كان من المحتمل أن تحرز المخابرات السرية البحرية - التابعة لبريطانيا - نصرا عظيما . . . وكان الاشتباك الأول غير حاسم ، ولكن الأدميرال الألمانى رأى أنه يعرض أسطوله لكارثة محققة لو استمر فى القتال ، فقرر أن يتجه بأسطوله الى أقرب ميناء ألمانية . . . وكانت هناك ثلاثة

ممرات سرية مأمونة في منطقة الألغام التي كانت تحيط بالأسطول ، فتربص الأسطول البريطاني أمام ممر منها ، حدس أن القائد الألماني سيتخذ ، ولكن حدسه طاش . وكانت البحرية البريطانية تلتقط الاشارات اللاسلكية الألمانية ، وتفك رموزها ، ثم تبعث بها الى أسطولها في المعركة . ولكنها - لسبب غير معروف - لم تصل اليه في الوقت المناسب ، فتمكن الأسطول الألماني من الإفلات ، ومن الوصول بسلام الى ميناء مأمونة !

دخول أمريكا حرب ١٩١٤ من عمل الجاسوسية البريطانية !!

♦ وهكذا كانت الظروف تعترض جهود « الحجرة رقم ٤٠ » أحيانا ، فتفسد نتائجها . على أن أكبر نصر أحرزته الحجرة ، كان انتصارا سياسيا . فقد طلع عام ١٩١٧ على الحلفاء وهم في حال سيئة ، اذ كانت فرنسا قد أوشكت على الانهيار ، وكانت روسيا قد دخلت مرحلة الانهيار وأصبح كل مطلع يتوقع انفجار الثورة فيها ، ولم تكن ثمة قوة تعوض الحلفاء عن روسيا سوى الولايات المتحدة الأمريكية . غير ان البوادر المبشرة باستعداد هذه الدولة لدخول الحرب ، كانت قليلة ، اذ كانت الآراء المنادية بالعزلة لا تزال قوية النفوذ في أمريكا ، رغم المساعدات والمواد التي كانت الصناعة الأمريكية تمد بها الحلفاء . فان الحياذ كان في مصلحة أمريكا ، وكان أكثر نفعا لها ، كما كان الرئيس « ولسون » يبغض الحرب . ومن ثم أيقن الحلفاء في النهاية انه لن يعدل عن موقفه ، الا اذا أغرقت الغواصات الألمانية بعض سفن أمريكا . ومع ذلك ، فان هذا لم يثر في البداية سوى غضب لم يتجاوز حدود الاحتجاج !

وكان مسلك ألمانيا في المسائل الخارجية - في تلك الفترة - يتسم بالتقلب ، لا سيما حين تغافلت بحريتها عن عواقب

مهاجمة سفن أمريكا ، وقررت أن توغل في حرب العصايات البحرية ، غير متقيدة بأى اعتبار !

وأرسل ألهر زيمرمان - وزير الخارجية الألمانية - بتعليمات خاصة بهذا الصدد ، الى سفيره في واشنطن ، فالتقطت البحرية البريطانية هذه الرسالة ، وعهدت بها الى « الحجرة رقم ٤٠ » . وكانت الرسالة مكتوبة بشفرة جديدة استعصت في البداية على خبراء الحجرة ، ولكنهم استطاعوا في النهاية فك طلاسمها ، فاذا الرسالة خطيرة الشأن ، تحتاج الى دقة ودهاء لعلاج الموقف ! . . ومن ثم بادرت الحكومة البريطانية الى ابلاغ السفير الأمريكى تلك الرسالة ، وسمحت لأحد رجاله بولوج « الحجرة رقم ٤٠ » حيث اطلع على الطريقة التى اتبعت في حل الشفرة . وكانت الرسالة تتضمن اخطارا للسفير الألماني في واشنطن بأن بلاده قررت أن تستأنف في أول فبراير سنة ١٩١٧ حرب الغواصات المطلقة ، غير مقيدة بلأى اعتبار ، ومن ثم فعليه أن يقنع الولايات المتحدة بأن « تبعد سفنها عن أوروبا » - ان شاءت أن تتمسك بحيادها - وبأن يسعى لعقد محالفة بين ألمانيا والمكسيك اذا فشل في ذلك ، مقابل وعدها بأن تمنحها ألمانيا ولايات تكساس ونيومكسيكو واريزونا الأمريكية ، اذا ما انتهت الحرب بهزيمة الولايات المتحدة والحلفاء

وكانت بعض الصحف الأمريكية تشن - في تلك الفترة - حملة شعواء على بريطانيا ، متهمة اياها بأنها تعمل على جر الولايات المتحدة الى الحرب . . ولكن نشر الرسالة الألمانية - التى حلت « الحجرة رقم ٤٠ » رموزها - قلب الرأى العام الأمريكى بين يوم وليلة ، وكان من أكبر العوامل التى دفعت بالولايات المتحدة الى الاشتراك في الحرب العالمية الاولى . . . بل ان هذه الرسالة غيرت مجرى الحرب بأسرها . فان وصول القوات الأمريكية الى صفوف الحلفاء قلب ميزان القوى

لصالح هؤلاء . ولو ان ألمانيا انتصرت فى سنة ١٩١٧ أو سنة ١٩١٨ ، لتمكنت بعد ذلك من التغلب على روسيا ، ولسيطرت على أوروبا بأسرها ، وجزء من آسيا . ثم لاشتبكت مع الولايات المتحدة فى سبيل السيادة على العالم ! . وكان الفضل فى كل هذا التحول راجعا الى براعة خبراء « الحجرة رقم ٤٠ » فى حل الشفرة السرية . . والى « ميلر » الذى أرسى أساس هذا النجاح بعثوره على مفتاح الشفرة البحرية الألمانية !

الفصل التاسع

جواسيس . . فى الرقابة

♦ من عادة الدول جميعها أن تلجأ الى الاستعانة بالرقابة فى أوقات الحروب . وعلى الرغم من أن الرقابة بغیضة الى القلوب ، الا أنها سلاح لا غنى عنه فى مقاومة تجسس الأعداء . ومع دقة النظم التى تسير عليها الرقابة ، الا ان تاريخها لا يخلو من لحظات وجيزة ، خاطفة ، تترك آثارا فى التاريخ . . ومن ذلك ما حدث فى سنة ١٩١٥ ، اذ كان على جاسوس ألماني ، يدعى « روزنتال » ، ان يتسلل الى بريطانيا عن طريق الدانيمرك . فما ان وصل الى (كوبنهاجن) ، حتى نسى الحذر الذى تتطلبه مهنته ، فكتب الى صديق له فى ألمانيا ينبئه بأنه فى طريقه الى انجلترا ليتجسس أنباءها ، منتحلا شخصية بائع « ولاعات » سجائر !

وألقى الخطاب فى صندوق البريد . . فوقع فى يد عامل من عمال الفرز - فى ادارة البريد - كان يعمل بسرعة ، وتحت ضغط سيل دافق من الرسائل ، فكان يطوح بالرسائل الى الأكياس الخاصة بالبلدان الموجهة اليها ، اقتصادا للوقت والحركة . . فلما قرأ العنوان الذى كان على رسالة « روزنتال » ،

طوح بها نحو كيس ألمانيا ، فاذا به يخطئ الرماية ، ف وقعت الرسالة في كيس انجلترا ٠٠ وبهذا تسنى لرقيب بريطاني أن يقرأ الرسالة وهو مغمى بالدھشة ! ٠٠ ومن الطبيعي أن « روزنتال » لم يجد فرصة لأداء مهمته ٠٠ فكان أجدر الجواسيس بلقب « الجاسوس سيء الحظ » !

كذلك تتخلل حياة الرقابة أحداث مضحكة ، كالحادث الذي أسأوقه فيما يلي ، والذي بدأ - في سنة ١٩١٥ - في إدارة الرقابة البريطانية ٠٠ ذلك لأن من أهم وسائل إدارة مقاومة التجسس ، اعداد « قائمة سوداء » تضم العناوين التي يشتبه في أن لها علاقات بالتجسس - سواء داخل البلاد أو خارجها - وعناوين رعايا الأعداء المقيمين في دول محايدة ، ممن يكونون على اتصال بأفراد في داخل البلاد

فقد حدث ذات يوم ، ان كان رقيب انجليزى يفحص محتويات البريد الصادر ، واذا به يعثر على صحيفة مرسلّة الى شخص في هولندا ، كان ممن ذكروا في « القائمة السوداء » ٠٠ وبدت الصحيفة عادية في مظهرها ، وخالية من أية رسالة ، ومع ذلك فقد رأى فحصها كيميائيا للتثبت من عدم وجود كتابة ما بمداد سرى ٠٠ واذا الفحص يسفر عن وجود عبارات في أحد الهوامش ، جاء فيها ان : « ك . سافر الى الشمال » ، وانه « سيكتب من ٢٠١ » ٠ وكان غلاف الصحيفة يحمل خاتم بريده (ديبفورد) ٠٠ ومن هذا المفتاح الضئيل ، أمكن الوصول الى واحد من أمهر جواسيس ألمانيا الذين كانوا يعملون في انجلترا ، والى جاسوس بحرى بارع كاد يفلت من السلطات البريطانية !

الرقيب يكشف سر « البواخر الزائفة » !

♦ وقد يبدو ان العنوان الذى اخترته لهذا الفصل مضلل ،

لأن الأمثلة التي سقتها حتى الآن تتعلق بمقاومة التجسس ، وليس بالتجسس ذاته . على أن تاريخ الرقابة تضمن سيرة « رقيب جاسوس » ، كان من أحذق الجواسيس . . . ففي سنة ١٩١٤ ، لم تكن جوازات السفر ضرورية - في الغالب - إلا لمن يسعون إلى دخول روسيا وتركيا . لهذا كان من الميسور للألماني يدعى « شيلبر » ، عاش ردحا من الزمان خارج ألمانيا وحذق اللغة الانجليزية بطلاقة ، أن يكسب عطف السلطات البريطانية ، لاسيما وأنه ساعد الجيش البريطاني يوما في جنوب أفريقيا . وكان « شيلبر » يعيش في الولايات المتحدة في أوائل الحرب ، فانتقل إلى كندا ، حيث عرض على الملحق العسكري الألماني اقتراحا قبل في الحال ، رغم أنه لم يكن جاسوسا مدربا .

وكانت الخطة التي رسمها تنم عن دهاء ، إذ أنه بادر إلى التطوع للعمل كرقيب للبريد في كندا ، وأظهر من الكفاءة ما أكسبه ثناء رؤسائه . وكان عمله يتيح له فرصا وافرة ، لا تقتصر على التقاط المعلومات من بعض الرسائل ، وإنما تشمل أيضا تمكنه من إرسال تقاريره إلى أعوان في بلاد محايدة ، بعد أن يختمها بخاتم الرقابة ! . . . وكان من الشخصيات التي اعتاد أن يوجه رسائله إليها ، شخصية خيالية . . . أسير - لا وجود له في الواقع - في ألمانيا . . . وكانت الرسائل التي تصل إلى ألمانيا بهذا العنوان تحول إلى إدارة المخابرات السرية الألمانية فوراً !

وكان « شيلبر » حريصاً في تدبيراته ، فلم يكن يكتب رسائله في مكتبه ، ولا في مسكنه . . . فقد استأجر غرفة بعيدة ، كان يتسلل إليها في المساء حيث يكتب تقاريره ، وينقل أو يصور أجزاء من الخطابات التي تقع بين يديه أثناء عمله في الرقابة ! . . . وكانت المتاعب الرئيسية التي اعترضته ،

هي الحصول على المواد اللازمة لعمله ، لاسيما الأفلام التي يستخدمها في تصوير فقرات الرسائل . وكانت الأفلام بالذات هي منفذ الخطر الذي حاق به ، اذ أن الرجل الذي كان يبيعه الأفلام لم يلبث أن ارتاب في أمره لكثرة ما كان يشتريه ، فأبلغ البوليس هواجسه . ولكن القدر كان يحالف « شيلبر » ، اذ أن البوليس استهجن شكوك البائع وزجره ! واستطاع شيلبر بأسلوبه الفذ ان ينقل الى ألمانيا كثيرا من الأنباء المتتابة . ولكنه بلغ أوج نجاحه في سنة ١٩١٥ ، حين وقعت في يده رسالة من فتاة الى صديق لها ، ذكرت فيها ابتهاجها لأن أخاها - الذي كان يعمل في البحرية - قد حظي بوسام لشهامته ، ونقل الى ميناء قريبة ، حيث عهد اليه بمهمة محوطة بالغموض ، تتعلق باصلاح السفن التجارية القديمة ! ولما كان من واجب الجاسوس الناجح أن يتنسم الأخبار كما يفعل الصحفي ، ولما كان شيلبر قد حدس ان وراء هذه الرسالة أمرا ، فانه سافر - في أقرب فرصة سنحت له - الى البلدة التي كانت كاتبة الرسالة تقيم فيها ، وتقدم الى الفتاة بوصفه رقيبا ، فألقى عليها محاضرة عن خطر الثرثرة في رسائلها ! .. وشكرت الفتاة للرقيب كرمه ، واطمأنت اليه ، فراحت تتكلم - دون ما حذر - منساقة الى الاتجاهات التي كان يستدرجها اليها .. واذا بحديثها يقود « شيلبر » الى سر من أعظم أسرار الحرب .. سر « البواخر الزائفة » !

.. كانت الخطة تعتمد على اختيار بواخر تجارية وتسليحها بدافع مستترة بوسائل التعمية (الكاموفلاج) ، بحيث تبدو كبواخر تجارية تمخر البحار ، حاملة أعلام دول محايدة . فاذا تعرضت إحدى الغواصات الألمانية لباخرة منها ، أبدى بحارتها حلعا ، وأسرعوا الى مغادرتها في قوارب الانقاذ . واذا ذاك تطمئن الغواصة الى أن فريستها غير مسلحة ، فتظهر على سطح الماء ،

وبدلاً من أن تنسف الباخرة بطوربيد - وكانت الطوربيدات قليلة وغالية - تشرع في رميها بالقنابل ٠٠ وقبل ان تتمكن من ذلك ، تفاجأ الغواصة بقذائف المدافع المستترة تنهمر عليها كالطر ! ٠٠ وقد أغرقت إحدى عشرة غواصة بهذه الخطة ، كما أصيب عدد كبير بأضرار من جرائها ٠ وكانت كفيلاً بأن تمضي في مهمتها المدمرة لو لم يتلق الألمان ما أنذرهم ٠٠ وكان الانذار رسالة من شيلبر !

ومع ان شيلبر كان يتبع أسلوباً بسيطاً ، ومسلوكاً نظيفاً - فما عرف عنه يوماً انه استخدم مسدساً أو أقدم على عمل إجرامي - الا أن مغامراته ترفعه الى أرقى مصاف الجواسيس في الحرب ! كانت الجاسوسية لديه صراعاً فكرياً ، أوتى استعداداً فذاً لحوض غماره ! ٠٠ وقد أدى لبلاده - ألمانيا - أجل الخدمات ، ومع ذلك فانه لم ينل من الحميد والثناء الا النذر اليسير !

الفصل العاشر

رسول الخراب !

♦ في سنة ١٩٤٠ ، اعتقل الكابتن فرانز فون رينتلن - زعيم فن التخريب الذي كان يلقب بالغازي الأسود ! - في جزيرة (مان) ٠ وقد طلب منى ان أشفع له لدى السلطات ، ولكنني رفضت ، لأنه رغم عداوته لهتلر ، ما كان ليحجم عن الانضمام الى القادة الألمان لو انهم تخلصوا من الفوهرر ! ٠٠ وكان قد لجأ الى بريطانيا عند قيام النازية ، التي لم تكن تقدر أمجاد الأبطال الا اذا أبدوا استعداداً لقبول « المذهب » النازي ! ٠٠ على ان فون رينتلن وجد ترحيباً من بريطانيا ، اذ كان كتابه عن أعماله في الحرب العالمية الأولى قد أكسبه صيتاً

ذائعا هناك ، كما انه وجد موردا للعيش فيما كان يلقيه من محاضرات عامة

وكان فون رينتلن من أبرع من حذقوا فن « التخريب » ، الذى يعتبر طابعا هاما فى كل الحروب الحديثة . وقد أوفدته البحرية الألمانية - فى مارس سنة ١٩١٥ - الى الولايات المتحدة على انه من رعايا سويسرا . ومع ان أمريكا كانت فى تلك الفترة تتشبث بالحيداء التام ، الا أنها كانت عاكفة على اعداد نفسها للدور الذى كان مقدرا لها . أى ان تصبح مستودع الأسلحة والذخائر للحلفاء . بل ان الحيداء لم يمنعها اذ ذاك من أن تمد الحلفاء - لاسيما روسيا - بالذخائر . فكان من الأهداف الرئيسية لألمانيا أن توقف هذه الامدادات !

ولم تكن الخطوات الاعدادية فى مهمة فون رينتلن فى صعوبة الخطوات التمهيدية فى عمليات الجاسوسية ، اذ كان فى الولايات المتحدة مئات من البحارة الألمان الذين بقوا فيها عند قيام الحرب ، وانتشروا فى أرجائها ، بعد ان حال الحصار البريطانى دون عودة سفنهم الى ألمانيا . وقد كان عدد كبير منهم ، من مجندى احتياطى الأسطول الألمانى ، وعلى استعداد لأن يعملوا من أجل وطنهم ، كما كان من السهل على فون رينتلن أن يعثر على متطوعين من الايرلنديين الذين كانوا يعملون فى الموانئ الأمريكية ، والذين كانوا يكرهون انجلترا ولا يتورعون عن كل ما يوقع بها أبلغ الأضرار !

على ان أهم رجل انضم الى الحركة التى نظمها فون رينتلن ، هو الدكتور « شيل » . وكان عالما ماهرا ، اخترع سلاحا أحدث دويا فى ذلك الحين ، هو « السيجار المحرق » ، أو « القنبلة السيجار » ، التى كانت ذات أثر مدمر عظيم . وكانت هذه القنبلة عبارة عن أنبوبة جوفاء من القصدير ،

تفوق حجم السيجار قليلا ، وينقسم جوفها - بحاجز نحاسي رفيع - الى قسمين ، يحتوى أحدهما على حامض البكريك ، والاخر على حامض الكبريتيك ، فاذا امتزج الحامضان أحدثا لهبا قويا عنيقا ، يستمر فترة طويلة نسبيا ويتصل بأى جسم قابل للالتهاب ولو كان على بضع ياردات منه !

وكان من الصعب كبح استخدام هذا « السيجار المحرق » ، لأن صغر حجمه كان يمكن أى شخص من القائه بين الفحم عند شحن الوقود اللازم للسفن ، فاذا سرت اليه حرارة المواقد تفجر وأحدث حريقا دون أن يعثر له أحد على أثر . وقد اختيرت سفينة أمريكية شحنت بالذخائر الى روسيا لاجراء أولى تجارب هذا « السيجار المحرق » . وما لبثت التجارب المتوالية ان أثبتت نجاحه ! . كما اخترع الدكتور « شيل » قنابل على شكل كتل الفحم ، تدس بين وقود السفن ، ولا تنفجر الا بعد وضعها فى الافران فتتلف آلات السفينة !

واخترع رجل آخر من معاونى فون رينتلن - ويدعى « فاي » - جهازا يلصق سرا بدفة السفينة ، فاذا انفجر ، مالت السفينة على أحد جانبيها ، وربما غرقت !

ولقد اشتهر فون رينتلن بأنه كان « نظيفا » فى عملياته ، فكان يحرص على ان لا تؤدى الى سفك الدماء . ومع ذلك فقد نجح ايمانا نجاح فى مهمته كمخرب . وكانت وسائله تنم عن مهارة وتنظيم دقيق . ولكن اختلاط عدة جنسيات فى جماعته أدى الى صعوبة السيطرة عليها ، كما ان الدكتور « شيل » لم يلبث أن سبب له ازعاجا ، اذ انقلب فجأة الى انسان نهم لا يكف عن طلب مبالغ ضخمة من المال . وقد تحايل فون رينتلن على علاج مشكلته ، بعد ان عرف ان نقطة الضعف لديه هى شغفه بالنساء !

فون بابن .. الغبي !

♦ **ولقد سبق فون رينتلن كثيرا من الساسة الى ادراك ان** تحطيم الروح المعنوية لا يقل شأنًا عن التخريب المادى . ووجد فى هذا الميدان كثيرا من المتطوعين . فقد كان فى أمريكا اثنا عشر مليونًا من الرعايا المنحدرين من أصل ألماني ، والذين ملئت قلوبهم الى مناصرة وطنهم الاصلى ، فأخذوا ينظمون الاضرابات فى مصانع الذخيرة ، كما ألف العمال الألمان والاييرلنديون اتحادا لنقابات عمال الموانئ ، كان ينظم الاضرابات كلما دخلت سفن الحلفاء الموانئ الأمريكية لتتزود بالأسلحة والذخائر . ولكن هذه الخطط لم تلبث ان اكتشفت ، فعمد الجواسيس الانجليز الى تشجيع اتحادات النقابات الأصلية حتى تغلبت على الاتحاد الألماني الايرلندى

على ان أبرع حيل فون رينتلن تجلت فى استغلاله ميل الأمريكيين للعزلة وعدم اقحام بلادهم فى مشكلات أوروبا . . . فقد نظم اجتماعات للاحتجاج على ارسال أسلحة وذخائر الى الحلفاء ، بحجة ان ذلك يضر بحياد أمريكا . **وتوصل الى الاستعانة بشخصيات بارزة وأعضاء فى مجلس الشيوخ** الأمريكي ، كانوا يخطبون فى هذه الاجتماعات ، دون أن يفطنوا الى أنهم كانوا الأعيب فى يد جاسوس ألماني ! . . وبينما كان مشير الحواطر ومهيجو الرأى العام - من الايرلنديين والأمريكيين السذج - منهمكين فى هذه الحرب السياسية التى كان فون رينتلن يقودها وحده ، اذا به يستدعى الى ألمانيا للتشاور

وكان قد بذل كل جهد ممكن ليتجنب أية شبهات طوال بقائه فى أمريكا . ولكن القدر كان يريد له أن يقع ، بغباء سواء ! . . فعندما عاد الى أمريكا - وهو لا يزال منتحلا الشخصية السويسرية - كان يحمل نسخة من شفرة بحرية جديدة ، للملحق البحرى الألمانى فى واشنطن . . وكان هذا

الملحق هو الذى أفسد على فون رينتلن نشاطه ، اذ كان الانجليز قد دسوا على الملحق امرأة عملت كسكرتيرة له حتى حصلت على مفتاح الشفرة . وحدث ان أبرق الملحق برسالة لاسلكية ، كتبها بغياء ، عن تفاصيل خطة وضعها فون رينتلن للعودة الى ألمانيا للتشاور فى مشروعات جديدة . واذا البحرية البريطانية تلتقط الرسالة وتحل رموزها . . . وعندما سافر فون رينتلن ، اعترضت سفينة حربية بريطانية طريق السفينة التى كان يستقلها واعتقلته !

وعندما دخلت أمريكا الحرب ، طالبت انجلترا بتسليمها فون رينتلن . . لا كأسير حرب ، وانما كمجرم عادى . ووافق الانجليز على هذا الطلب الغريب ، فحوكم « المخرب » البارغ فى أمريكا ، وقضى عليه بالسجن أربع سنوات ! . . . وكنت اذا رغبت فى اغاظته - بعد ذلك - ذكرت أمامه اسم الملحق البحرى الألمانى الذى تسبب غباؤه فى الزج به فى السجن . . . ومن عجب ان الشهرة كانت ترتقب هذا الملحق ، فانه لم يكن سوى . . فون بابن !

وخليق بمن يدرس تاريخ الجاسوسية ان يدرس حياة فون بابن نفسه ، كنموذج من نماذج الجواسيس . . فقد كانت أول مهمة كلف بها هى تنظيم ألفوف من جنود الاحتياطى الألمان - الذين كانوا فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الأولى - للقيام بأعمال التخريب ، ولكنه منى فى هذه المهمة بفشل شنيع ، وكاد أمره يفتضح

ثم ارتكب خطأ أسوأ وأخطر . . فقد حدث ان كان عائدا من ألمانيا الى مقر عمله فى أمريكا ، فى سنة ١٩١٧ ، مطمئنا الى أن جواز سفره الدبلوماسى خير وقاء له ، اذا مرت باخرته بالموانئ البريطانية . . والواقع ان الانجليز لم يمسوه بسوء ، بالفعل ، ولكنهم أصروا على تفتيش حقائبه عندما أنزلت الى

البر في ميناء (فالماوث) . . فان الحصانة الدبلوماسية لم تكن تمتد الى حقائبه ، اذ ذاك . وشد ما كانت دهشة القائمين بمقاومة التجسس في انجلترا ، حين عثروا في تلك الحقائب على مفتاح للشفرة الالمانية ، وعلى مئات الملفات الخاصة بالجاسوسية الالمانية في أمريكا . . واستطاع الامريكيون - بمعونة الانجليز - أن يوقعوا بالعدو الكامن بينهم ضربة قاصمة !

ولعل خير تعليق على فون بابن ، هو ذاك الذي قيل بعد ذلك بعام ، وكان قد عين ملحقا ألمانيا مرافقا للجيش العثماني في فلسطين . فقد قدر له أن ينجو من الأسر ، عندما تقدمت قوات الانجليز بقيادة « النبي » ، ولكن أوراقه وقعت في أيدي الأعداء ، فكانت عظمة النفع لهم ، اذ كان قد سجل كل حركة وكل خطة في مذكراته . . وعندما نمت هذا الأمر الى السلطات البريطانية في لندن ، أرسلت وزارة الحربية برقية قالت فيها : « اذا أسرت فون بابن فلا ترسلوه الى معتقل ، وانما ارسلوه الى مستشفى للأمراض العقلية ! »

الفصل الحادي عشر

الشرق الأوسط . . مستودع الجواسيس !

♦ **لطالما** اعتبر الشرق الأوسط منطقة فريدة في نوعها تجمع منها الدول الجواسيس المرتزقة والمأجورين ، بحيث كانت بلاد هذه المنطقة تمثل على الدوام تمثيلا عادلا في « عصابات » الجاسوسية الدولية ، التي تفوق في الحقيقة أغرب ما تفتق عنه خيال الروائيين . وقد اشتهر اليونانيون والأرمن منذ زمن طويل بالتفوق في هذا المضمار الدولي ، وبقدرتهم على التنقل بحرية تامة في مجتمعات مختلف الدول !

فمن بين جواسيس ألمانيا الذين سببوا الكثير من المتاعب لقسم مكافحة الجاسوسية في فرنسا ، جاسوس يدعى « قسطنطين كودويانيس » ، كان كثير التنقل ، وكانت له صلة بتلك المرأة ذات الشخصية الشبيهة بشخصيات الأساطير ، وهى التى كانت تعرف باسم « السيدة الطيبة » ! . . وكان « كودويانيس » يونانيا بحكم مولده ، عالما باللغات من الطراز الأول ، وكان الى جانب ذلك مجردا من الضمير ! وقد عمل يوما كضابط فى جيش بلاده ، ثم استغنت اليونان عن خدماته ، وكان هذا الاستغناء قرارا وطنيا حكيما ! . . وعندئذ دبر له سادته الجدد - أى الألمان - أن يتستر وراء حرفته المدنية الأخيرة ، وهى الاتجار فى المخدرات . وكان من الطبيعى أن يعرضه ذلك لخطر السجن ، لو ضبط ، لكن عقوبات المخدرات كانت فى ذلك الحين أخف بكثير من عقوبات الجاسوسية !

على انه اضطر مع ذلك لتغيير هذا « الستار » مرتين ، وفى فرصتين متقاربتين : فاتخذ فى المرة الأولى شخصية تاجر فاكهة ، حتى تذكر سادته ان الحصول على الفاكهة وتصديرها فى زمن الحرب أمر عسير ، فقرروا أن يجعلوه صحفيا ، سيما وقد كانت له مواهب طبيعية تؤهله لهذه المهنة . وعلى هامش الرسائل التى كان « كودويانيس » يتلقاها من رؤسائه الألمان كانوا يكتبون له التعليمات بحبر سرى ، فكان اذا تسلمها وضع عليها سائلا خاصا ثم قربها من لهب النار ، وعندئذ كانت سطورها تبدو له بوضوح !

ورغم نجاحه الباهر فى الجاسوسية ، فقد كانت له نقطة ضعف شديدة ، هى حدة عواطفه - شأن سائر اليونانيين - وتعلقه الزائد بارضاء شهواته . وكانت تعليمات رؤسائه اليه فى هذا الشأن تطالبه بأن يقتصر فى علاقاته الجنسية على دور

الدعارة الرسمية ، خارج مناطق الحرب • ورغم ان (باريس) كانت تتيح له هذه الفرصة ، فانه كان ينفر بطبعه من نساء الهوى المحترفات • فلم يلبث أن وجد نفسه مسوقا الى أن يتخذ لنفسه خلية !

وكانت الفتاة جذابة للغاية ، تبدى له الحب والوله • وبحكم احترافها التمثيل أجادت تمثيل دورها الى حد أبعد عنها الشبهات ، فلم يجل بخاطره لحظة انها تنتمى الى فرقة مقاومة الجاسوسية التابعة لقوات الحلفاء ! • على أن براعته ودكائه فوتا على الجاسوسة الحسنة كل فرصة لاقتناص أية معلومات منه ، فعاشت معه عدة أشهر دون ان تتوصل الى أي دليل ضده !

السمقطة التي اكتشفتها خليلته • تأودت به !

• وفي الوقت الذي كاد الحلفاء يفصلون فيه الفتاة من عملها في خدمتهم ، لفشلها ، لاحظت أمرا تافها لفت نظرها : فقد عادت الى مسكنهما ذات يوم مبكرة عن موعدها ، فوجدته يغسل جواربه بنفسه - ولم يكن منطقيا ان يفعل رجل ذلك وفي البيت امرأة ! - كما لاحظت ان الجوارب ليست قدرة ، وانه يغسلها برفق ، دون أن يضغط عليها كثيرا ، فأدركت ان وراء ذلك لغزا خفيا • وكانت تعلم ان الجواسيس اذا أرادوا



الاحتفاظ بكمية من الخبر السرى فى حوزتهم ، فانهم لا يحملونه فى زجاجة ، وانما يغمسون فيه جوربا أو منديلا ثم يتركونه يجف ، حتى اذا احتاجوا الى استعماله يوما غسلوا الجورب بماء ساخن يذيب الخبر اللاصق به ، فيمكن استعماله فى الكتابة !! وكان ذلك الحادث العرضى هو المفتاح الذى أدى الى ضياع « كودويانيس » ، فقد عمدت مخابرات الحلفاء على اثر ذلك الى تكليف الفتاة باستنزاف ماله عن طريق الاكثار من النفقات ، حتى اذا تورط فى الديون خرج عن تحفظه وأكثر من الاضطلاع بمهام التجسس ، فيكشف أمره !

وقد كان . استطاعت خليلته ان تقرأ رسالة وردت اليه كلف فيها بالاشتراك - كصحفى - فى تشييع جنازة أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، كى يسلم أثناء ذلك ورقة الى رجل يضع على رأسه قبة عالية . فلما أبلغت الفتاة هذا النبأ الى رؤسائها وجد الرجل حوله فى الجنازة ثلاثة رجال يضع كل منهم على رأسه قبة عالية ! فأدرك ان أمره قد اكتشف ، وانتابه اليأس . واذا ذاك حاول التخلص من الورقة التى تحمل دليل التجسس ، بالقائها فى القبر المفتوح ، لكن أحد المخبرين التقطها . فاعتقل « كودويانيس » ، وحكم عليه بالاعدام !

على أن قلم المخابرات الفرنسى كان يبنى الحصول على أسماء شركائه ، فلجأ الى أساليب وحشية تتنافى مع القناع الذى كانت فرنسا تظهر به أمام العالم . جاءوه بطعام مملح يثير العطش ، ثم أتوا بماء ونيذ ، وقبل ان يطفىء ظمأه أخذوها من على مائدته وهو يتلمظ بشفتيه شوقا الى الماء !! وبعد أن احتمل الرجل هذا الظمأ القاتل يومين ، خارت قواه فتكلم ، ولكن عقله كان قد شرد واضطرب الى حد أفقد اعترافاته قيمتها . . . وعبثا حاولوا انعاش ذاكرته وذهنه بالكوكايين ،

فان الاوان كان قد فات .. وهكذا أعدم الرجل ، ودفن معه
سر شركائه ، الى الابد !

مغامرات « لورنس بلاد العرب » ، وغريمه الالماني !

• **والى جانب الجاسوسية الدولية المنظمة ، شهد الشرق**
الأوسط بعض المغامرات الاوربية « الفردية » ، التى كان
أبرز أمثلتها الجاسوس البريطانى « لورنس » ، صاحب
المغامرات المشهورة فى البلاد العربية .. فقد أدرك انه لا بد
للحملة العسكرية المقبلة - وقتئذ - من أعمال المخابرات
الدقيقة ، فدخل البلاد التى كان الأتراك يحتلوها وقدر الحالة
« التكتيكية » العامة بنفسه ، فكان يزور القلاع التركية
ويحصيها بحجة انه عالم فى الآثار !

أما غريمه - فى المعسكر الالماني - فكانت حياته أعجب ،
وأقرب الى « المسرحيات » من حياة لورنس . ولم يكن هذا
الغريم غير الكابتن « واسموس » . والفرق بين الاثنين ان
لورنس كان ماجورا مزودا بمعونة القوات البريطانية ، أما
« واسموس » فكان يعمل بمفرده ، بدافع الغيرة على وطنه ،
وقد أثر تأثيرا كبيرا فى رأى العام الايرانى خلال الحرب العالمية
الأولى ، اذ حد من نشاط الحلفاء هناك الى درجة كبيرة ..
واليك قصته : عندما نشبت الحرب عام ١٩١٤ ، كان « واسموس »
يعمل قنصلا لالمانيا فى (بوشير) بايران . وكان يتكلم اللغة
الايرانية ، بلهجاتها المختلفة ، فى طلاقة واجادة ، كما كانت له
صلة بكثير من القبائل .. فلما نزل الجنود البريطانيون هناك ،
متعللين بالدعوى الاستعمارية المألوفة ، وهى « حماية منابع
الزيت » ، أعلن الرجل عليهم حربا شعواء ، وان كانت « فردية » .
لم يكن فى استطاعته ان يحاربهم علانية ، فصار يجمع رجال
القبائل لمناوشتهم .. ثم تمكن من الفرار من المدينة وفى جعبته
سلاح قوى هو المال ، (وقدره ١٤٠ ألف مارك من الذهب !)

واستغل ذهبه في تأليب رجال القبائل ضد الانجليز ، وتنظيم شبكة للتجسس عليهم • ثم تزوج من ابنة زعيم فارسي كبير ، وأولم وليمة فاخرة دعا اليها مئات من ذوى النفوذ ، علاوة على كثيرين من الرعاة والفلاحين ، وعمال الزيت والموانئ .. وألقى فيهم خطبة عن القضية الألمانية ، وعن دسائس الانجليز وجشعهم الاستعماري ، فلم تلتها الوليمة حتى كان قد استمال اليه نصف الحاضرين !

وأفادت خطته ، فتدفقت عليه الأنباء من كل مكان ، ولكنه كان يضطر الى مراجعة كل نبأ يأتونه به ، لأن الكثيرين كانوا مصابين بخصوبة الخيال ، طمعا في المال ، فكانوا يخلقون بعض الأنباء اختلاقا ! .. وكانت تدابير الانجليز الحربية هناك بدائية فجأة ، فاستطاع واسموس ان يحصل من عمال الموانئ والصيادين على تفاصيل كاملة عن تحركات القوات البريطانية ، فكان يرسلها أولا بأول الى الجيش العثماني - حليف ألمانيا عندئذ - في مقر قيادته بشمال العراق • وقد اعترف القائد الألماني للمنطقة بأن أنباء « واسموس » أثرت في سير تلك الحملة الطويلة ، ولا سيما في المعارك التي أدت الى سقوط (كوت) - أو « قوت العمارة » - وكان سقوطها من أكبر الكوارث التي أصابت بريطانيا في الشرق الأوسط !

حيل الجواسيس حين تنضب أموالهم !

♦ على ان الحظ لم يكن يواتيه دائما ، فقد حاول ان يعمل على غزو « أفغانستان » ، ولكن أمواله كانت قد بدأت تنضب .. وبلغ من تفننه في تهريب الأسلحة الى القبائل في زوارق الصيد ان اضطر الانجليز الى تخصيص داورية دائمة من أربع سفن حربية لضبط تلك الزوارق ، ولكن دون جدوى ! .. وفي النهاية أعلنوا عن مكافأة ضخمة قدرها ١٤ ألف جنيه لمن يأتيهم بالرجل ، حيا أو ميتا !

وعندما تحول تيار الحرب ضد الألمان أهاج هذا الفشل
 ثائرة « واسموس » ، فبذل جهدا جبارا للمحافظة على ثقة
 الإيرانيين في انتصار ألمانيا . وكان أجراً ما فعله أن أصدر
 بلاغا زعم فيه ان الألمان غزوا إنجلترا ، وان امبراطورهم
 « غليوم » سار بعربته ظافرا في شوارع لندن . وان ملك
 الانجليز « جورج الخامس » أعدم علانية !
 ورغم الصعوبات التي كان يتعرض لها ، والتي كانت تزداد
 كلما نقصت موارده المالية ، فانه لم يفقد أعصابه قط ! .
 ومن أطرف أمثلة سعة حيلته ما فعله حين أحاطت به جمهرة
 من الدائنين ذات يوم ، فادعى انه أقام محطة لاسلكية للاتصال
 بحكومته كي ترسل اليه المال اللازم ، وكان كل ما فعله
 لايهامهم بذلك انه أقام عمودا وضع فيه بعض الأسلاك وجزءا
 من جهاز (جراموفون) قديم ، ثم زعم لهم انه بعث برسالة
 الى الخليفة العثماني في (استانبول) ، شاكيا اليه مسبك
 رعاياه المؤيدين الفارسيين نحوه ، وأضاف ان الخليفة أجاب بأنه
 يحثهم على ان يحسنوا معاملة الضيف الألماني ! . (وقد فعل
 « لورنس » شيئا من هذا القبيل يوما ، فقد نفذ ماله فملا
 صندوقا بالأحجار وادعى للدائنين انه مملوء ذهباً ، ولكي يجيد
 « سبك » الحيلة جعل الجنود يحملون الصندوق تحت حراسة
 مشددة ! ومن فرط ثقل الصندوق جازت الحيلة على أصحاب
 الديون فصبروا على لورنس حتى جاء الذهب الحقيقي !)
 ورغم ما فعله « واسموس » بالحلفاء فان خصومه كانوا
 يقدرونه . وكان الكتاب والمؤرخون يسمونه « لورنس
 الألماني » . لكنه في الواقع كان يفوق غريمه الانجليزى في
 التخريب والتجسس ، حتى لقد سيطر بمفرده على منطقة
 واسعة زمتا طويلا . وكانت خرائط المخابرات البريطانية
 تشير الى (ايران) بعلامة حمراء كتب عليها اسم خصمهم اللدود
 « واسموس » !

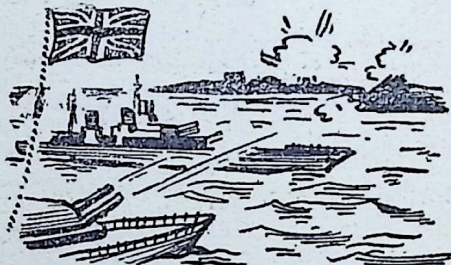
الفصل الثاني عشر

غباء جاسوس بريطاني ، يكلف بلاده غالبا !

♦ **اشتهر الفرنسيون والانجليز في حروبهم بارتكاب أخطاء مروعة أدت الى سفك دماء كثيرة بغير ضرورة ، وان كان بعض هذه الأخطاء مضحكا يبعث على السخرية .. من ذلك على سبيل المثال ان ضابط مخابرات بريطاني بعث بتقرير هام الى حكومته سنة ١٨٩٠ يقول فيه انه سمع بعض كبار الضباط الفرنسيين يتحدثون عن نوع جديد من الرصاص مغطى بالجلد ! .. وكان النبأ غريبا ، فبدلت وزارة الحربية البريطانية جهدا كبيرا ، وأنفقت أموالا طائلة ، لاكتشاف حقيقة هذا الاختراع الغريب . وأخيرا تبين أن الضابط الانجليزى ارتكب خطأ سببه قلة درايته باللغة الفرنسية : فقد قال الفرنسيون ان الرصاصة ستكون مغطاة بقشرة من النحاس (CUIVRE) ، فظنهم يقولون انها مغطاة بالجلد (CUIR) ، والفرق في النطق بين الكلمتين بسيط !**

أما أداة الحرب الفرنسية ، فلها أخطاء كثيرة مضحكة - الى درجة « محزنة » ! - فقد حدث قبل ان تنشب الحرب العالمية الأولى ان وقفت المخابرات الفرنسية على ما كان يسمى « خطة شليفن » ، وهى خطة وضعها القواد الألمان لمهاجمة فرنسا واكتساحها .. ولكن غباء القيادة الفرنسية وغرورها ومغالاتها فى الاعتماد على ما كانوا يدعون انه « تفوق أسلحة الجيش الفرنسى وروحه الهجومية » ، كل هذا جعل القيادة الفرنسية تتوكل فلا تضع خطة مضادة للخطة الألمانية التى اكتشفها جواسيسهم ! .. وقد أصيب الفرنسيون من جراء ذلك بهزائم وخسائر فادحة فى القتلى والجرحى ، لم يفيقوا منها طول مدة الحرب !

ولم يكن سجل البريطانيين في مكافحة الجاسوسية أفضل من سجل الفرنسيين ! .. فقد حدث في فبراير ١٩١٥ ان بدأ الأسطول البريطاني الفرنسي في ضرب القلاع التي تحمي مضيق الدردنيل . وكان الضرب شديدا الى درجة قطع معها القائد



المحلى كل أمل في الدفاع عن المضائق، وساد الدولة العثمانية في استانبول شيء من الفزع .. واستعدت حكومة الباشوات للفرار السريع ، فقد كان منتظرا ان يصل أسطول الحلفاء الى المدينة بعد أيام ، ومعنى هذا اجبار تركيا على الانسحاب من الحرب والتخلي عن حليفها ألمانيا ! .. ولكن ، لشد ما كانت دهشة القائد التركي حين رأى أسطول الحلفاء يبدأ في الانسحاب ! .. وقد تبين بعد ذلك ان قائد ذلك الأسطول كان في فزع وحالة عصبية سيئة ، اذ كان يخشى ان يفقد سفنه بتأثير الألغام العائمة .. في حين انه لو كان شجاعا وغامر قليلا لأخرج تركيا من الحرب ! ولو كانت للحلفاء مخابرات صالحة ، وكان لهم جاسوس واحد في الدردنيل ، لأبلغهم بحالة الفزع التي كانت تسود السلطات ، وبما أصاب الحصون التركية من تحطيم .. ولا نقذ بذلك أرواح مليون نفس من الموت في السنوات التي تلت تلك المعركة ! .. بل كان محتملا أن يحدث ما هو أكثر من ذلك ، فلو خرجت تركيا من الحرب لوفر الحلفاء على

أنفسهم مشقة ونفقات حملات فلسطين وشمال العراق ، ولوفروا حياة الذين قتلوا في هذه الحملات ٠٠ أو لاستخدموهم على الأقل في مهاجمة ألمانيا وحلفائها من الأراضي التركية ، أى من الباب الخلفى ٠٠ ولانتهت الحرب قبل نهايتها الفعلية بسنة كاملة ، ومع كل ذلك فقد ضاعت هذه الفرصة لأن القيادة لم تعرف كيف تضع جاسوسا واحدا هناك !

جاسوس واحد كان كفيلا بانقاذ مليون نسمة !

♦ واستمر فشل الحلفاء بعد ذلك ! ٠٠ حدث بعد أشهر أن نزل جيش بريطانى كبير فى شبه جزيرة (غاليبولى) ، وهى موقع « ستراتيچى » فى جنوب تركيا الأوروبية يستطيع من يسيطر عليه ان يسد المضائق ! ولم تكن القيادة البريطانية التى أنزلت هذا الجيش تعرف ان الأتراك عززوا استحکاماتهم هناك ، فدفعوا ثمن جهلهم هذا غاليا - لا شىء إلا لعجز قلم مخبراتهم ! - وان كان الضرر الذى أصاب بريطانيا من جراء ذلك جاء أقل بكثير من الضرر الذى أصاب حلفاءها ، ولا سيما روسيا القيصرية ٠٠ ذلك ان الهدف الرئيسى من الهجوم الجرى على الدردنيل ، وما حدث بعد ذلك من نزول فى (غاليبولى) ، انما كان فتح المضائق فى وجه روسيا ٠ ولو واصل ذلك الاسطول مهمته لتلقت روسيا الامدادات التى كانت فى حاجة شديدة اليها ، فان ذخيرتها كانت قد قلت الى درجة حولت كل معركة الى « مجزرة » تزهق فيها ارواح الروس بغير حساب ، بسبب قلة ذخيرتهم ٠ وتقدر الأرواح التى أزهقت نتيجة لذلك بمليون نسمة ، ان لم يكن أكثر ! ٠٠ بل يمكن القول ان تلك الكارثة كانت من العوامل الرئيسية التى عجلت بنشوب الثورة الشيوعية ، فان الروس لم يثوروا على القيصر فى أول الأمر بسبب استيائهم من الحالة الاجتماعية ٠ بل بسبب نفور الرأى

العام منه لما أظهرته الأسيرة وقوادها من عجز نتجت عنه تلك
المخاطر الفادحة . وقد أدى ذلك كله الى سأم الشعب من الحرب ،
فتحول السأم الى ثورة !

لغز اغتيال ولي عهد النمسا !

♦ كذلك يمكن القول ، من جهة أخرى ، ان اهمال قلم
المخابرات النمسوية فى الوقوف على مؤامرة اغتيال ولي عهد
الامبراطورية فى (سراجيفو) ، قبل وقوع الجريمة ، كان هو
السبب المباشر فى نشوب الحرب العالمية الأولى . فلقد وقع
حكام امبراطورية النمسا والمجر تحت تأثير رجال حاشيتهم ،
الذين زينوا لهم ان الحرب واقعة لا محالة ، فعجزوا عن ضبط
أعصابهم حين وقع ذلك الاغتيال ، وعجلوا بنشوب الحرب -
رغم انه كانت فى النمسا يومئذ عناصر مسالمة تنفر من فكرة
الحرب ، كما كانت فى كل من ألمانيا وروسيا عناصر مماثلة
تتمسك بالسلام . .

ولنستعرض الآن المقدمات الخفية التى أدت الى وقوع ذلك
الحادث : كانت النمسا قد استولت على منطقة (البوسنة) ،
كنصيبتها من الامبراطورية العثمانية التى أخذت تنهار وتتفكك .
لكن سكان هذه الولاية كانوا من أصل صربى (أى سلافي) ،
فكانوا يطمحون الى الاتحاد مع واحدة من الدويلات الصغيرة
الأخرى المنحدرة من الجنس السلافي ، وهى الصرب المجاورة
لها ، فأحنقهم ان يتخلصوا من نير الامبراطورية العثمانية
ليقعوا تحت نير الامبراطورية النمسوية ! . . وكانت الجمعيات
السرية شيئا مألوفاً فى البلقان فى ذلك الوقت ، اذ كانت بمثابة
« التركية » التى خلفها الخضوع طوال مئات من السنين لحكم
عثمانى فاسد . وكانت من هذه الجمعيات جمعية « نارودنا
اودبرانا » ، التى عرفت فى الخارج باسم اليد السوداء (راجع
العقد رقم (٥٦) من « كتابى ») . وهكذا بينما كان السياسيون

منصرفين الى الغاء الخطب الحماسية ، كان عزم هذه الجمعية منصرفاً الى العمل ! ٠٠ فلما جرت مناورات الجيش النمساوى في (البوسنة) خلال شهر يونيو عام ١٩١٤ ، شهدها الارشيدوق النمساوى - ولى العهد - فبدا لتلك الجمعية ان الفرصة سانحة للانتقام ، وللرد على هذه المناورات . وقد ساعد غباء النمساويين في ذلك الحين على تنفيذ المؤامرة ، فقتل الارشيدوق ٠٠ بينما كان من السهل على جواسيس النمساويين أن يجبطوا المؤامرة ، لو تسللوا الى صفوف تلك الجمعية السرية التى كانت معروفة وملحوظة النشاط يومئذ ، سيما وانهم كانوا يتوقعون نشوب الحرب بينهم وبين الصرب قبل ذلك بزمان طويل ، بل وكانت لهم منظمة كبيرة للتجسس فى هذه الدولة ٠٠ وأكثر من ذلك ، ان تلك المؤامرة التى ذهب ولى عهد النمسا ضحيتها - وغيرها من المؤامرات الاخرى - كانت موضع ثرثرة الناس فى المقاهى العامة !

على ان هناك فريقا من الناس يعتقدون ان الجواسيس أبلغوا النمسا فعلا بهذه المؤامرة ، وان الارشيدوق لم يكن محبوا بسبب آرائه المتحررة ، كما انه كان على خلاف مع عمه الامبراطور بسبب زواجه ٠٠ فسمح له الحكام الذين يعرفون المؤامرة بزيارة (سيراچيفو) فى يوم حداد الصرب على بقاء ولاية منها تحت حكم النمسا ٠٠ وفى الوقت نفسه لم يزودوه بحراسة قوية من رجال البوليس ! واذا صح هذا الظن فان ثمن جنونهم كان أضخم من ان يحسب له حساب ، فقد أدت هذه الجريمة الى نشوب الحرب العالمية الاولى ، التى مات وجرح فيها الملايين ، بل ونجم عنها انهيار الامبراطورية النمساوية ذاتها ، وفصل المجر عنها ، وضم اجزاء اخرى منها الى كل من الصرب والسلوفاك ، لتكوين دولتي يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ٠٠ الى آخر سلسلة التطورات التى جعلت من النمسا دولة صغيرة منذ ذلك التاريخ ٠٠ الى اليوم !

ضربة معلم .. أفنت نصف مليون ايطالى !

♦ **ومما** يؤيد شبهة البعض فى ان يكون قلم المخابرات النمساوى قد وقف على تفصيلات تلك المؤامرة قبل وقوعها ، ان ذلك الجهاز من أجهزة الجاسوسية كان متصفا بالكفاية الفعالة ، الى حد انه حقق فى أثناء الحرب ما يعتبر بمثابة « ضربة معلم » فى تاريخ الجاسوسية الحديثة .. واليك تفصيل ذلك :

دخل الايطاليون الحرب عام ١٩١٥ ، وقاموا بسلسلة من الهجمات دلت على بسالة عظيمة ، اذ رغم ان قيادتهم كانت ضعيفة فانهم قتلوا مئات الالوف من النمساويين عبر منطقة الالب ! .. والايطالى محارب جيد ، ولكن لفترة قصيرة فقط . ولهذا ما كاد خريف ١٩١٧ يحل حتى تلاشى الحماس للقتال من نفوس الجنود الايطاليين .. ورغم ان النمساويين كانوا يشاركونهم هذا « الانهيار المعنوى » ، فقد رأى القواد الالمان - المشرفون على الجيوش النمساوية - ان الفرصة باتت سانحة للهجوم على ايطاليا ، وضرب عصفورين بحجر : تحطيم الجبهة الايطالية من ناحية ، ورفع الروح المعنوية عند النمساويين من الناحية الاخرى !

فى ذلك الوقت كانت ادارة المخابرات السرية النمساوية تحت ادارة الجنرال « رونج » - الذى تحدثنا عنه من قبل فى قضية ريدل - وكان حينذاك برتبة « كابتن » فقط . وكان رجال المخابرات النمساويون قد وضعوا تقريراً دقيقاً جداً دللوا فيه على ضعف القوة المعنوية لدى الايطاليين ، وحددوا أكثر الوحدات والمناطق ضعفاً ، وذكروا ان حوادث اضراب وشغب قد وقعت فى المدن الصناعية مثل (تورينو) و (ميلانو) . وكانت التقارير دقيقة فشملت أسماء وعناوين الذين قتلوا فى الاضطرابات !

استغل « رونج » هذه المعلومات بمهارة فائقة ، فزود آلاف

النسخ من الصحف الإيطالية المعروفة ، ذكرا فيها التفاصيل الواقعية عن الموقف ، وأضاف إليها مقالات يستنكر فيها الأعمال الخبيثة الدموية التي تقوم بها السلطات .. بحيث بات يفهم من هذه المقالات ان إيطاليا تعيش في فوضى ! .. ثم هربت هذه الصحف الى الوحدات الإيطالية العسكرية في المنطقة التي اختارها النمسيون للهجوم .. فقرأ الجنود الإيطاليون هناك ان عائلاتهم تموت جوعا ! وان رجال البوليس المسلح لا ينقطعون عن مهاجمتها .. الخ .. وقبل ان تثبت هيئة أركان الحرب الإيطالية للجنود ان تلك الصحف مزورة ، كانت الضربة النمسية قد وقعت !

والعجيب انه مقابل هذه البراعة من قلم الجاسوسية النمسي ، أبدى قلم الجاسوسية الإيطالي منتهى الإهمال والغفلة ، ولو انه من الصعب تصور ان هذا الأخير لم يعلم بأمر الهجوم الألماني النمسي قبل وقوعه ، فقد كانت التحركات العسكرية التي سبقته ضخمة واسعة النطاق بحيث لا يعقل انها حقيقت عن علم القواد الإيطاليين . والتفسير المقبول هو ان هؤلاء كانوا من الصلف والغرور بحيث لم يقدروا الخطر المنتظر حق قدره ! .. تؤيد هذه النظرية عدة قرائن ترجح سبق علمهم بذلك الهجوم مقدما : من هذه القرائن ان بعض جواسيس الأمريكيين في سويسرا أُنذروا إيطاليا بنبا الهجوم المرتقب .. كما أيد النبا جنود من أصل تشيكي أو كرواتي انفروا من الخدمة العسكرية في قوات النمسا .. ومن ناحية ثالثة التقطت ذاورية في إقليم (الفلاندر) الفرنسي بطاقة بريد مرسلة من جندي ألماني ، وعليها منظر من إحدى مدن الألب النمسية المجاورة لحدود إيطاليا ، وكان ذلك دليلا على احتشاد القوات الألمانية في جنوب النمسا ، استعدادا للهجوم على إيطاليا !

ومع كل هذه القرائن ، فقد أصم قواد إيطاليا آذانهم عن كل

تحذير ، وشغلوا أنفسهم بأعداد خطة هجوم من جانبهم هم ٠٠ فلما هبت العاصفة الساحقة على جنودهم الذين كانت روحهم المعنوية قد ضعفت - كما سبق البيان - انهيارت جبهتهم بسرعة مذهلة ، ف خسروا في أسبوع واحد أكثر من ستمائة ألف جندي !

واضطر الحلفاء الى ارسال ما لديهم من احتياطي الى ايطاليا ، لنجدة القوات المنهزمة ٠٠ في الوقت الذي كان الألمان فيه ينقلون عشرات الفرق من جبهة روسيا الى الميدان الغربى - الذى ضعفت فيه جبهة الحلفاء - فلم يحل يوم ٢١ مارس (عام ١٩١٨) حتى شنوا عليهم هجومهم الكبير ، الذى أصاب الحلفاء بكارثة أخرى فادحة !

الفصل الثالث عشر

جواسيس لليابان ، من حاشية قيصر روسيا !

♦ على ان الجائزة الأولى فى عجز رجال المخابرات وعدم كفايتهم يجب أن تمنح لروسيا القيصرية ، لا لاطاليا . وقد يكون تفسير ذلك ان التجسس الداخلى كان يشغل النصيب الأكبر من نشاط قلم مخابراتهم ، حتى انهم غالباً ما كانوا يفشلون أو يضعفون عندما يعملون خارج الحدود ! بل ان جواسيس بوليسهم كانوا يفشلون فى الداخل أيضاً . ٠٠ وقد حدث فى الحرب الروسية اليابانية ان كان اليابانيون يستأجرون خونة من الروس كانوا تابعين لقيادة الفيصر نفسه ! ٠٠ ومن هذا نستطيع ان نفهم أسباب انتصار اليابانيين فى تلك الحرب بسهولة !

وقد أظهر الروس أكثر من مرة ضعفاً فى هذا الميدان أصابهم بأضرار جسيمة ، فكأنوا اذا أرادوا معلومات عن بلد أجنبى لجأوا الى أصدقائهم الرسميين فى تلك الدولة . فكأن

هؤلاء يبلغون روسيا ما تحب ان تسمعه . وليس ما يجب ان تعرفه !

حدث في عام ١٩٣٩ أن أقنع زعماء الحزب الشيوعي الفنلندي روسيا ان الشعب سيرحب بقواتها مفتوح الذراعين ، وأنه سيطيح بالحكومة الفاشية المتولية زمام الأمور فوراً بمجرد دخول القوات الروسية ! .. وعلى هذا الأساس تقدمت حامية



(ليننجراد) نحو حدود فنلندا وكأنها ذاهبة الى نزهة . وهم كانت المفاجأة بل الصدمة حين استقبلها الفنلنديون بأشنع هزيمة حربية ! ولم تستطع روسيا سحق الفنلنديين الا بعد ان أعدت لهذا الغرض حملة عسكرية كاملة !

لغز معاهدة عدم الاعتداء بين ستالين وهتلر !

♦ وفي السنوات التي مضت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت سحابة من الريب والشكوك تحيط بالعلاقات بين روسيا والديمقراطيات الغربية . لذلك لم يدهش الذين يعرفون سياسة الحكومة السوفييتية في ذلك الحين حين سمعوا ان روسيا وألمانيا النازية قد وقعتا ميثاق عدم اعتداء في أغسطس ١٩٣٩ . ولو ان فريقاً آخر اعتبر الأمر لغزاً عسير التفسير ، فلقد كان واضحاً انه اذا هزمت ألمانيا النازية جميع الدول الغربية فانها ستتحوّل بعد ذلك الى روسيا . ومع ذلك

فان الحكومة السوفيتية ظلت تعلن « زمالتها الروحية » للرايخ النازي ! . وكانت تبعث الى هتلر بتهنئات دورية وهو يتقلب على مقاومة دولة صغيرة بعد أخرى ! . بل حدث ما هو أعجب من ذلك ، فان روسيا تمسكت باخلاص بالجانب الاقتصادي من اتفاقيتها مع الألمان ، وظلت ترسل كميات كبيرة من المواد الحربية الى ألمانيا ، الى أن نشبت الحرب بينهما ! . بل لقد كانت الدولتان تشتركان معا في احضار أثقال من المطاط من الشرق الأقصى ، بقطارات سريعة خاصة !

على انه كان واضحا مع ذلك ، قبل الهجوم الألماني بعدة شهور ، انه واقع لا محالة . وقد أمر هتلر بذلك الهجوم في ديسمبر ١٩٤٠ ، عندما طلب مولوتوف عقد اتفاق جديد يعطى روسيا نصيبا أكبر مما يجب من « غنائم الحرب » ، أى من الدول الصغيرة التى كانت الدولتان الكبيرتان تقتسمانها ! . والواقع ان رحلة « هيس » الى بريطانيا كانت دليلا ماديا على قرب وقوع ذلك الهجوم : فقد حاول اقناع بريطانيا - أو تخويفها - كي تعقد الصلح مع ألمانيا وتخرج من الحرب . وكان واضحا انه أراد ذلك ليحمى مؤخرة ألمانيا ، حتى تتفرغ لمهاجمة روسيا !

بل لقد حدث قبل ذلك ان عرفت مخابرات الغرب أن القوات الألمانية ترسل فى حشود كبيرة صوب الحدود الشرقية . وكان واضحا أيضا ان الغرض من حملات الألمان العسكرية فى البلقان هو حماية جناحهم . وظهرت علامات أخرى تنبئ بقرب غزو روسيا : منها سحب الوحدات الألمانية المدرعة من الميادين الأخرى ، وانشاء مطارات جديدة فى بولندا ، وغير ذلك . . وقد أخطر الغرب روسيا بذلك أكثر من مرة . ولكن الروس كانوا يتجاهلون هذه التحذيرات ، ويعتبرونها مجرد حيل من دول الغرب للقضاء على روح الاتفاق الروسى الألمانى ! وكانت معلومات الأمريكين عن ذلك الاستعداد

الألماني للهجوم أجدر بالاهتمام من سواها ، فقد كانوا محايدين الى ذلك الحين . وكانوا أحرارا - الى حد ما - في التحرك والانتقال كما يريدون في أنحاء أوروبا . فلما قدم الأمريكيون هذه التحذيرات الى روسيا ، قال عنهم السوفييت انهم دعاة حرب

تشرشل يعلم بالهجوم الألماني على روسيا قبل وقوعه بأيام !

♦ وفي أوائل شهر يونيو من ذلك العام ، كان الموقف قد أصبح واضحا جدا ، فان حشد ٢٥٠ فرقة على حدود دولة لا يمكن ان يظل سرا خافيا عن هذه الدولة ! ومع ذلك ظلت روسيا تقول انها صديقة برلين ، رغم ان الألمان كانوا قد طردوا ، ابتداء من شهر مارس ، ممثلي روسيا من المنطقة التي ستصبح ميدانا للحرب . ولكن حتى هذه العلامة المشئومة تجاهلها الروس بدورها . . . وهكذا بات الموقف غريبا جدا ، فان الاتحاد السوفييتي تخلى عن كل شيء ليرضى شريكه ألمانيا . . . حتى لقد اعترفت روسيا فجأة بحكومة « رشيد عالي الكيلاني » في العراق ، وفتوحات ألمانيا في بلجيكا والنرويج واليونان ويوغوسلافيا

وقد دفعت روسيا ثمن هذا الخطأ المريع ، وكان ثمننا هائلا ! . . فعندما ضرب الألمان ضربتهم في ٢٢ يونيو ١٩٤١ ، أخذت الجيوش الروسية على غرة . . . قُدمرت الطائرات الألمانية المطارات . وأحاط الألمان بجيوش روسية كاملة ، قبل ان تعرف انها في حالة حرب ! والى اللحظة الأخيرة السابقة على الهجوم كانت روسيا تحمل على بريطانيا وأمريكا . . . وبعد ساعات قليلة كانت تطلب منهما العون والنجدة !

ومما هو جدير بالذكر ان تشرشل كان مطلعاً على دقائق الموقف ، قبل الهجوم الألماني بأيام ، حتى انه أعد - مقدما - خطابا

هاما عن الموقف الجديد الناشئ عن هذا الهجوم !
والسؤال الذى يتبادر الى الذهن فى هذا المقام هو : هل
عجز الجواسيس ورجال المخابرات الروس عن ملاحظة مثل
هذا الاستعداد الالمانى الواسع النطاق ؟
اننا نعرف الآن ان المخابرات الروسية لم تفشل أو تعجز
عن أداء مهمتها ، فقد لاحظت الحشود الالمانية فى الوقت
المناسب ، وأبلغت أمرها الى (الكريملين) . ولكن الزعماء
السوفييت تلقوا رسائل سرية من بعض الشيوعيين الالمان
تقول انه اذا حدث هجوم على أرض روسيا المقدسة فان الشعب
الالمانى سيرفض الزحف ! . وقد فضل الروس الايمان بهذه
التقارير « العاطفية » على الاستماع الى تحذيرات مخابراتهم
العسكرية ، ومخابرات البلاد الأخرى المعادية لالمانيا النازية !
وكانت غلطة من الغلطات البارزة فى تاريخ السوفييت

الفصل الرابع عشر

جاسوس مجرى يهودى ، ينتخب عضوا بمجلس العموم البريطانى
♦ ان بطل هذه الحوادث الخارقة التالية رجل يدعى « تربتش
لنكولن » ، تعد سيرته أغرب من الخيال الذى نطالعه فى القصص
. فلئن استطاع بعض جواسيس الدول ان يتسللوا الى جيوش
أعدائهم ، فان « لنكولن » استطاع ان يصبح فى يوم من الأيام
عضوا فى مجلس العموم البريطانى !
ولد « تربتش » يهوديا مجريا . وزار لندن فى شبابه . .
ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح واعظا فى كنيسة مذهب
(الميثودست) فى كندا . ثم عاد الى إنجلترا ليترك هذا المذهب
الى مذهب آخر هو التابع لكنيسة (الانجليكان) ، فعين واعظا
وراعيا لأبرشية (أبلدور) ، بمقاطعة كنت . وكان فى هذا

الوقت قد اكتسب الرعوية البريطانية !!
واقترن بيهودية من المجر .. فلما مات أبوها ، تاركاً لها
ثروة كبيرة ، ترك الزوج الوصولى الكنيسة ودخل ميدان
السياسة ! .. ولم يكن ذلك عسيراً حينذاك على رجل بارع
الحيلة ، له وسائله المالية الخاصة ، وصالاته بالكثيرين من ذوى
الشخصيات « النافعة » .. سيما وقد كان السياسة اللين
أوتوا عقولاً متحررة يميلون الى محاباة رجل له مثل هذه
الارومة !

وهكذا استطاع « لنكولن » قبل عام ١٩١٠ ان يدخل
الانتخابات ، ويصبح عضواً فى البرلمان البريطانى عن دائرة
(دارلنجتون) - وان كان لم يتفوق على منافسه الا بتسعة
وعشرين صوتاً فقط - فلما نشبت الحرب العالمية الأولى عرض
« خدماته » على تشرشل ، وغيره من المسئولين عن ادارة الحرب
.. ولكنهم رفضوا هذه الخدمات ، وان كانوا قد استخدموه فى
مكتب الرقابة وقتاً قصيراً .. وكان فى ذلك الوقت قد ترك
مجلس العموم ، وتورط فى احدى أزماته المالية فى عملية
تزوير شيك ، لكن أصدقائه عاونوه على طوى صفحة هذه
الجريمة !

غير ان الرقابة كانت عملاً « هادئاً » بالنسبة له ، فاتصل
بالاميرالية وعرض عليها مشروعاً غريباً لمخادعة جزء من الأسطول
الألمانى واخراجه الى بحر الشمال للايقاع به ! ولكن البحث فى
هذا المشروع كان سيؤدى الى اطلاع « لنكولن » على مواقع
أسطول الحلفاء ، ولهذا رفضوا اقتراحه .

عندئذ ذهب لنكولن الى دوتردام ، بهولندا - وكانت محابة
- لثبت أنه جدير بالعمل فى مخابرات الحلفاء . وهناك اتصل
بجاسوس المانى ، واستغل هذه الصلة عند عودته الى بريطانيا
زاعماً انه حصل عن طريقها على الشفرة السرية للجاسوسية
الألمانية . وقدم للسلطات الشفرة التى كان فى الواقع قد

اخترعها ! .. ولكن المخابرات البريطانية لم تكن ساذجة كما تصور ، فعمدت قبل الاطمئنان الى صحة السفارة المذكورة الى تجربتها ، بارسال عدة رسائل بواسطتها الى القيادة الالمانية .. واذاك ثبت لهم انها زائفة ! .. فدعاه مدير المخابرات البحرية الى زيارته ، ثم تحدث اليه بطريقة عابرة عن تزويره السفارة .. فذهل لنكولن لكشف حيلته ! .. ثم أشار المدير الى ان جواز سفره سينتهي بعد أيام ، فأدرك انهم يزعمون ابعاده ان لم يسافر من تلقاء نفسه ! .. فركب سفينة ذهبت به الى الولايات المتحدة ، التي كانت يومئذ ما تزال ملتزمة الحياذ وهناك استطاع الرجل بدائه ان يتصل بجواسيس ألمانيا . فزعم لهم انه كان في انجلترا للتجسس عليها ، وانه لا يضم لها الا البغض . وانه اشتغل فيها بالسياسة ليتعرف الى الشخصيات الكبيرة ، ويستمع الى ما تلوكة الألسنة من أحاديث .. وانه اندفع بعد ذلك الى التجسس بكل ما فيه من قوة ! على ان خصومه الانجليز كانوا أخبث منه ، فأثاروا من جديد قضية الشيك الذي كان قد زوره . وطلبوا من الولايات المتحدة ان تسلمه ، باعتباره مجرما عاديا متهما بالتزوير ، فاعتقلوه ! .. على ان رجل البوليس الأمريكي الذي اعتقله لم يكن حذرا ، فقد طلب لنكولن اليه ان يمكنه من دخول مرحاض ، فسمح له بذلك .. لكنه انتهز الفرصة وقفز من النافذة ! .. وقد زعم بعد ذلك انه منذ ذلك اليوم صار يتخفى في زى قس مرة ، وفي زى بحار سكير مرة ثانية ، وفي زى مزارع من المقاطعات الامريكية الغربية الوسطى ، مرة ثالثة .. الخ .. وانه كان يأكل في نفس المطعم الذي كان يرتاده رجال البوليس الأمريكي الذين يبحثون عنه ! .. ولكن أكثر هذه الحوادث كان من نتاج خياله الحبيب .. ويبدو انه غالى في الثقة بمهارته ، فقد اعتقلوه آخر الامر ، و « شحنوه » الى الخارج .. ثم حاكموه في إحدى دول الحلفاء

وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، كمزور وليس كجاسوس !
ومن الأقاويل التي لاكتها ألسن الكثيرين في ذلك الحين
تساؤلهم : لماذا حاكموه كمزور مع ان عقوبة التزوير أخف من
عقوبة التجسس ؟ .. هل لأنه كان له أصدقاء من ذوي المناصب
العالية ؟ أم لأن تهمة التجسس تمس كرامة البرلمان البريطاني
الذي كان عضوا فيه ؟

الخيانة والفدر .. في دمه !

♦ وبعد السجن ، طرد « لنكولن » من بريطانيا ، عام ١٩١٩
.. فخرج كعادته الى ألمانيا وهو يدعى الخصومة لبريطانيا !
وبدأ يدعو الى تحالف ألمانيا وروسيا والصين ، لسحق بريطانيا !
.. وكان أول ما فعله في هذا السبيل أن اتصل بالكولونيل
« باور » الذي كان يضع خطة ثورية لقلب حكومة ألمانيا حينذاك ،
ولكن روح الخيانة والفدر عاودت « لنكولن » ، فحاول أن يبيع
أسرار هذه الخطة للامبراطور غليوم الثاني ، الذي كان منفيًا في
هولندا . ولكن الامبراطور كان أعظم منه دهاءً وأشد مكرًا ،
فأبى الاصغاء اليه ..

ومضى « باور » في مؤامراته ، فحاول قلب الحكومة فعلا ولكنه
فشل . وكانت محاولة رجعية لقلب الحكومة الديمقراطية الشابّة
التي كانت تبدل كل جهد لقيادة سفينة ألمانيا الى مصيرها ،
وسط مسالك خرجة ، بعد أن خرجت مهزومة من الحرب العالمية
الأولى ، وكان عليها ان تبني كل شيء من جديد .

أما لنكولن ففر الى بودابست عاصمة المجر .. ولم يلبث
« باور » أن دبر ثورة أخرى ، وعندما أوشكت مشروعاته ان
تتم ، باع لنكولن أسرار المؤامرة للغرب ، ثم أبحر الى الصين
ليكون بعيدا عن متناول « باور » وانتقامه ! .. ومع انه لم
يكن يعرف شيئا عن الصين ولغتها ، فقد توصل الى ان يتولى
منصب المستشار لاقوى قائد صيني .. وسأهم في خلق

مرحلة جديدة من مراحل الحرب الأهلية التي كانت تحتاج لصين وتشيع فيها التخريب والدمار . ولقى رئيسه نجاحاً في خطته ، حتى غالى في طموحه فهاجم (شينغهاي) ، وبذلك أثار اهتمام الدول الأجنبية التي كانت تملك مؤسسات تجارية كبيرة هناك . فردت عليه رداً قاسياً ، حطم أحلامه كلها . . . واذ ذاك اضطر لنكولن الى التعجيل بالخروج من الصين ! وعرج في رحلته على (كولمبو) عاصمة سيلان ، فأثر في نفسه شيئان : أولهما الديانة البوذية التي اجتذبتة ، أما الأمر الثاني فهو انه عرف بطريق المصادفة انهم حكموا بالاعدام على ابنه الوحيد في انجلترا ، بتهمة القتل !

يشير الرعب . . أينما حل !

♦ وحاول الوصول الى لندن ، ولكن دون جدوى ، فعاودته كراهيته لبريطانيا ، ورجع أدراجه الى الصين ، حيث أصبح راهباً بوذياً باسم « شاو كولينج » ، ولبس زي الكهنة التقليدي . ولكن المخابرات الأوروبية لم يخدعها تصوفه ، فاضطر الى الخروج . وحاول مرة أخرى ان يصل الى انجلترا في رحلة « روحية » ، للدعاية للديانة البوذية ، ولكنهم عرفوا حقيقة شخصيته عندما مرت سفينته بميناء سنغافورة . . . ومع ذلك استطاع ان ينجو بنفسه وان يسافر الى برلين . . . ففزعت السلطات الألمانية من وصول الرجل الذي كان يبذر بذور الفتن والثورات والحروب الأهلية حيثما حل ! . . . فاقناده في هدوء الى حدود بلجيكا . ولكن البلجيكيين رفضوا قبوله ، قائلين انه لا شك سيكون أسعد حالاً لو عاد الى الصين !

واستطاع الرجل ان يعود الى الصين . . . لكنه لم يعد كراهب بوذي ، وانما كرئيس لدير من أديرة هذا الدين ! . . . ومع هذا لم يرضه الهدوء والاستقرار ، فسمحت له السلطات الكندية بأن يسافر الى كندا ليلقى فيها سلسله من المحاضرات .

ومن هناك نجح في الحصول على اذن بدخول انجلترا ، لكنهم عادوا الى طرده من جديد . . فرجع للمرة الاخيرة الى الصين ، لينتظر حتى « تدمر مدينة الغرب المتعفنة مجتمع الصين » . . وعندئذ ينفذ مشروعاته لخلق مجتمع جديد !

لكن الموت لا يبقى على خطط الانسان ولا يذر ! . . ورغم ان قصة « لنكولن » هذا ليست بالشىء الجديد على مؤرخى الحروب ، فانى أستطيع أن أقول مرة أخرى انه أصاب العالم بضرر بالغ . . فقد شجع الثورات فى كل مكان حل به ، فدفع ألوف الأرواح الى الموت !

« هتلر » يخرج من الظلال الى الضوء !

♦ ونعود الى انقلاب « باور » الذى فشل فى ١٩٢٠ . فقد كانت جماعته فى برلين تنتظر قبيل ذلك الفشل وصول بعض الأعداء من (بافاريا) . . فلما فشل الانقلاب أسرع لنكولن الى المطار ليحذر المتآمرين القادمين !

وفى تلك الاثناء وصلت طائرة ، وخرج منها رجل . . لكن لنكولن دفعه الى مكانه من الطائرة مرة أخرى ، وطلب اليه ان يعود الى (بافاريا) ، والا فانه سيعتقل ! . . فامتثل الرجل وعاد ، فنجأ بذلك من السجن . . لكن هذا كلفه انتظار عشر سنوات أخرى ليعد انقلابه . .

وكان هذا الرجل هو « ادولف هتلر » !

ولو افترض المؤرخ ان فيما زعم لنكولن عن مغامراته شيئا من المغالاة ، فان هناك أدلة كثيرة تبين ان حياته كانت فريدة فى تاريخ الدسائس الدولية ! . . ومهما يكن من شىء ، فقد يكون به نصيب من الصحة فى ادعائه بأنه لم يفعل ما يشين وطنيته - بصفته من رعايا المجر ، حليفة ألمانيا - أثناء تجسسه ضد بريطانيا ، عدوة بلاده . . أو فى قوله بأنه ما دام الانجليز « مغفلين » الى حد ممكنه من التغفل فى أوساطهم الحكومية ، فلماذا لا يستفيد من حماقتهم هذه ؟

الفصل الخامس عشر

الجاسوس « الرومانتيكي »
الذى حصل على خطة غزو هتلر لبولندا !

♦ والمغامرات « الرومانتيكية » فى حياة الجاسوس قليلة . ومع ذلك ففى تاريخ الجاسوسية رجل انصرف الى هذا الميدان فدفعه الى الكارثة .. والى الموت !

كان الكاتب « سيرج سوسنوفسكى » ضابطا بولنديا من أسرة عريقة . وكان شابا جميلا حسن الرواء ، له طريقة ساحرة فى الحديث والتصرف ، وشخصية تجتذب النساء ! .. وبحكم حبه للمغامرة ، وطلاقته فى التكلم باللغة الألمانية ، رأى ان يتطوع للقيام بأعمال التجسس .. فلما انتهى تدريبه بعث به البولنديون الى برلين . وكان الستار الذى تستر وراءه عاديا : فقد تخفى فى شكل مندوب تاجر (قومسيونجى) . وقد أدى دوره ببراعة ، فتعرف الى عدد كبير من الناس ، ثم سيطر على بعض الاعوان ونشرهم فى طول ألمانيا وعرضها !

وبعد أن ظهر هتلر فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، أدرك البولنديون ان النازيين سيدعونهم يوما ما للزحف الى جانب ألمانيا ، ضد روسيا ، أو يضطرون الى مقاومة هجوم ألماني عليهم ان رفضوا الانصياع لأوامر النازيين ! .. وقد اختاروا الطريق الذى يسلكونها من أول الأمر ، وهى عدم التعاون مع ألمانيا . وتلقى سوسنوفسكى تعليمات جديدة بهذا الشأن ، وأموالا .. وبقي عليه ان يحصل على خطة الهجوم الألمانية المحتملة على بولندا !

وبدأ مهمته بمطالبة أعوانه بالاصغاء الى حديث المقاهى . وكان هو بدوره يضغى الى ثرثرة الدوائر العليا التى يتردد عليها فى المجتمع . وبدأ يبنى من هذه الاقاويل المتناثرة صوراً للموقف - فان كسر خزائن وزارة الحربية وسرقة الخطط

العسكرية منها لهو شيء لا يحدث الا في القصص الخيالية !
وكانت له سيدة يحبها ، هي البارونة « فون برج » . وكانت
البارونة قد تركت زوجها لكي تهب نفسها للشباب البولندي
الحلو القسما ، ثم انتقلت الى شقيقته واقامت معه . وصارت
تعاونيه كثيرا في أعماله التجارية ، اذ كانت خبيرة بالناس .
ولكنها لم ترتب يوما في مهنته الحقيقية ، ولم يكن هو ينوى
ان يكشفها بحقيقة أمره !

على ان الحب يحول الرجال الى طريق الاهمال واجتناب سبيل
الحيطة ! كان « سوسنوفسكى » قد عاش سنوات بين الالمان
دون ان يزل لسانه أو يخطئ أدنى خطأ . ولكنه عاد ذات ليلة
مع البارونة من حفلة باهرة للطبقة الراقية ، وكان في روح
طيبة عالية ، بعد ان سمع حديثا هاما عن طائرات القتال الالمانية
الجديدة من طراز « مسرشميدت » . وكان لا بد له من ذاكرة
قوية لتدوين ما سمع ، فانه لم يكن طيارا ، فكتب معلوماته على
ورقة دسها في جيبه . . ثم لبى نداء البارونة التي كانت في
حالة نشوة وشوق شديد الى مبادلتها الحب . وعلى اثر ذلك أخذ
الى نوم عميق لم توقظه منه صاحبتة في صباح اليوم التالي ،
اذ انشغلت باعادة سترته الخاصة بالسهرة الى صوان الملابس .
وعندئذ عثرت بتلك الورقة في جيبه فأدركت انه جاسوس !
وعندما استيقظ في الصباح وروت له القصة ، قال همسا :



« وماذا أنت فاعلة الآن ؟ » .. ولكن ، ماذا كانت لتفعل بالرجل الذى تحب ؟ .. ان من السهل على امرأة مثلها ان تجد له عذرا فى تلك الظروف . وقالت لنفسها تبرر عمله : انه يعمل ضد النازية وليس ضد ألمانيا على أى حال ! .. ثم استدارت اليه : « ولكن هذا شئ خطر للغاية . تصور ما كان يحدث لو كانت الخادمة قد عثرت بهذه الورقة ؟ ! »

- انى أعرف .. كان تصرفى جنونيا يدل على الحمق ! لكنى كنت على وشك اخفاء الورقة فى الليلة الماضية عندما حانت منى نظرة الى وجهك ، أنستنى ذلك .. بسبب حبك ! .. ولكن » .. وضمها بين ذراعيه ، فقالت هامسة : « الى متى تستمر هذه الحال ؟ »

- الى ان أتم مهمتى ، فأحصل على خطة الألمان لمهاجمة بولندا .
 .. يجب ان أحصل على التفاصيل !
 - وهل تستطيع بعد ذلك ان تعود الى بولندا ؟
 - نعم
 - اذن سعادونك !

الفراشة الجميلة التى سقطت فى الفخ !

♦ وبهذا بدأت قضية من أعجب القضايا الخاصة بالتجسس فى التاريخ ! .. قضية تتابعت فيها لحظات من الدراما .. والدسائس .. والمأساة ! .. فقد وضعت البازونة « فون برج » الخطط لانقاذ الشاب الذى تحب من الخطر المحدق به . وأدركت انه كلما أسرع فى انجاز مهمته استطاع ان يعجل بالعودة الى بولندا ، وإلى الأمان .. فصارت تصطحبه الى الحفلات التى تضم قوما يستطيع ان يستفيد من حديثه معهم ، فيضيف الى الصورة التى كونها معالم جديدة كل يوم ! .. كانت عشيقته تحتفى وجاء يوم من أيام سنة ١٩٣٤ .. كانت عشيقته تحتفى فيه بأبنة عم لها هى الآنسة « فون ناتسنر » ، التى كانت تعمل كاتبة سرية فى وزارة الحربية الألمانية . وكان من العصور

ألمانيا ان لا تعين في هذا المنصب الا من تثق بها من بنات الضباط المتقاعدين . وكان والد هذه الفتاة ضابطا برتبة كولونيل ، ولكن التضخم المالى الذى حدث فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى كان قد أصابه بخراب شامل ، فاضطرت ابنته الى العمل . ولكنها ما كادت تلاحظ جمال ثوب ابنة عمها البارونة حتى لسعنتها عقرب الغيرة ، والرغبة فى الشراء . . . فلمح « سوسنوفسكى » فى عينيهما بريق هاتين العاطفتين !

واستطاع ان يعالج الخطوات التالية بمهارة ، بمعاونة البارونة ، فاقترح على الفتاة ان يمدّها بالمال الذى تريد ، على ان تمده بين الحين والآخر بمعلومات عن العقود التى يعقدها الجيش مع التجار مثلاً ، بدعوى ان هذه المعلومات تفيده كثيرا فى عمله التجارى ! . . . ولم يكن فى الخطوات الأولى ما يريب . وصار صاحبنا يدفع للفتاة أجورا عالية ، حتى أصبحت تحت رحمته والعبوة فى يده ، بحيث بات فى استطاعته ان يحصل منها على ما يريد ، وهى التى لم تألف من قبل سعة العيش فأدار رأسها ان يكون فى يدها مال كثير ! . . . واستأجرت مسكنا خاصا بها ، واشترت الثياب التى طالما اشتتهت اقتناءها !

وكانت الآنسة فون ناتسنر تعمل فى الادارة المالية الخاصة بالتموين والمخازن ، وتكتب على الآلة قوائم عن التموين . وكان فى استطاعة أى ضابط أركان حرب يعمل فى المخابرات ان يحصل من هذه القوائم على الخطوط الرئيسية فى أى خطة حربية أو مشروع هام . ورغم انه لم يكن فى الامكان سرقة نسخة من هذه القوائم ، لانهم كانوا يرقمون كل ورقة بعناية ، فان الشريكين اكتشفا وسيلة أخرى تدل على مهارة ، هى سرقة ورقة كربون من الاوراق التى توضع بين نسخ ما يكتب على الآلة ، وبذلك يمكن لأى انسان ذكى ان يقرأ فيها ما كتب ! استمر « سوسنوفسكى » فى دفع مبالغ كبيرة للفتاة ، التى قد بدأت تحصل له على مادة من الطراز الاول - حتى

لقد أكد للبارونة ان مهمته ستنتهى فى خلال أشهر قلائل !

يد القدر تنسج خيوط الافتضاح !

♦ ومرت بالشركاء الثلاثة لحظة كانت تدعو الى القلق ! كانت أم الفتاة تعيش فى (بافاريا) ، فزارتها فجأة على غير انتظار . واذ ذاك ذهلت لكثرة ثيابها وأناقة أاثاتها . . . فزعمت لها الفتاة ان « جنرالاً » من أصدقاء والدها (ذكرت اسمه) كلفها بعمل يأتيها بأجر كبير . ولكن هذا الحادث العرضى كان كفيلاً بهدم كل ما بناه سوسنوفسكى ! . . . فقد قابلت الأم بعد ذلك بعدة أشهر هذا الجنرال فشكرته لانه أسدى هذا الصنيع الى ابنتها ، وعندئذ أدرك الرجل ان وراء الأمر شيئاً ، لكنه لزم الصمت ، فقد كان رجلاً صارماً فى عمله . ولم يكن الى ذلك الوقت مرتاباً فى نشاط الفتاة ، بل ظن انها لا بد قد أصبحت خلية رجل ثرى ! . . . على ان الاضطراب انتاب عقله منذ تلك الساعة ، فبعث بأحد ياورانه لمراقبتها والتحرى عنها . . . فلم يعثر لها على أى عشيقة ثرى . . . وازاء هذا تولت ادارة مقاومة الجاسوسية الأمر . . . فلم تلبث الفتاة ان ضبظت والكربون فى جيبها ! وأملا منها فى ان تنقذ حياتها من الاعداء ، أفشت سر الكابتن سوسنوفسكى والبارونة فون برج . وكان الأمر خطيراً الى حد ان « هيدريتش » - أحد كبار زعماء النازية ورئيس الجستابو حينذاك - اعتقلهما بنفسه ! وحكم على البارونة وابنة عمها بالاعدام ! . . . وتحرك قلب زوج البارونة - البارون - فى اللحظة الأخيرة ، فأراد تطبيق زوجته لتتزوج من « سوسنوفسكى » وتصبح رعية بولندية ، فتنجو بذلك من الاعداء ! ولكن خطته منيت بالفشل . . . وقد وصف شاهد عيان مأساة الاعداء - الذى نفذ فى فناء أحد سجون برلين ، وكان شبيهاً بما كان يحدث فى العصور الوسطى - فقال :

« كان الجلاد يلبس ثوب السهرة ، وكان الجزء الأسفل من وجهه مغطى بقناع أسود . وخانت الأنسة « فون ناتسبر » أعصابها في اللحظة الأخيرة ، فحملها ثلاثة رجال . وجعلت تقاوم وتصرخ وهم يدفعونها الى كتلة الخشب أمام الجلاد . ثم أمسكوا بجسمها بقوة الى ان أهوى الجلاد على رأسها بفأسه . ولكن الضربة الأولى لم تنجح ، فاضطر الى معاودة الكرة حتى فصل الرأس عن الجسد ! .. أما البارونة « فون برج » فانها تقدمت الى مصيرها المحتوم في هدوء . وكانت تحسب ان حبسها الضابط البولندي على وشك ان يلقي نفس مصيرها ، فكانت تحدث نفسها في زنازنتها عن لقاءهما السعيد بعد الموت ! وقد تبدو لحظاتها الأخيرة أشبه بفصل من مسرحية ، ولكنها كانت مخلصه الى حد أن بعض الموظفين من ذوى القلوب المتحجرة باثروا لحالتها . فقد ركعت أمام كتلة الخشب ، ووضعت صورة لسوسنوفسكى على الأرض - كى تنظر اليها الى ان تموت - ثم أسندت رأسها بلطف على الخشب وأزاحت الشعر عن مؤخر عنقها . وتردد الجلاد لحظة - وقد رأيت العرق يتصبب من وجهه ! - وكان هذا بعد الفجر بقليل ، في صباح يوم بارد من أيام شهر فبراير . واذ ذاك أمره ضابط بأن يضرب .. فاستجمع ما بقى له من شجاعة وأعصاب ، وهبطت الفأس .. فتدحرج الرأس الجميل على الأرض .. الى جوار صورة الرجل الذى أحبته صاحبتة ! .. واضطروا الى اقتياد الجلاد بعيدا ، فقد رأيته يترنج عبر فناء السجن . وسمعت انه استقال من منصبه بعد ذلك . وليست ألومه !

مصير « سوسنوفسكى »

♦ وظهرت في برلين لافتات عن اعدام اثنتين من الحائلات للرايخ . ولكن ، ماذا حدث لسوسنوفسكى ؟ حكم عليه بالاعدام مثلها ، ولكن يد القدر تدخلت في الأمر .

فان البولنديين كانوا قد اعتقلوا جاسوسة ألمانية ذات شأن كانت تسمى نفسها « مدام اوتسوريل » . وقد نفوا - كما جرت العادة - ان « سوسنوفسكى » كان يتجسس لحسابهم . ونفى الالمان ان « مدام اوتسوريل » كانت جاسوسة من طرفهم . ثم اتفقوا على تبادل السجينين !

وقد كانت لهذه القضية نتائج هامة : فقد عاد « سوسنوفسكى » الى بولندا رجلا محطما . ولكن السلطات البولندية بدأت ترتاب في أمره ، وتخشى ان يكون قد تحول الى جاسوس لألمانيا ، بسبب النداءات الحارة التى كان يوجهها الى هذه الدولة كى تغفو عن عشيقته (قبل اعدامها) . لذلك خشى المسئولون ان يكون قد وعد بالعمل لصالح ألمانيا اذا أطلقوا سراحها ! وعلى أى حال فانه اعتقل ، وقدم لمحكمة عسكرية بولندية . وأعلنت الحكومة الشيوعية فى بولندا انه اعدم رميا بالرصاص قبل ان تبدأ الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ بأيام قلائل ! . ولكن ضابطا يعرفه جيدا أكد لى ان سوسنوفسكى فر هاربا . . . وانه يعمل الآن مع الروس !

ولا بد لأقلام المخابرات ان تنتظر معلومات أخرى قبل ان تعرف مصيره . فكلا القصتين ليس مستحيلا . والواقع ان الآلام النفسية التى انتابته كانت شديدة الى حد آذى عقله ولم يكد يتركه سليما !

الفصل السادس عشر

الجواسيس النازيون

♦ كانت الظاهرة الملموسة عند الجواسيس الالمان - فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية - هى انهم عرفوا بالكثرة فى العدد ، دون الجودة فى العمل ! . ومع ذلك فقيد شهدت هذه الفترة تغيرا هاما واحدا فى أسس الجاسوسية .

وتفصيل الأمر ان نظام التجسس الألماني انهيار مع هزيمة ألمانيا في سنة ١٩١٨ ، ولكن عددا قليلا من الجواسيس - الذين كانوا قد اندسوا في بلاد أجنبية قبل الحرب بزمن طويل ، واستقروا فيها دون ان تحوم حولهم أية شكوك - ظلوا متشبثين بعملهم ، مؤمنين بأن الجمهورية الألمانية التي قامت في أعقاب تلك الحرب لن يقدر لها أن تدوم طويلا ، لأنها مناقضة لجميع المبادئ القومية التي يؤمن بها الألمان ، ومن ثم فلا بد من ان تولد حكومة قومية تعيد لألمانيا مجدها ، فيسترد الجواسيس ما كان لهم في الماضي من أهمية ..

والواقع انهم كانوا على صواب في رأيهم ، اذ ما لبث هتلر ان تولى الحكم ، فكان أول ما فعله ان بعث نظام الجاسوسية الألماني من جديد ، ووسع نطاقه الى حد لم يسبقه مثيل ، ورصد له الاعتمادات المالية الطائلة ، فلم يجبر على ما كان متبعيا - من قبل - من شح في مكافأة الجواسيس !

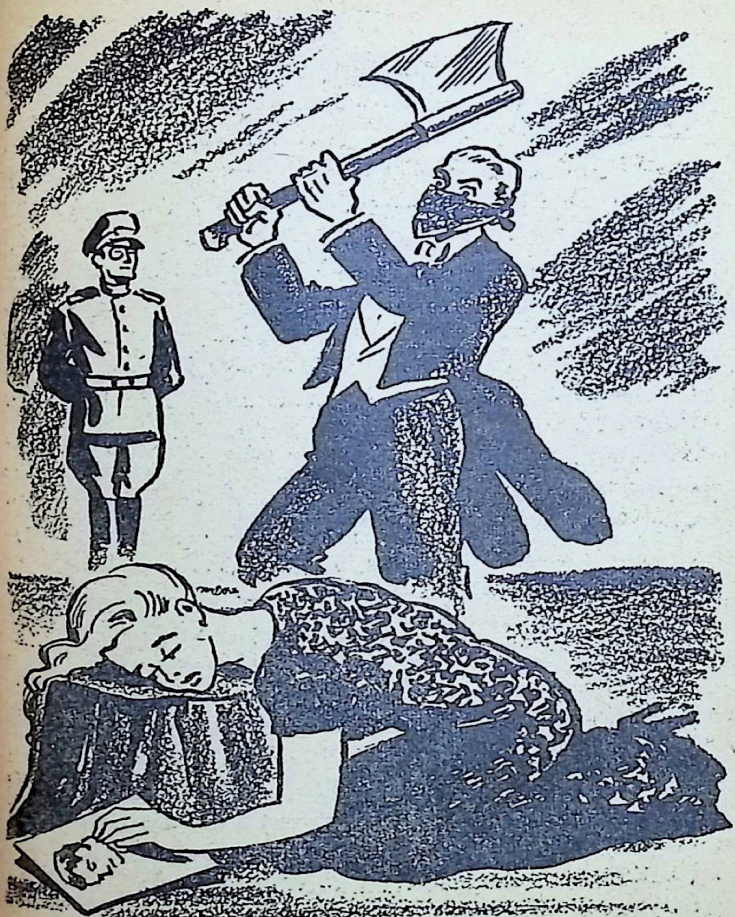
ولم تثر قضايا الجاسوسية الألمانية في بريطانيا اهتماما كبيرا في الفترة بين الحربين الأولى والثانية ، ولكن قضية معينة منها استطاعت ان تثير ضجة هائلة ، وقد أطلقت الصحف على بطلها لقب « الضابط السجين في البرج » ..

وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٣ ، وقد تقرر ان يقدم الملازم « نورمان بيلي - ستيوارت » الى المحكمة العسكرية .. فانه رغم انحداره من أسرة ذات أجداد عسكرية عريقة ، ورغم انتمائه الى فرقة « سيفورث هايلاندرز » ، كان سىء السلوك والسيرة ، لم يستوعب ما تقتضيه الحياة في وحدات الجيش من اخاء عسكري ، فكان يحقق على من هم أرقى منه مرتبة ، ولا يكف عن التذمر ، حتى لقد قال أحد زملائه في وصفه : « لقد بلغ به الغيظ من حظه ان أعلن وحده حربا ضد الامبراطورية البريطانية كلها ! »

ففي صيف سنة ١٩٣٢ ، دهش أصدقاء « بيلي - ستيوارت »

حين علموا انه قضى اجازته في ألمانيا ، اذ كانوا يعرفون انه يشكو العوز دائما . ثم اشتدت دهشتهم حين عرفوا انه رحل في أغسطس - من العام ذاته - الى هولندا ، ليقضى احدى عطلاته الأسبوعية . . . وكرر هذه الزيارة مرة أخرى في شهر اكتوبر . وكان من شأن هذا الشراء ان يسترعى الانظار ، ومن ثم فرضت رقابة على الخطابات التي كانت تصل اليه . وما لبث ان جاء يوما خطاب احتوى على خمسين جنيهها ارفقت برسالة من سيده وقعت باسم « ماري لويز » ، تشكره على ان أقرضها هذا المبلغ من قبل . وأسلمته السلطات الرسالة وقد ازدادت شكوكها فيه ، اذ لم يعرف عنه يوما انه امتلك خمسين جنيهها تزيد عن حاجته ، بحيث يستطيع ان يقدمها قرضا لأحد ! . . ولهذا زيدت الرقابة عليه ، فظهر انه تلقى بعد ذلك رسائل مماثلة ، كلها من « ماري لويز » ، التي كانت تكتب اسمها بأشكال شتى : فهي تضيف اليه بعض حروف تارة ، أو تلتقص من حروفه تارة أخرى ، شأن الكاتبة غير المثبتة من هجاء اسمها . . أما الضابط ، فكان يوقع ردوده باسم « ألفونس بواريه » ! وعندما سئل « بيلي - ستيوارت » عن الرسائل والمبالغ التي كان يتلقاها ، أجاب في براعة وذكاء ، غير حافل بما في رده من مفاجاة للكرامة العسكرية . . فقد زعم ان المبالغ كانت ثمنا لخدمات جنسية كان يؤديها للمرأة ! . . وشد ما ذهل « الكولونيل » الذي كان يستجوبه حين أضاف الضابط قائلا انه لم يكن يصطحب المرأة الى فندق ما ، وانما كان يؤدي لها « الخدمات الجنسية » في حديقة عامة لم يذكر موقعها ، وان تذكر انها كانت تضم بين جنباتها بحيرة !

ولكن الوقائع أظهرت ان « بيلي - ستيوارت » سرق اسرار عن الدبابات والبنادق الاوتوماتيكية ، وانه باعها للألمان ، فلقى عليه بالسجن خمس سنوات . . لا لأن الاسرار التي باعها كانت خطيرة أو هامة ، ولكن لأنه عمل كجاسوس لدولة



••• وركعت البارونة ، ثم أسندت رأسها على كتلة الخشب ، ووضعت
صورة حبيبها على الأرض ، كي تنظر اليها إلى أن تموت (ص ١٢٦)

أجنبية ! ٠٠ ومع ان الحظ حالفه ، فأخلى سراحه في سنة ١٩٣٦ بعد أن قضى ثلثى المدة ، الا أنه خرج من السجن مصرا على انه كان بريئا ، وذهب في ادعائه الى درجة أوجت الى البعض بأنه كان ضحية مؤامرة أو دسيسة ! ٠٠ وقد استشارتني سييدة - اذذاك - في أن تبرع له بمبلغ من المال يبدأ به حياته من جديد ، ولكنني نصحتها بأن تتريث ٠٠ وما هي الا أسابيع قلائل ، حتى فوجيء كل من عطفوا عليه باعتراف كامل نشره باسمه في إحدى الصحف الشعبية ، مسجلا على نفسه انه كان يقدم الخدمات للألمان !

وفي سنة ١٩٤٥ ، وقع « بيلي - ستيوارت » في أيدي الحلفاء ، وقدم للمحاكمة ، فاقترح القاضي اعادته الى ألمانيا . ولكن الحكومة العسكرية التي أقامها الحلفاء هناك رفضت ان تسمح له بالعودة ، ومن ثم حوكم من جديد في إنجلترا ، حيث قضى عليه بالسجن خمس سنوات ، لحرقه قوانين الدفاع !

ولا تكمن قيمة هذه القضية في تفصيلاتها ووقائعها ، وانما تكمن أهميتها في ان « بيلي - ستيوارت » بدأ يتجسس لألمانيا في سنة ١٩٣٢ ، وقبل ان يتولى « هتلر » الحكم بعدة شهور ٠٠ وفي هذا ما ينقض ما اعتاد الناس ان يلقوه على هتلر من لوم ! ٠٠ كذلك نخرج من هذه القضية بدرس آخر ، هو انه من العسير على الجاسوس الهاوي غير المدرب ، ان يقاوم الهيئات الفنية التي تحارب الجاسوسية

خطة بارعة ٠٠ لأستاذ الجاسوسية الألمانية الحديثة !

• ولقد كان الكولونيل « كارل بوخس » هو الرأس المدبر لخطط الجاسوسية الألمانية في أوروبا الشرقية قبل سنة ١٩٣٩ ٠٠ وكان داهية ، لا ضمير له ، كأي « أستاذ » للجاسوسية . وعلى خلاف أبناء عصره ، كان « بوخس » يتعلم من أخطائه ، ولا يحز في نفسه شيء قدر ذلك الفشل الذي منيت به المخابرات

السرية الألمانية في إنجلترا ، في سنة ١٩١٤ ، أى عندما قضت السلطات البريطانية على شبكة الجاسوسية الألمانية في بلادها ، في مطلع الحرب . ولتدارك هذا الفشل ، رأى « بوخس » انه قد يكون من الأجدى ان ينشئ شبكتين للجاسوسية في الخارج ، بدلا من شبكة واحدة . وكانت الفكرة تنطوى على دهاء عظيم . . . اذ تنصرف احدى الشبكتين الى العمل ، بينما تجتذب الشبكة الأخرى انتباه المخابرات السرية في البلد الأجنبى ، وتذهب في ذلك الى حد ان يضحي أفرادها بأنفسهم كى يشغلوا السلطات عن الشبكة العاملة !

ووفقا لهذه الخطة البارة ، تدفق الجواسيس الألمان والنمسيويون - رجالا ونساء - على بريطانيا ، في شكل خدم . . . وكان اختيارا موفقا ، لأن بريطانيا كانت اذ ذاك تعاني أزمة في الخدم . وحصلت بعض الألمان على الجنسية الانجليزية بالزواج ، لا سيما وانهن وزملاءهن كانوا يزعمون أنهم لاجئون من الاضطهاد الهتلري . كذلك توافدت على إنجلترا أفواج الشبان الألمان ، باسم السياحة ، في وقت كانت ألمانيا تشكو فيه نقص مواردها من العملات الأجنبية . . . وكان هذا هو ما استرعى انتباه رجال المخابرات البريطانية . . . وقد عثرنا في سنة ١٩٤٥ - عند انهزام ألمانيا - على خطط كان الألمان قد وضعوها لغزو إنجلترا ، اعتمادا على البيانات « الطبوغرافية » التى جمعها « السياح » عن جنوب إنجلترا . . . وتبين ان الحصول على الخرائط من ادارة الصيانة بوزارة الخارجية البريطانية كان ميسورا ، كما ان كتب السياحة كانت حافلة بها ! . . . ومن ثم فان الحاجة لم تكن تدعو الى ايفاد كل هذه الافواج من « السياح » ، كما ان « تغطية » عمليات كل هذا العدد من الجواسيس كانت شبه مستحيلة . . . وكانت هذه هى أهم مواطن الضعف في خطط « بوخس » . والواقع ان ألمانيا النازية كانت مدينة بالقسط الأوفر من معلوماتها عن إنجلترا ، لنفر قليلين من الألمان الذين أقاموا في إنجلترا منذ

زمن طويل . . وحتى هؤلاء كانت امكانياتهم محدودة ، وفرصهم ضيقة !

وكانت هذه هي الخطوة الأولى في خطط النازيين . . وقد لجأوا في هذه الخطوة الى بعض أساليب الجاسوسية الصريحة ، واستخدموا في ذلك عددا من الألمان ، كان بينهم جنديان يعملان داخل « خط ماجينو » ذاته . على ان المؤامرة النازية لم تنكشف الا بعد نشوب الحرب ، وكان من نتائج انكشافها ان أعدم الفرنسيون الدكتور « كورت روس » - وكان من الزعماء المطالبين بالاستقلال الذاتي - لأنه أفشى أسراراً عسكرية للعدو . وقد عمد الألمان - حين احتلوا الاقليم بعد عام - الى تمجيد « روس » ورفعته الى مصاف الأبطال ، ليستميلوا قلوب مواطنيه . ولكن الألمان لم يتذوقوا السعادة المرجوة في عهد الاحتلال النازي ، وبدأ دعاة الاستقلال الذاتي يشعرون بالقلق ، اذ لم تبد بادرة واحدة تبشر بالحكم الذاتي الموعد . . بل ان القرائن كانت توحي بأن الألمان استخدموهم كمجرد أدوات لتحقيق أهدافهم العسكرية . وقد ازدادت هذه الحقيقة وضوحاً مع تقدم الحرب

ولا شك في ان الذين تجسسوا لحساب ألمانيا ، فأظهروا لها ان استحکامات « خط ماجينو » كانت أضعف في القسم الشمالي منها في القسم الممتد في الألزاس واللورين ، قد ساهموا بنصيب كبير في الانتصارات التي أحرزها النازيون في بداية الحرب ، وفي تمكينهم من احتلال فرنسا

الفصل السابع عشر

الحظ يناصب جواسيس هتلر العداء !

♦ يعتبر جواسيس هتلر في المرتبة الثانية ، اذا هم قورنوا بالجواسيس الألمان في الحرب العالمية الأولى ، رغم انهم أفادوا

من تقدم العلم ، فكان لهم فى أجهزة الارسلال اللاسلكى خير عون كان يفتقده الجواسيس السابقون ٠٠ ولقد وقع جواسيس هتلر فيما وقع فيه جواسيس غليوم ، اذ مكن نشاطهم ونظامهم رجال المخابرات السرية البريطانية من أن يكتشفوا أمرهم ، وان يمسكوا عن اعتقالهم ويتركوهم يعملون دون أن يفتنوا الى أنهم كانوا مراقبين ، وبذلك كانوا يكشفون عن المزيد من عملياتهم وعملائهم وعمالهم ٠٠ وما ان نشبت الحرب العالمية الثانية - فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ - حتى بادرت السلطات البريطانية الى شن غارات بوليسية واسعة على أوكار هؤلاء الجواسيس ، واعتقلت منهم كثيرين ٠٠ ومع ذلك فان الأحداث دلت على ان هذه السلطات كانت متساهلة ، وانها لم تأخذ فى معالجة الجاسوسية الهتلرية بما كان ينبغى من حزم ، الا بعد انسحاب القوات البريطانية من (دنكرك) ٠٠ ولعل السر فى ذلك يرجع الى أن ادارة المخابرات البريطانية و « القلم الخاص » باسكتلند يارد ، شغلا خلال الشهور الثمانية - التى انقضت بين بدء الحرب وغزو فرنسا وبلجيكا - بالشكاوى التى انهالت عليهم ، عن أولئك الذين كانوا يضيئون الانوار أثناء الغارات، أو الذين كانوا يخفون أجهزة ارسال لاسلكية ٠٠ وكان الاضطراب العصبى يسود البلاد ، فيوحى بالشبهات لاثقه بادرة من البوادر !

والواقع الذى نستخلصه من سجلات الجواسيس الالمان الذين برزوا فى الحرب العالمية الثانية ، انهم كانوا ضعاف المستوى ، وكان تدريبهم سيئا ، مما أدى الى وقوعهم فى أخطاء ربما بدت تافهة ولكنها كانت كافية لائن تكشف حقيقتهم وكان أول بريطانى شنىق فى انجلترا لتجسس - فى الحرب العالمية الثانية - مجرد محتال أراد الحصول على المال بأيسر الطرق ٠٠ وكانت القصص التى سمعها قد أوهمته بأن الجواسيس يكسبون أموالا طائلة . لذلك أقدم عندما عرجت

سفينته يوما على (لشبونة) - وكان مهندسا بحريا - على الاتصال بالالمان هناك ، عارضا خدماته . . ولكنه قوبل بالرفض ، اذ ارتابوا في انه ربما كان جاسوسا انجليزيا يحاول التسلل الى صفوفهم . . ولكن القنصلية الالمانية في نيويورك أتاحت له الفرصة . . فرصة السير الى حتفه بقدميه ، لأنه لم يفتن الى أن المخابرات البريطانية كانت تبذل نشاطا جبارا في البلاد المحايدة ، ومن ثم بدأت تتعقبه من (لشبونة) ! والظاهر ان الحظ نفسه كان يناصر جواسيس هتلر العداء ، فكان هذا العداء ينتهى بهم - سواء كانوا من الالمان أو من الحونة - الى الاعدام . وسواء كان الاعدام شنقا أو رميا بالرصاص ، فان النتيجة واحدة ! . . وتحضرني هنا قصة حادث وقع في أغسطس سنة ١٩٤١ ، وكان الالمان قد قلبوا خططهم الجاسوسية رأسا على عقب ، بعد الفشل الذي أصيبوا به . . فقد عدلوا عن استخدام الالمانيين في البلاد الأجنبية ، اذ انهم رغم حذقهم للغات ، كانوا يفقدون اجادة النطق الصحيح . ومن ثم أخذت الجاسوسية الالمانية تستعين بهولنديين وبلجيكيين يتسللون الى اراضى الحلفاء على انهم لاجئين آثروا ان يهجروا بلادهم بعد الاحتلال النازى ! . . وكانت نقطة الضعف في هذه الطريقة ، ان بعض هؤلاء الجواسيس كانوا من المجرمين المسجونين ، وقد مناهم الالمان بالخلاص من تبعات جرائمهم اذا عملوا في الجاسوسية ، لذلك كان همهم الاول هو الخروج من السجون . . ولقد كان نصيب انجلترا من هذا الصنف من الجواسيس كبيرا ، ولكن الواحد منهم كان يبادر الى الاعتراف بكل شيء بمجرد وقوعه في أيدي السلطات . . وعندما تكشفتم هذه الحقيقة ، استعانت المخابرات السرية بضباط هولنديين وبلجيكيين من رجال قوات الحكومات الحرة ، ليتولوا تحرى حقيقة أمثال هؤلاء الجواسيس ، والتحقيق مع من يقع في أيدي السلطات منهم !

الفصل الثامن عشر

سر الجاسوسة الغامضة !

♦ هذه قصة خليقة بأن تثير اهتمام علماء النفس أكثر مما تثير اهتمام الذين يدرسون تاريخ الجاسوسية ، إذ أن الطبيب النفسى يعرف ما فى الحديث من أكاذيب متعمدة ، أو ثرثرة متهوسة . فقد كانت مسز « دوروثى بامبلا أوجرادى » - من سكان (سانداون) بجزيرة (وايت) - المرأة الوحيدة فى بريطانيا التى حكم عليها بالاعدام أثناء الحرب ، بسبب التجسس . . ولم تكن من الحسان ، بل انها كانت فى أواسط العمر ، تضع نظارة على عينيها ، وقد أوتيت قامة قصيرة مكبنتزة ! . . وكانت زوجة رجل وقور ، كان من رجال المطافئ يوما ثم تقاعد . ولقد عرفت هذه المرأة بين جيرانها بقله أصدقائها ، وميلها الى العزلة ، وشغفها بالتريض سيرا على قدميها . . وكانت هذه الرياضة تقودها الى السير على مقربة من المنشآت العسكرية ، إذ كانت جزيرة (وايت) من أهم مراكز الدفاع الجوى عن (بورتسموث)

ولم تظن مسز « أوجرادى » الى أن هناك عيوننا لاحظت انها كانت تسجل ملاحظات ، وترسم مواقع أثناء سيرها . . فان السلطات فطنت الى أن نزهاتها لم تكن بريئة ، فبدأت تراقبها لتعرف الذين كانت تتصل بهم المرأة وتسلمهم ملاحظاتها ورسومها . . ولكنها لم تلبث ان أضافت الى نشاطها محاولة قطع الأسلاك التليفونية التى تربط الجزيرة بانجلترا ، واذ ذاك اضطرت السلطات الى التدخل فى حركاتها . . ولكن المحققين كانوا تواقين الى أن يعرفوا شركاءها ، فلم يوجهوا اليها تهمة التجسس ، وانمسا اكتفوا بأن اتهموها بمخالفة القانون والاقتراب من منطقة محرمة . . ثم أخلوا سبيلها بكفالة . . واذا

بها تختفى . . ولكن السلطات استطاعت أن تعثر عليها في (يارموث) ، فقدمت الى المحاكمة - في جلسة سرية - بتهمة الخيانة . . وظهر من تفتيش دارها انها كانت تحتفظ بمذكرات عن تدابير الدفاع في الجزيرة . وازاء الادلة الدامغة التي كشفت عنها المحاكمة ، قضى عليها بالاعدام

على ان الخبراء في مطاردة الجواسيس لم يرتاحوا الى هذه النهاية ، اذ كانوا يدركون ان لابد من وجود صلة بين المرأة وبين جاسوس الماني تنقل اليه معلوماتها ، فكانوا شديدي الرغبة في معرفة هذا الجاسوس ، بينما كانت المرأة شديدة التشبث بالانكار . لذلك سر الخبراء عندما استأنفت مسز أوجرادى الحكم . . ولكن هذا الاستئناف لم يقرب الخبراء من غايتهم ، اذ حكم القضاء بالغاء الاعدام ، وابداله بالسجن ١٤ عاما . وظل الهدف الذى كان يسعى اليه الخبراء محوطا بالغموض ، الى أن قدر لمسز أوجرادى ان تسترد حريتها في فبراير سنة ١٩٥٠ ، بعد ان قضت ثلثي المدة في السجن

وكانت تدخر مفاجأة للمسؤولين أذهلتهم . . فقد اعترفت بانها كانت مريضة بحب الظهور ، وكانت تعاني - منذ صغرها - من عدم اهتمام الناس بها ، مما خلق لها عقدة نفسية . . فكانت في صبابها تستشير مدرساتها ومعارفها بقصص غريبة ، ذهبت في بعضها الى أنها قتلت أمها . . ولكنها كانت كلها قصصا مختلفة ! . . وعندما بدأت الحرب ، استدعى زوجها للخدمة في المطافئ ، فتركها وحيدة مع كلبها الحبيب . . وكان هذا الكلب هو سر البلية ، اذ ان المرأة كانت قد عودته على أن يستحم في البحر يوميا ، فلما أقيمت استحكامات الدفاع على سواحل الجزيرة ، عز على مسز أوجرادى ان يجرم كلبها من حمامه اليومي ، وكانت تضطر في سبيل ذلك الى أن تسير مسافات طويلة كي تصل الى بقعة منعزلة وراء الاستحكامات . . وصادف ذات يوم ان جلست داخل نطاق

الأسلاك الشائكة ، وانصرفت الى القراءة فى كتاب ، بينما كان الكلب يستحم ، فاذا بجندين يسعيان اليها ويسألانها عما كانت تفعل . . . وكان من الممكن ان ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لولا أن لاحظ أحد الجندين علامة الصليب المعقوف مشتبكة بشعرها . فقد كان من المألوف أثناء الحرب ، ان يتتبع الناس سير المعارك على الخرائط مستخدمين دبائيس تحمل أعلام الدول لتعيين مواقع الجيوش . وقد حدث ان اشتبك علم ألمانيا -وعليه الصليب المعقوف - بشعر المرأة دون أن تفتن اليه



ورأى الجنديان فى علامة الصليب المعقوف دليلا دامغا ، فقادوها الى قائدهما الذى أبلغ أمرها الى البوليس . . . وأدركت أثناء التحقيق انهم ارتابوا فى انها جاسوسة ، فبدأت غريزة « حب الظهور » توحى اليها بأن تزيد من تخبطهم ، وراحت تدافع عن هتلر وسياسته ، والمحقق يسجل أقوالها ! . . . على ان البوليس لم يلبث ان أطلق سراحها . . . وفطنت الى انها كانت تحت المراقبة - وان ظن مراقبوها انها كانت غافلة - فسولت لها عقدتها النفسية ان تواصل اثارة اهتمام السلطات بشأنها ، ومن ثم أخذت تحوم حول الاستحكامات وتدون ملاحظاتها ، وترسم معالمها . . . وكانت بعض الرسوم دقيقة ، وقد سجلت عليها عدد الجنود المرابطين فى المواقع !
وانتهت محاولات السيدة الى ما كانت ترجوه من اثارة

اهتمام السلطات بها .. ولكن تهوسها دفعها الى المغالة ، فلما أدركت أن رجال المخابرات كانوا يسعون لمعرفة أى شخص يحتمل ان يكون على اتصال بها لنقل المعلومات الى الأعداء ، نسجت قصة غريبة ، اذ زعمت أن غواصة ألمانية كانت تسعى لتقترب من الشاطئ ، ثم توفد رسولا فى قارب من المطاط يتلقى تقارير السيدة .. على انها عندما فطنت الى أن الأدلة التى اصطنعتها انقلبت الى قرائن جدية ، جزعت .. ثم زين لها تهوسها انها ستخلد فى التاريخ ، كما خلدت « ماتا هارى » وبطلات القصص .. لذلك رفضت استئناف قضيتها عندما حكم عليها بالاعدام ، ولكن محاميها لم يلبث ان أقنعها وقالت المرأة انها استاءت عندما استبدل السجن بالاعدام ! .. على انها لم تكذ تقضى فى السجن أشهرا حتى أفاقت الى ما ألقاها فيه تهوسها ، فأرسلت الى زوجها شرحا وافيا للقصة .. وبعثت بشرح مشابه الى وزارة الداخلية ، ولكن السلطات لم تحفل بها .. وكان من حظها ان زوجها لم يفقد ثقته فيها ، فدفعه ولاؤه وحيه لها الى أن يبذل الجهود فى سبيل اخراجها .. كما انها راحت ترسل الالتماسات تباعا ، الى أن كان شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، اذ أرسلت نداء يائسا الى وزير الداخلية، فرأى انها قد عوقبت بما فيه الكفاية وهكذا بدأت القصة بمهزلة وعبت .. ولكنها انقلبت الى مأساة !

الفصل التاسع عشر

جاسوس أمريكى كاد يغير مجرى الحرب الأخيرة !

♦ ان تسلل الجاسوس الى مركز هام فى معسكر العدو عمل جد عسير وخطير ، يستمد الجواسيس القوة على تذليله من موارد عدة ، أهمها : الوطنية ، والجشع المادى أو الرغبة فى

الأثراء ، والطموح ، والتعلق بالمبدأ السياسى أو المثل العليا .
ونستطيع ان نقول ان التنازية اذا كانت قد حمست بعض
الألمان على ركوب الصعاب ، الا انها قل ان حفزت أى معجب
بها من غير الألمان على ان يخون وطنه . . ولعل القضية التالية
خير مثال لذلك :

كان بين ديبلوماسيى السفارة الامريكية فى لندن - فى سنة
١٩٣٩ - شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، يدعى « تيلر
كنت » ، توحى كل الشواهد بأنه خلىق بمستقبل باهر . .
فقد كان ذكيا ، رياضيا ، يجيد اللغات ، وينحدر من أسرة ذات
تاريخ سياسى عريق فى الولايات المتحدة . . وقد رشحته
كفاءته لتولى منصب خطير ، اذ كان « كاتب السفارة » فى
السفارة . وكان الشاب من أصحاب المثل العليا ، كما كان
يكره الحرب كراهية بلغ من قوتها انها جعلت عقله ممهدا لأن
يتقبل أية فلسفة يخيل اليه انها تناصر شعوره هذا . . ولهذا
اقتنع بمنطق هتلر عندما راح يردد ان اليهودية العالمية هى
سبب كل نزاع وحرب

ولمس جاسوس ألمانى هذا الاستعداد فيه ، فعرفه بسيدة
تدعى « أنا فولكوف » ، كانت ابنة أميرال فى أسطول روسيا
القيصرية ، ثم استقرت فى انجلترا واكتسبت الجنسية
البريطانية بعد انهيار الحكم القيصرى . . ومع انها كانت فى
السابعة والثلاثين من عمرها ، الا انها كانت جميلة ، ذكية ،
قوية الشخصية . . وقد استطاعت أن تستميل الشاب ،
بتأييدها لأرائه ، حتى اذا توثقت الصداقة بينهما ، أخذت
تبث فيه أفكارا أخرى بدهاء ولباقة . . كأن تقول له ان انتهاء
الحرب بسرعة يمكن ألمانيا من الاحتفاظ بشئ من القوة يكفى
لأن تواصل سياستها فى محاربة اليهود . . أس البلاء ! ثم
تقول ان المعونة الامريكية للحلفاء تطيل أمد الصراع ، وسيكون
النفع فى النهاية لليهود ، الذين يؤازرون « روزفلت اليهودى » !

وهكذا انساق « كنت » الى المصيدة .. وسألته « أنا » في البداية ان يساعدها في ارسال رسائلها الى أصدقائها في ألمانيا ، فاستغل في ذلك « الحقيبة الدبلوماسية » .. وما لبثت ان استدرجته الى خطوة ايجابية مباشرة ، فكان يصور الوثائق قبل ان يكتبها بالشفرة ، ويرسل الصور الى أصدقاء



« أنا » في ألمانيا .. بالحقيبة الدبلوماسية ! .. وقد عُدَّ التقارير التي نقل صورها في شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بجوالي ١٥٠٠ ، كان بعضها سرىا جدا .. فقد كانت تقارير عن القوات البريطانية وما لديها من معدات ، وعن المدخر في بريطانيا من أقوات ووقود ، وعمّا ترسله أمريكا من امدادات ومعونات لبريطانيا .. وهكذا كانت ألمانيا تعد حملاتها العسكرية وضرباتها على هدى هذه المعلومات . بل ان الائمان دبّروا حملاتهم العسكرية الكبيرة - التي شنوها في ربيع سنة ١٩٤٠ - بمعونة تقارير « كنت » ، ولو ان الحلفاء هزموا اذ ذاك ، لكان هو من أوائل أصحاب الفضل في انتصار الائمان .. على انه لم يقدّم دليل واحد على انه تقاضى أجرا عن جهوده ! وكان من الممكن ان يواصل « كنت » و « أنا » تجسسهما ، لولا خطأ مألوف كثير الحدوث في ساعات النجاح ، هو الاهمال . فقد سنّما تحميمض الأفلام بأيديهما ، فعهذا بها الى مصور على مقربة من (فليت ستريت) ، حي الصحافة بلندن .. وكانت

المخابرات البريطانية تهتم بحركات « أنا فولكوف » منذ زمن طويل ، فلاحظوا الصداقة التي توثقت بينها وبين الدبلوماسي الأمريكي الشاب . ثم وافاهم أحد رجالهم يوما بأنه لاحظ ظاهرة غريبة : كان الصديقان يتقابلان في مسكن المرأة ، ثم يرتادان الملاهي ، ويترددان في طريقهما على محل مصور صغير . فلما كثر ترددهما على المصور ، تقرب اليه أحد رجال البوليس السرى ، واستطاع أن يستدرجه الى الحديث عن « أنا فولكوف » ، فاذا المصور يكشف عن اعتقاده بأنها تعمل فى السفارة الأمريكية ، وان منصبها أباح لها ان تلجأ الى مساعدته فى تجميع أفلام الوثائق !

وانكشف السر !! وأدت القضية الى عقد عدة مؤتمرات عليا فى لندن ، اذ كانت بريطانيا تخشى ان يثير اتهام الدبلوماسي الأمريكي بالتجسس ثائرة الرأى العام الأمريكي عليها . . . ولكن الأدلة أثبتت أن « كنت » لم يكن يفشى الأسرار التى تمس بريطانيا وحلفاءها فحسب ، وانما أسرار أمريكا أيضا . . . وكان قد مضى على تشرشل أسبوع واحد فى رئاسة الوزارة ، حين أوفد وزير خارجيته « هاليفاكس » الى السفير الأمريكي الذى أبى فى البداية ان يصدق الأمر ، ولكنه لم يكد يطلع على الأدلة والقرائن حتى تصرف فى حزم وقوة ، فعزل « كنت » من منصبه فوراً ، وبذلك حرمه من الحصانة الدبلوماسية ، وأتاح للسلطات البريطانية ان تعتقل الشاب و « أنا » . . . وقضى عليه بالسجن سبع سنوات . أما المرأة فقد عوقبت بالانشغال الشاقة عشر سنوات

ولا سبيل - حتى الآن - لتقدير مدى النتائج التى ترتبت على خيانة « تيلز كنت » فانه لم يقتصر على افشاء أسرار الرسائل التى كانت متبادلة بين بريطانيا وأمريكا فى تلك الفترة الدقيقة ، بل أفشى أيضا أسرار الشفرة الأمريكية ذات الطابع السرى العالى ، أى التى كانت تستعمل فى الرسائل

السرية جدا . وقد تكلم السفير الامريكى فى لندن - عقب انتهاء الحرب عن القصة . . فقال ان « كنت » كان مكلفا بشفرة لا سبيل لغيره الى حل رموزها ، فلما اعتقل انقطعت الاتصالات الدبلوماسية بين لندن وبين أمريكا ، ثم بين السفارة الامريكية فى لندن وبين جميع السفارات الامريكية فى العالم ، حوالى ستة أسابيع ، ريثما وصل خبراء بشفرات جديدة من واشنطن . . وكان ذلك فى أخرج فترات الحرب . . فترة سقوط فرنسا والانسحاب من دنكرك !

على ان قصة « كنت » لم تنته عند هذا الحد ، فما ان أذيع نبأ اعتقاله ، حتى ثار غضب بعض الدوائر الامريكية ، لاسيما أنصار العزلة والجماعات التى يؤلفها أمريكيون من أصول معادية لانجلترا - كالايرلنديين - وذهب بعضهم الى القول بأن القصة كلها دسيسة من تدبير المخابرات البريطانية لجر أمريكا الى الحرب !

ومن الطريف ان « كنت » لم يكد يسترد حريته فى سنة ١٩٤٥ ، حتى عاد الى نيويورك ، فاحتفت به الهيئات المعادية لبريطانيا ولليهود كبطل مظلوم ، بينما بادر هو الى مقاضاة وزارة الخارجية الامريكية ، متهما اياها بفصله بطريقة غير قانونية ، ولكن القضاء خذله !

الفصل العشرون

صيادو الجواسيس !

♦ من المؤلف أن تنكر كل دولة أعمال جاسوسيتها فى الخارج ، وأن تعترف بأن لديها ادارة لمقاومة الجاسوسية فى الداخل . . بل ان بعض الدول يرى ان الاعلان عن هذه الادارة مستحب ، لانه يرهب الجواسيس . وقد تحدثت فى فصل

سابق عن نشأة ادارة مقاومة الجاسوسية البريطانية و « القلم الخاص » ، وهما جهازان صغيران نسبيا - اذا قيسا بباقي فروع المخابرات السرية - اذ أن عدد رجالهما لا يزيد عن ٢٠٠ في وقت السلم ، ولكن قوات البوليس في الدولة كلها تحت تصرفهما . وفي أوقات الحرب ، تتضخم ادارة مقاومة الجاسوسية ، لأن رقابة البريد والاذاعة وحدها تحتاج الى خمسة آلاف شخص من الملمين بمعظم لغات العالم وتعتبر « التوافه » من أهم العناصر المساعدة لصيادي الجواسيس ، فكم من جاسوس فضح سره لأن مراقبا سريع البديهة لاحظ عليه شيئا غير مألوف . وقد حدث ان استطاع ألماني ، أثناء الحرب الماضية ، ان ينزل على الشاطئ البريطاني ليلا من احدى الغواصات - وكان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ويحمل بطاقة شخصية مزورة باتقان ، ودفتر لبطاقات التموين - ثم سار على طول الشاطئ حوالي ميلين ، حتى صادف قرية فسرق منها دراجة استقلها وانطلق في الطريق المرسومة له . . ولكن البوليس قبض عليه قبل ان يقطع ٤٠٠ ياردة ، لا شيء الا لأنه نسي أن المرور في انجلترا على الجانب الأيسر لا الأيمن ! . . وحدث ان نزل جاسوس آخر في اسكتلندا ، فقصده الى أقرب محطة للسكك الحديدية ، وطلب تذكرة لأبردين ، فقال له العامل : « اثنان وعشرة » . . وكان يقصد شلنين وعشرة بنسات ، ولكن الجاسوس قدم له جنيهين وعشرة شلنات . . وكان الفرق أكبر من ان يكون مجرد سهو ، مما أثار الشك في نفس العامل ، فابلغ الأمر للبوليس !

وحدث في الحرب العالمية الأولى ان أراد جاسوسان ألمانيان ان يبرقا الى رئيسهما في الخارج ببيان عن عدد السفن الراسية في ميناء (بورتسموث) وأنواعها ، فأرسلا برقية يطلبان فيها كميات من السيجار من شركة في (روتردام) . وكانت الكميات التي طلبها : ٤٠٠٠ سيجار هافانا ، و ٧٠٠٠ سيجار

كوبا . . وكانت حيلة بارعة للارشاد الى وجود ٤ بوارج و ٧ طرادات . ولكن الرقيب فطن الى هذه الحيلة لا مريم تافهين : أولهما ، ان بحارة بورتسماوث وأهلها لا يدخنون السيجار الغالي الفاخر الا نادرا . . وثانيهما ، ان الكمية المطلوبة كانت تعادل ما تستهلكه المدينة من السيجار في مدة عام !

وأرسل الألمان الى فرنسا - ذات مرة - فتاة سويسرية لتكتب تقريرا عن مواقع الفرق المتحالفة ، فكانت تطرز شكل وردة حول أزوار ثيابها الداخلية ، فترمز بالوردة المؤلفة من ٢١ غرزة - مثلا - الى الفرقة الواحدة والعشرين . . وكانت ترمز للفرق الاحتياطية بفراشات كل منها مؤلفة من عدد من الغرز يعادل رقم الفرقة . واستطاعت الفتاة ان تنتقل بين فرنسا وسويسرا اثنتى عشرة مرة ، دون أن يرتاب أحد في أمرها . . ثم حملها البخل على ان تبتاع أصنافا رخيصة من الثياب الداخلية كان الفرق بينها وبين ما بقي لديها من الملابس الغالية فرقا واضحا ملموسا ، كما ان رخصتها لم يكن يؤهلها لهذا التطريز الدقيق . . ومن ثم حامت حولها الشبهات ، فتعقبها صيادو الجواسيس حتى تمكنوا من تقديمها للمحاكمة ، فقصي عليها بالاعدام . . كل هذا لمجرد ان سيدة من مفتشات الجمارك فطنت الى هذه الفوارق التي قد لا ينتبه اليها رجل !

وعندما لجأ الزعيم النازى « هيس » الى انجلترا - فى الحرب الماضية - لحق به جاسوسان نازيان لاغتياله . . وهبطا فى اسكتلندا ، فذهبا الى احدى محطات السكك الحديدية ، وابتاع أحدهما تذكرة للندن . . وتقدم الثانى الى « شباك التذاكر » ، فسأله العامل : « أذهب أنت الآخر الى لندن ؟ » . . وفى غفلة من الرجل ، قال : « نعم » ، ولكن . . باللفة الألمانية . . وكانت زلة لسان ، أوقعته وزميله فى أيدي السلطات !

وتخف أعباء صيادى الجواسيس كثيرا ، لو ان الجمهور عرف كيف يقاوم الشائعات والانباء الكاذبة ، لأن الجواسيس كثيرا

ما يتخذون من هذه المواد أسلحة لاثارة الحواطر والاضطرابات
والذعر .. كما ان التجارب أثبتت ان هيئات مقاومة الجاسوسية
يجب ان تحيط أعمالها بسرية تامة لا تقل عن السرية التي
يتندرع بها الجواسيس الذين تطاردهم !
ومما يؤثر عن نابليون انه قال يوما : « لو ان ملوك فرنسا
كانوا يملكون نظاما صالحا لمقاومة الجاسوسية ، لما أتيح لى ان
أفر من الباء !

الفصل الحادى والعشرون

مكتب التحريات الأمريكى

♦ يعتبر الأمريكيون محدثين نسبيا فى فنون الجاسوسية ..
فقد بدأت مخابراتهم السرية - كادارة رسمية - فى الحرب العالمية
الأولى ، وكانت تتألف عند مولدها من ضابطين اثنين ! ومع ذلك
فان الحرب لم تنته حتى كانت هذه الادارة الناشئة قد اكتسبت
احترام حلفاء بلادها لما وفقت اليه من معلومات واستنتاجات
صحيحة ! .. ولقد كان من جراء تعدد الجنسيات التى تألف
منها الشعب الأمريكى ، أن تيسرت للجاسوسية الأمريكية
فرص واسعة . فان المواطن الانجليزى قد لا يسهل عليه أن
ينتحل شخصية مواطن ألماني ، على خلاف المواطن الأمريكى ..
اذ أن فى أمريكا ثلاثة عشر مليونا من أصل ألماني !
على ان اختلاط الجنسيات كان - من ناحية أخرى - مصدر
خطر لا سبيل الى التغاضى عنه ، لأن هذه الملايين الثلاثة عشر
تضم نسبة كبيرة ممن يحتفظون بالولاء والعطف على وطنهم
الأصلى .. فكانت هذه الحقيقة سببا فى أن أصبحت مقاومة
الجاسوسية فى أمريكا عظيمة الأهمية .. وقد كان مكتب
التحريات الاتحادى - أى التابع للحكومة الاتحادية - هو
الأساس الذى قامت عليه هذه المقاومة . فقد تأسس المكتب فى

سنة ١٩٠٨ ، ولم يكن ثمة مناص من أن يجرفه تيار السياسة . على انه استطاع - فى سنة ١٩٢٤ - أن يتخلص من التيار السياسى ، وكان نجاحه فى ذلك سريعا جاسما ، فهبطت حوادث السطو على المصارف من ٦٠٦ حوادث الى ٤٢ حادثة فى عشر سنوات . واستطاع المكتب أن يوفق فى حل ٢٤٩ من ٢٥١ حادث اختطاف . ذلك لأن مكتب التحريات الاتحادى خلق اللغة التى كان يفهمها رجال العصابات الذين استفحل نفوذهم فى امريكا اذ ذاك ، كما استطاع أن ينظم البوليس المحلى ، بحيث لم يعد أفرادهم من محاسيب السياسيين ، وانما أصبحوا اداة قوية ، منظمة ، لا تستميلها الرشوة ، ولا يثنيها عن صون القانون أى اعتبار !

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، وكلت الى المكتب مهام كان قد باشرها من قبل ، هى مقاومة الجاسوسية ومنع التخريب والحيلولة دون كل ما يخالف لوائح الحياد ونظمه . وقد أتيح لى أن اطلع على بعض الأساليب والنظم التى استنتها المكتب ، فاذا هو مزود بأوسع وأدق نظام للملفات والمحفوظات ، يضم بيانات كثيرة ، منها نحو ١٠٠ مليون مجموعة من بصمات الأصابع ، يمكن أن تفحص كل واحدة منها وتراجع فى ثلاث دقائق ! . كذلك تشمل الملفات تسجيلا دقيقا للنشاط السياسى الذى كان الأمريكيون المنحدرون من أصل ألماني يبدونه . وتبينت أن وسائلهم لاكتشاف المداد السرى رائعة ، كما ان قسم الراديو واللاسلكى فى هذه المنظمة دائب على فتح آفاق جديدة لنشاطه

واذا كان المكتب قد عنى - أثناء الحرب العالمية الأولى - بايقاف حوادث التخريب ، فانه حرص فى الحرب الثانية على أن يمنع هذه الحوادث قبل وقوعها . ولم يكن يضايق رجال المكتب سوى العقبات التى كانت تثيرها فى وجوههم الحرية السياسية التى

تمتاز بها الولايات المتحدة الأمريكية ! ٠٠ ففي أيام الحياد ، كان في وسع الأمريكيين المنحدرين من أصل ألماني أن يؤلفوا جمعيات تناصر ألمانيا ، وأن ينظموا هيئات عسكرية كفرق العاصفة النازية ! ٠٠ على أن الولايات المتحدة لم تلبث أن دخلت الحرب ، فزادت سلطات المكتب في الحال ، واستغلت أحسن استغلال . وينم فحص بعض قضاياها الهامة عن ظواهر ذات شأن كبير

الألمان يحصلون على أسرار أمريكا باسم رئيسها !

♦ ولعل أول اتصال لمكتب التحريات الأمريكي بأحداث الحرب العالمية الثانية ، هو ذاك الذي حدث عند ازاحة الستار عن شبكة الجاسوسية النازية في (اسكتلندا) . ففي سنة ١٩٣٧ ، كانت تعيش في شارع محترم بمدينة (دندي) ، خلاقة متوسطة العمر تدعى مسز « جامي جوردان » ٠٠ وقد استرعى نظر موزع البريد في ذلك الشارع ، أن هذه الخلاقة كانت تتلقى رسائل كثيرة من بلدان عديدة ٠٠ فأمر إلى البوليس بهواجسه ،



وسرعان ما كشفت التحريات عن أن مسز جوردان امرأة ألماني قتل في الحرب العالمية الأولى ٠٠ ثم ظهر أنها بمثابة « صندوق بريد » للجواسيس الألمان ، وكان معظم عملائها من المقيمين في أمريكا !

وبادرت السلطات البريطانية الى ابلاغ مكتب التحريات الأمريكى بذلك ، فاذا المكتب يتبين ان أمريكا كانت على شفا مؤامرة نازية محكمة . . اذ كانت هناك عصابة من الأمريكيين ، المنحدرين من أصل ألماني ، تدبر الخطط لسرقة الورق الأبيض الذى اعتاد رئيس الولايات المتحدة أن يسجل عليه ملاحظاته ، ثم تستغله فى توجيه رسائل للحصول على أسرار من وزارات الجيش والخرية والطيران ، وكان هذه المعلومات مطلوبة للرئيس نفسه !

وبدأ المكتب يعمل ، ولكن الصعوبات التى اعترضت طريقه كانت عسيرة التذليل . . وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٣٨ ، والألمان فى أمريكا يتمتعون بحريات واسعة ، فيؤلفون فرق العاصفة النازية ويتدربون علنا فى الأماكن العامة . ولكن القدر لم يلبث أن مال الى مساعدة مكتب التحريات ، فاذا بأحد المتآمرين يرتكب غلطة مفاجئة ، من النوع الذى يسمى « فلتة » !! . . اذ استهان بقوة الأمن فى أمريكا ، واتصل تليفونيا برئيس إدارة جوازات السفر - منتحلا شخصية وزير الخارجية الأمريكية - وطلب موافاته بخمسة وثلاثين جوازا جديدا (على بياض) . . وكان يرجو - من وراء ذلك - أن يستغل الجوازات فى تمكين الجواسيس الألمان من دخول أمريكا !

على ان إدارة جوازات السفر لم تكن من الغفلة بالدرجة التى حسبها ذلك الألمانى - وكان يدعى « رومريخ » - وكان من نتائج يقظتها أن تولى مكتب التحريات الأمر ، وأعد للمتآمرين شركا تمكن به من اعتقال « رومريخ » . . ولكن أحد رجال البوليس ارتكب بدوره « فلتة » ، اذ أفشى القصة للصحف ، فانتبه النازيون واتخذوا حذرهم ، وبادر زعماء الحركة الى الاختفاء فى الحال ، فلم تستطع السلطات اعتقال أهم شخصياتهم !

وظهر ان « رومريخ » كان واحدا من الذين راسلتهم مسز جوردان ، وانه كان مجرما لا يعمل الا من أجل المال ! .. وما لبث أن قرر رومريخ الاعتراف ، فأفضى بقصة أغرب من الخيال ، كشف فيها عن انه كان فى (همبورج) رجل - يدعى « كارل شلوتر » - موكل بتنظيم الجاسوسية فى أمريكا ، تعاونه سيدة تدعى « يوهانا هوفمان » .. فكانا يتصلاان بالأمريكيين ذوى الأصل الألماني ، والذين اعتادوا زيارة ألمانيا قبل الحرب ، ويفريانهم بالتجسس ، ويكلفانهم بالاتصال - فور عودتهم الى أمريكا - بالشبان الفارقين فى الديون ، والشيوخ الذين يعولون أسرات كبيرة العدد ، وأن يستدرجوهم بالتهديد أو الاحتيال أو الفتيات ، على التجسس لمصلحة ألمانيا !

واختتم رومريخ اعترافاته بأن شلوتر ومساعدته كانا اذ ذاك فى طريقهما الى أمريكا .. على ان اقدام الصحف على نشر المؤامرة نبه شلوتر فى الوقت المناسب ، فلم يمض فى رحلته . ولكن مساعدته وصلت على سفينة ألمانية تدعى « يوروبا » ، منتحلة اسما مستعارا ، وزاعمة انها حلاقة . وراقبها رجال المكتب ، ثم اعتقلوها وزجوا بها فى السجن . واستطاع رومريخ أن يتعرف عليها ، وأن يكشف حقيقة شخصيتها ، كما استطاع رجال مكتب التحريات أن يعثروا فى الحجرة التى كانت تشغلها - على السفينة - على عدد من الرسائل المكتوبة بالشفرة ، وأن يعثروا على مفتاح هذه الشفرة فى حقيبة يدها ! وهكذا كانت « يوهانا » - رغم جراتها وكفاءتها - ضحية لاهمالها .. ولكنها لم تكن الضحية الوحيدة ، اذ كشف اعتقالها الستار عن جواسيس آخرين ! .. فاذا بين جواسيس ألمانيا النازية جاسوس يدعى « اريك جليزر » ، بلغ من دهائه انه استطاع أن يلتحق بالجيش الأمريكى - رغم انه كان حديث العهد بالهجرة الى أمريكا ، وكان لا يتقن الانجليزية - وتمكن

وهو في أحد معسكرات القوات الجوية من أن ينقل صحفيين من كتاب الشفرة الذي يعتبر من الأسرار الأمريكية العليا !
 كذلك كان من ضحايا إهمال « يوهانا » جراح معروف ، هو الدكتور « أ . ت . جريبيل » ، الذي زار ألمانيا مع عشيقته له كان يزعم أنها زوجته ، وهناك اتصل به شلوتر واجتذبه إلى شبكة الجاسوسية . . وكان « جريبيل » من قادة الحركة النازية في أمريكا - قبيل الحرب - كما كان يجهر بسخريته من كل ما هو أمريكي ، وبعطفه على ألمانيا وعلى المذهب النازي بالذات ! . . وقد وجدت معه شفرة كان يخفيها في علبة من علب الثقاب ، كما وجد اسمه في قائمة الذين كانوا يرسلون الحلاقة الاسكتلندية !

وإذا كان رومريخ جاسوسا من طبقة دنيئة ، فإن الدكتور جريبيل كان ذكيا ، وكان ذا مكانة ، فلم يجد رجال مكتب التحريات وسيلة للتغلب على عناده إلا بتهديده بالفضيحة . . أي باذاعة معاشرته للمرأة التي كان يزعم أنها زوجته ! . . وبقدر ما كان مصرا على الصمت ، اندفع - بعد هذا التهديد - في اعترافاته ، دون أن يقف عند حد ، فكشف أمر عشرين جاسوسا في الولايات المتحدة ، كان بعضهم في مناصب مكنتهم من الحصول على تصميمات لاختراعات حربية سرية ! . . على أن رجال المكتب لم يحصلوا على كل ما كان في جعبة « جريبيل » ، إذ أنه هرب بعد أن أفرجت عنه السلطات بكفالة . . أو لعله اختطف وأرسل إلى ألمانيا ! . . ولكنه ترك وراءه من الأدلة ما كان كافيا لإدانة عدد كبير من الجواسيس النازيين في أمريكا ! وتعلم مكتب التحريات من قضية « جريبيل » دروسا أفادته . . تعلم أن أي نظام لمقاومة الجاسوسية لا يمكن أن يكون كاملا ، وإنما هو في حاجة دائما إلى تفقده وسد ما يتكشف من ثغرات خلاله . . كذلك تعلم أن رجل المخابرات السرية يجب أن ينأى

عن الصحفيين ، وأن يكون على حذر فى اتصالاته بهم ٠٠ وان القانون مخطئ فى تحميله للحريات الى الدرجة التى تضطر السلطات الى الافراج عن المتهم بالتجسس مقابل كفالة !

المخابرات الأمريكية تتعلم على أيدي « اسكتلنديارد » !

♦ على ان المكتب لم يلبث أن اتخذ مسلكا أشد حزما من ذى قبل ، بمجرد قيام الحرب ، فاستكمل جهازه حتى بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألفا ، وأوفد بعثات الى انجلترا لدراسة أحدث الطرق الفنية التى كان يتبعها « القلم الخاص » فى « اسكتلنديارد »

وقبل أن يحدث الهجوم اليابانى المفاجئ على الأسطول الأمريكى فى قاعدة (بيرل هاربور) ، انهمك رجال المكتب فى فحص حالات آلاف ممن كان يحتمل أن يصبحوا خطرین ٠٠ وعلى أضواء هذه الدراسات ، تمكنت السلطات الأمريكية - فى خلال ٤٨ ساعة بعد ذلك الهجوم - من اعتقال ١٧٧١ شخصا ، كما احتجزت ١٢ ألف شخص للتحرى عنهم والتحقيق معهم ، واكتشفت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ٠٠

ولم تكن كل النتائج التى توصل اليها المكتب وليدة الأساليب العلمية ، بل انه كان يتبع أحيانا الأساليب القديمة فى مكافحة الجاسوسية ، كما حدث فى قضية « أوجست باوماير » ٠٠ وكان أمريكيا نازيا من أصل المانى ، يمتلك مطعما تحول الى مركز عام لجمعية نازية سياسية كانت تسمى « بوند » ، ثم انقلب الى مركز للتجسس ولاخفاء الأشرى الألمان الذين كانوا يفرون من كندا ٠٠ وقد انتحل أحد رجال المكتب شخصية أسير هارب ، واختبأ فى مخزن المطعم ، حيث أقام جهاز ارسنال لاسلكى قصير الموجة ، وأخذ يرسل عن طريقه تقاريره الى المكتب ، مزودا زملاءه بالمعلومات التى أدت الى اعتقاله عصابة كبيرة !

على أن أعظم أعمال مكتب التحريات في مضمار الجاسوسية - حدث قبيل قيام الحرب بوقت قصير ٠٠ ففي سنة ١٩٣٩ ، قام أمريكي ألماني الأصل - يدعى « وليم شيبولد » - بزيارة بعض أقاربه في ألمانيا ، فاتصل به منظمو الجاسوسية وراحوا يغرونه على التعاون معهم ٠٠ وكان الرجل أكثر ولاء لأمريكا منه لألمانيا ، فاتصل بأقرب قنصل أمريكي وشاوره في الأمر ، ثم وافق على ما عرض عليه ، فكلف بأن يحمل معه بعض رسائل الى الولايات المتحدة ، وأن ينشئ هناك محطة لاسلكية يبعث عن طريقها بتقاريره !

وعندما وصل الى أمريكا ، تولى رجال مكتب التحريات الأمر ، فاستخدموا أموال النازيين وأجهزتهم ، وأرسل شيبولد - بارشاداتهم - ٥٠٠ رسالة كان أكثرها مضوغا بمهارة للتضليل ٠٠ وأفلحت الحطة ، حتى أن الألمان وثقوا فيه ، وأخذوا يوصون جواسيسهم الآخرين باستخدام الجهاز اللاسلكي الذي كان في حوزته ! ٠٠ وهكذا أتيح لشيبولد أن يتعرف الى ٧١ جاسوسا ألمانيا ٠٠ وعندما اعتقلوا ووجهت اليهم تهمة الجاسوسية ، قدم رجال المكتب الى القضاء أفلاما سينمائية التقطت لهؤلاء الجواسيس أثناء تردهم على مكتب شيبولد ، وتسجيلات لأحاديثهم !

ومن أهم الأعمال التي وفق فيها مكتب التحريات - أثناء الحرب - اعتقال ثمانية من المخبرين الألمان الذين نزلوا على سواحل فلوريدا ولونج ايلاند ، في يونيو سنة ١٩٤٢ ، وكان أربعة منهم في ثياب عسكرية ألمانية ٠٠ وكادت المسألة تبدو مجرد محاولة فاشلة ، لولا أن أثبتت التحريات انها كانت حركة واسعة لابعاد أنظار رجال المكتب عن مسائل أخرى أكثر خطورة ٠٠

ولكن أبرع أعمال المكتب جميعها ، هو أنه أبى أن يسلم بانتهاء

الحرب ، عقب انهيار مقاومة ألمانيا واليابان .. ومع انه خفض عدد رجاله ، الا انه احتفظ بالجهاز معدا ومهيأ للعمل فى أى وقت !

الفصل الثانى والعشرون

الامان خسروا حرب ١٩١٤ .. بسبب شائعة !

♦ اتيج لى فى سنة ١٩٣٧ أن أشاهد بعض المناورات الألمانية . وفى ذات ليلة ، أخذ ضباط أركان الحرب يسألوننى عن معركة (المارن) التى وقعت فى سنة ١٩١٤ .. وكان الموضوع من الموضوعات التى يحق للعسكريين أن يناقشوها ، فضلا عن ان المعركة كانت من المعارك الحاسمة فى الحرب العالمية الاولى .. وكان الالمانيون قد توغلوا فى فرنسا ، ولم يتمكن الحلفاء من ايقافهم الا عند نهر (المارن) ، بالقرب من باريس .. وكانت المعركة متأرجحة بيننا وبينهم ، اذ ان التفهقر لمسافات طويلة أوهن قواتنا ، ولكن تراجع الالمانيون عند (المارن) - رغم انه لم يكن طويل المدى - سجل أول هزيمة لهم ، ولهذا كانت المعركة تعتبر حاسمة .. فقد كان فى وسع الالمانيون أن يكسبوا الحرب كلها لو انهم فازوا فى هذه المعركة بالذات ، فى الوقت الذى كنا فى حاجة الى أربع سنوات أخرى لنحرز النصر الذى لم يواتنا الا فى سنة ١٩١٨ !

ولم يبد الضباط الالمانيون - فى حديثهم معى - اهتماما بالحركات الاستراتيجية والفنون فى هذه المعركة الهامة ، وانما انصب اهتمامهم على ناحية تعتبرها الآن « مهزلة » كبرى .. تلك هى : مرور الروس الى الميدان الغربى - عن طريق بريطانيا - فى الأسابيع الاولى من تلك الحرب ! .. والذين عاصروا تلك الفترة يذكرون الأمر جيدا . والواقع أنه لم يكن

هناك روس على الاطلاق ، ولكن آلافا من مروجى الشائعات والمبالغين زعموا انهم رأوهم . . بل ذهبوا الى وصفهم زاعمين انهم شاهدوهم ينفضون الثلج عن أحذيتهم ! . . وحقيقة ما حدث هو ان قطارا مليئا بجنود « الهايلاندرز » وقف فى محطة بجنوب انجلترا ، فدهش أحد الحمالين ، وسألهم عن المكان الذى جاءوا منه ، فأجاب أحدهم : « جئنا من روسشاير » فالتبس الأمر على الحمال وظنه يقصد (روسيا) !

وصادف أن كان فى اسكتلندا - اذ ذاك - جاسوس ألمانى يدعى « كارل لودى » ، كان تحت رقابة المخابرات السرية دون أن يفطن ، وقد تبين أنه أوقف جميع الاتصالات التى كانت بينه وبين زميل له فى السويد . . ولكنه حين علم بأمر هؤلاء الجنود ، كتب اليه يصفهم ، وزعم انه رآهم بعينه فى محطة (دندى) ! . . وما أن تسلم الجاسوس الألمانى فى السويد رسالة زميله ، حتى أخطر هيئة أركان الحرب الألمانية العامة !

وكان الجيش الألمانى القوى مرتبطا بعمليات حربية فى فرنسا ، وقد طالت خطوط مواصلاته الممتدة من ألمانيا - عبر بلجيكا - الى فرنسا . ولو ان الروس استطاعوا النزول فى بلجيكا ، كما زعمت الاقاويل فى ذلك الحين ، لقطعوا هذه الخطوط ولحقت بالجيش الألمانى كارثة . . ومن ثم خصص الألمان من جيشهم الرئيسى فرقتين لحراسة الساحل البلجيكى ، قبل معركة (المارن) بأسبوعين فقط . . ولو ان هاتين الفرقتين خاضتا المعركة مع الجيش ، لأتيح للألمان أن يكسبوها ! ومن هنا يمكن القول بأن الألمان خسروا المعركة بسبب شائعة !

ولقد جاءت الشائعة - فى سنة ١٩١٤ - مجرد مصادفة عارضة . ولكن الألمان كانوا - فى سنة ١٩٣٧ - يضعون الخطط لاستخدام الشائعات كسلاح فعال . ومن هنا كان الحاج ضباط

أركان الحرب فى السؤال عن هذه القصة الغريبة !

« فظائع الألمان » فى الحروب • • ليست الا شائعات !

♦ على ان سلاح الشائعات - فى حصد ذاته - ليس بالشئ الجديد • • فان التاريخ يحدثنا عن آثاره فى حروب جرت منذ ألف عام • • كما ان الشائعات لعبت دورا كبيرا فى اضعاف الروح المعنوية لدى الايطاليين قبيل هزيمتهم فى معركة (كابوريتو) ، فى الحرب العالمية الأولى • • وقد صرح « لودندورف » - رئيس أركان حرب الجيش الألماني فى تلك الحرب - بأن الدعاية والشائعات قد أحدثتا « أثرا مدمرا للروح المعنوية لدى الشعب الألماني » !

والفرق بسيط بين الشائعة - كسلاح من أسلحة الحرب - والدعاية ، التى تعتبر بدورها سلاحا رئيسيا : فكل من السلاحين يعتمد على جهل الانسان وضعفه ، وكل منهما يشهر فى اللحظات الهستيرية التى تتخلل الحرب • ولكن أساليبهما تختلف اختلافا ايجابيا !

ولقد عرفنا « الدعاية » فى الحرب العالمية الأولى • • كانت تندفق فى اسفاف جعل للكلمة البريئة وقعا قبيحا تنفر منه الأسماع ! • • أجل ، أصبحت كلمة « الدعاية » توحى بتشويه الحقائق ، بل وبالكذب • • وقد صدق من قال : « الصديق هو أول المصابين بعد اعلان الحرب • • فان الزور والتمويه باتا من الأسلحة المعترف بها فى الحرب » !

وكانت بريطانيا من أكثر الدول استغلالا للدعاية فى الحرب العالمية الأولى ، وان كانت الوسائل التى اتبعت فى تلك الأيام وسائل مبتسرة ، غير ناضجة • • وكان هدفها الأول إثارة حمى الحرب فى الشعب ، اذ كان معظم الناس يتصورون الحرب بسلسلة من المناوشات ! • • وانتهت السلطات - فى ذلك الحين -

الى ان أفضل اتجاه للدعاية هو اثاره البغضاء فى نفوس الشعب ضد العسكريين الألمان ، وذلك باختلاق سلسلة من الشائعات عما أطلقوا عليه اذ ذاك : « فظائع الألمان » !

ويميل المستوى الأخلاقى فى الجيوش الى الانحدار عندما يوفد الجنود الى ميادين فى خارج بلادهم ، لا سيما اذا وجدوا أنفسهم فى مناطق فتحوها بقوة السلاح . . . ومن ثم فان قصص النهب وهتك الأعراض - فى البلاد المحتلة - ليست كلها دعائية ، بل ان أمثالها تقع بالفعل وتعتبر اسوأ جزء من ثمن الحرب ! . . . ولكن دعاية الحلفاء لتنفير الشعوب من « فظائع الألمان » اتجهت اتجاهها آخر ، اذ زعمت ان الألمان كانوا يبترون أيدي الاطفال ، ويصلبون الكنديين ، ويشقون صدور النساء بالسوونكى . . . وكانت كل شائعة تتضخم بالمبالغات ، وتنتشر بسرعة ، دون أن يكون لها أساس من الواقع . . . ولم يكن لدى الناس ما يمكنهم من أن يمحصوا تلك الشائعات ليعرفوا الصادق منها والكاذب ، ومن ثم فانهم كانوا يصدقونها فى أول الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يرتابون فى صحتها . . . ثم أدت المبالغة فيها الى عكس ما كان يرجى منها . . . وحدث هذا بصفة خاصة عندما أشيع ان لدى الألمان مؤسسة لاستغلال جثث القتلى ، تذيب جثث الضحايا من جنودهم لاستخراج ما فيها من شحم ودهن . . . واستطاع القائلون على الدعاية أن يهيئوا صورا تدعم هذا الزعم . . . ثم فطن المتعلمون الى ان الاسم الألماني لتلك المؤسسة - كما روجه الحلفاء فى دعايتهم - يوحي باستغلال جثث الحيوان لا الإنسان ، فتزعزعت ثقة الناس فى الدعاية ! . . . وهذه ظاهرة مألوفة فى هذا السلاح من أسلحة الحرب ، اذ ان الدعاية لا تلبث أن تنقلب على نفسها ، فانك اذا أسرفت فى اثاره أحقاد الناس ، لا تلبث أن تولد فى نفوسهم شيئا من الخوف يصحب مستهذه الأحمق ، كما ظهر فى التهوس الذى أصاب الشعب

البريطاني ازاء الجاسوسية في الحرب العالمية الاولى ، حتى أصبح كل انسان يشك في أن جاره جاسوس ، مما ضايق السلطات وسبب لها الكثير من العناء !

والواقع اننا لا نجد سلاحا أخطر في ارتداده الى مشهره من سلاح الدعاية ، لا سيما اذا كانت هذه الدعاية كاذبة .. و « الهستيريا » الجماعية ليست بالشئ الذي تتعذر اثارته بين الناس ، ولكنها اذا أفلتت من عقالها وجمحت أصبحت خطرا من المستحيل السيطرة عليه !

هذا السلاح الفتاك .. أجدر بمزيد من العناية !

♦ وفي خلال الحرب ، تميل ملكة الانتقاد عند الناس الى الاختفاء . وقد دلتني تجاربي ودراساتي على ان الناس لا يفحصون الدعاية بالدقة اللازمة ، بل انهم يتلقفون الشائعات ويرددونها ويبالغون فيها .. ومن ثم فان الشائعات - في الدعاية - تستغل نقط الضعف في العقول ، حتى يصدقها الناس في بساطة .. ولو ان الشائعة التي ذكرناها من قبل عن نزول الروس في انجلترا ليصلوا الى الجبهة الغربية .. لو ان هذه الشائعة محصنة وفحصت عندما ذاعت في انجلترا ، لما صمدت أمام أى عقل ذكى !

كنت و « أومباشي » فرنسي نستقل دراجتين ، خارج مدينة (آراس) في سنة ١٩١٦ ، عندما انفجرت اطارات الدراجتين معا ، فلم نجد بدا من أن نقلبهما ونعمل على اصلاح الاطارات .. وكان على حافة الطريق سد من التراب ، تقوم خلفه مدرسة للتدريب على اطلاق القنابل . وفيما كنا منهمكين في عملنا ، وقفت سيارة هبط منها رجل التقط صورة ، فلم ينقض أسبوع أو أسبوعان حتى نشرت الصورة في عدد من الصحف وقد كتب تحتها : « جنديان بريطانيان يصلحان دراجتيهما في طمأنينة



تحت سيل القذائف « ! وسرعان ما انهمرت علينا الخطابات
 ممن تعرفوا علينا في الصورة - من الأصدقاء - دون أن يساور
 أحد الشك في صحة الصورة ، اذ كانت سحب التراب التي
 اثارها قذائف المدربين توحى بجو ميدان القتال !
 ولقد أتيح لي أن أدرس خصائص العقل البشري ، اذ وجدت
 نفسي - في شتاء سنة ١٩٣٩ - في فرنسا ، حيث توفرت على
 دراسة آثار الشائعات في الجنود والمدنيين . وتبينت ان
 الألمان ابتكروا أسلوبا جديدا في الشتاء الأول للحرب ، هو
 ترويج كل شائعة قديمة لبلبلة عقول الفرنسيين وتهيئتها
 لتصديق كل شيء . . . وقد أفلحوا في ذلك ، فلم تكد المقاومة
 الفرنسية تنهار ، حتى أخذ سكان القرى يهربون من قراهم على
 غير هدى ، وفي كل اتجاه ، معرقلين تقدم وحدات الجيش التي
 كانت تسعى للوصول الى العدو . وكان أنكى ما في المأساة ،
 ان الناس كانوا يفرون من لا شيء . . . او بالأحرى ، كانوا
 يفرون من الشائعات التي زعمت ان الألمان كانوا قادمين ، فلم
 يحاول أحد ان يتبين مصدر تلك الشائعات ولا صحتها !

والشائعات هي أرخص الأسلحة وأقلها نفقات ، لانهما لا
 تحتاج الى أكثر من عقول قليلة لنسجها ، ثم يتولى المروجون

والناس ما بعد ذلك ! .. وهدفها معروف ، ويتمثل في تحطيم الروح المعنوية للناس . وفي الحروب الحديثة ، أصبحت الشغرة بين القوات العاملة والمدنيين جد ضيقة .. فلو تداعت روح المدنيين في أى دولة ، لحسرت هذه الدولة الحرب !

وكم من شائعات ترددت في الحربين الأولى والثانية ، فلما تتبععت منشأها وجدت انها ترددت في حرب القرم وحروب نابليون أيضا ! .. ذلك لأن الشائعات نادرا ما تتغير في جوهرها .. ومن الأمثلة على ذلك ، شائعة سمعتها في الحرب الأولى ، وتكررت في الحرب الثانية ، وان تغير الأسلوب الذى رويت به ، والأوصاف التى تخللتها .. ومؤدى هذه الشائعة ان البريطانيين أغرقوا غواصة ألمانية ، وأخذوا قائدها أسيرا . فلما فتشوه وجدوا في جيبه تذكرتين من تذاكر مسرح «جلاسجو امباير» - مثلا - فكانه هبط الى تلك المدينة وقضى سهرته فيها دون أن تفتن السلطات .. ومن العجيب اننى سمعت هذه القصة في أمريكا - فى الحرب الثانية - مع تغيير مسرحها ، اذ ذكرت مدينة (سان فرانسيسكو) بدلا من (جلاسجو) !

وقد تبدو أمثال هذه القصة تافهة ، ولكن فى وسعك أن تتصور تأثيرها على العقول ، لا سيما اذا تذكرت اننا - فى أوقات الحرب - قل أن نعنى بتمحيص ما نسمع .. بل تصور مفعولها اذا ما حملها الى ميدان القتال جندى عائد من أجازته ! .. وقد لا يكون من المؤكد ان فى وسع الشائعة الموجهة - أى المدروسة والمعدة لأغراض معينة وعقول معينة - أن تكسب حربا ، ولكن من المؤكد حقا انها قادرة على أن تتسبب فى الهزيمة فى الحرب ! .. ولذلك نجد ان انجلترا عنيبت بتنظيم « الحرب السياسية » فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الهيئات الموكلة بهذا النشاط لم تحرز نجاحا يذكر الا عندما بدأت القبة العسكرية الألمانية فى التداعى . ذلك لأن كثيرا من جهود تلك

الهيئات كان سييء التوجيه .. فكان من التفاهة - مثلا - أن تنفق هذه الجهود في اذاعة الانباء عن تفشى الفساد في صفوف السلطات الفاشيستية العليا ! .. وقد كان للنظام الحازم الذى درج عليه الشعب الالماني ، فضل مقاومة كثير من الجهود التى كانت من هذا القبيل .. فضلا عن ان الالمان كانوا سباقين دائما فى هذا المجال !

ولم تكن بريطانيا وحدها التى لم تقدر قيمة الشائعة حق قدرها .. بل ان الروس تجاهلوها تقريبا - فى الحرب العالمية الثانية - مركزين جهودهم على الدعاية السياسية التى لم تكن ذات أثر يذكر الا بعد ان تحقق انكسار الالمان فى ميدان القتال بالفعل .. على ان عدم تقدير الأمريكين لقيمة الشائعة يفوق تجاهل الروس لها ، وان كنت قد وجدت الرئيس روزفلت - عندما أوفدت الى واشنطن للتشاور فى شئون الدعاية - منتبها كل الانتباه للاخطار والاحتمالات التى تترتب على سلاح الاشاعة !

الاطباق الطائرة : حقيقة هي أم خيال ؟!

♦ ومن الواجب قتل الشائعة فورا ، والا فلن يتسنى القضاء عليها . فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٤٧ ، صرح رجل - فى واشنطن - بأنه رأى تسعة أجسام لامعة تطير بسرعة قدرها ١٢٠٠ ميل ، على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم من الأرض .. وان هى الا أيام حتى رأى أناس غيره تلك الأشياء ، ووصفوها بأنها على شكل « أقراص » ، ثم أطلقت الصحافة الأمريكية لخيالها العنان ، فوصفتها بأنها « أطباق طائرة » .. وتوالى الشائعات وانتشرت فى البلدان الأخرى ، ثم تعاقبت الانباء بأن مئات رأوا تلك « الأطباق الطائرة » ! .. ومع ان بعض من زعموا انهم رأوها لم يلبثوا - عند التحقيقات الدقيقة - أن اعترفوا بأنهم كانوا

واهمين ، الا أن اعترافاتهم ضاعت وسط ضجيج الشائعات . ولقد ذكر عالم ضليع ان الانسان اذا وقف جامدا وثبت بصره على نقطة معينة في السماء ، فانه لا يلبث أن يرى أشياء تتحرك بسرعة ، نتيجة مرور كريات الدم الحمراء أمام شبكة العين . . . الا ان أحدا أبى أن يأخذ بهذا التعليل البسيط المعقول ! . . . وقد زعم البعض ان « الأطباق الطائرة » سلاح روسى جديد ورهيب ، يستطيع أن يصل الى أى ركن من أركان الدنيا !

وتلعب الشائعة دورا هائلا فيما يسمونه بـ « الحرب الباردة » . . . وما أقل الناس الذين يدركون ان من الممكن كسب المعارك دون اطلاق رصاصة واحدة ، وذلك عن طريق الحرب الباردة ! . . . ومن أساليب هذه الحرب أن تعتمد إحدى الدول الى شن حملة — فى الدول المعادية لها — تطالب بالسلام ومنع التسليح ، بينما تكون هى منصرفة الى زيادة قواتها ! . . . كما ان من أساليبها محاولة النيل من الشخصيات الحاكمة فى الدول المعادية ، وذلك باتهامها بأنها « دعاة حرب » و « دعاة استعمار » . . . أو محاولة التفرقة بين الدول المعادية وتحطيم وحدتها !

الفصل الثالث والعشرون

الأسلحة السرية الألمانية

♦ ما أظن أهل لندن وجنوب انجلترا ينسون قط القنابل الطائرة والصواريخ التى كانت تنهمر عليهم فى سنة ١٩٤٤ ! على ان الشئ الذى لم يعرفوه ، هو ان تلك القنابل والصواريخ كانت تنهمر بمعدل مائة فى اليوم — فى حين أن خطط الألمان كانت ترمى الى ارسال ألف منها لضرب بريطانيا يوميا — وان هذه الحملة تأخرت ستة أشهر عن الموعد الذى كان محدد لها . . . ووراء هاتين الحقيقتين حلقة من أهم حلقات الجاسوسية فى

الحرب العالمية الثانية !

في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، كنت أطوف بشواطئ البلطيق على دراجة ، أجمع مادة لكتاب كنت أضعه عن الرحلات . . . وبلغت في طوافي جزيرة (روجن) الألمانية ، وهناك ضللت طريقي بمحض المصادفة فدخلت منطقة كانت محاطة بأسوار ، وإذا بي أعقل . . . الا اني سرعان ما أثبت حسن نيتي ، فأطلق سراحي . ولكنني استطعت - في الفترة القصيرة التي قضيتها في تلك المنطقة - أن ألاحظ بعض أشياء ، منها قطع من الأسمنت المسلح تناثرت في أرجاء المكان ، وكانت احداها على شكل شبه دائري ، يتخلله مجرى ضيق في الوسط . . . واستطعت أن أفهم من القرويين المقيمين حول المنطقة، انهم كانوا يسمعون انفجارات تتبعها ضوضاء غريبة تتراوح في شدتها وتشبه الضجة التي يحدثها القطار أثناء سيره . . . وقيل لي انه يبدو ان ثمة تجارب كانت تجري داخل المنطقة ، وانها فشلت ، اذ رأى القوم قوافل من سيارات الاسعاف تغادر المنطقة - ذات يوم - محملة بالجرحي !

وما أن أدليت الى الخبراء - في لندن - بهذا النبأ ، حتى أدركوا ما كان يحدث داخل المنطقة . . . فهناك ، كانت ألمانيا تجري تجارب لاستعمال الصواريخ ، وكانت قطع الاسمنت هي بقايا القاعدة التي تطلق منها الصواريخ ، اذ ان بعضها انفجر وهو قريب من الأرض . . . وقد سمعت من بعض الأصدقاء الألمان - بعد ذلك - ان محاولات بذلت لاطلاق صواريخ تحمل آدميين ! . . . وأستطيع أنؤكد ان جواسيسنا توصلوا الى أنباء هذه التجارب ، وان لم يسرقوا مشروعاتها من خزانة وزارة الحربية الألمانية . . . ذلك لأنهم كانوا يلتقطون المعلومات ، ويضمون بعضها الى بعض في مهارة وذكاء ، ليصلوا الى ما كان لدى هتلر من « أسلحة الانتقام » التي كان لا يفتأ يهدد بها !

ولقد حدث عندما انهارت فرنسا - في سنة ١٩٤٠ - أن أصيبت المخابرات السرية البريطانية بضربة شديدة . ولكن حسن الطالع خف لنجدتها ، إذ كان الألمان قد نقلوا ملايين من أبناء الأراضى التى احتلوها - كالفرنسيين والتشيكيين والبولنديين - للعمل داخل ألمانيا، فوجدت المخابرات البريطانية فى هؤلاء أعوانا وعيونا لها ! . وتحضرنى هنا قصة بدأت فى سنة ١٩٤١ فى (وارسو) ، إذ جمع الألمان فريقا من «المتطوعين» البولنديين لترحيلهم الى ألمانيا للعمل فيها . فلما تهيأوا للسفر ، انتحى ثلاثة منهم جانبا مع صديق كان يودعهم ، وإن راح يوصيهم بأن يفتحوا عيونهم وأذانهم وأن يوافقوه بما يرون ويسمعون . وكان هذا الرجل من العاملين فى المقاومة البولندية ، المتصلين بأحد جواسيس انجلترا !

وحدث أن نقل « المتطوعون » البولنديون الى مكان على بحر البلطيق يسمى (بينيموند) ، فأدركوا من الأحاديث العابرة ان المكان مسرح للتجارب العسكرية أكثر مما هو مصنع عادى للطائرات . وفى ذات يوم ، وصل ضابط من الهيئة التى كانت مسئولة عن العمال الأجانب ، فاذا به هو الآخر من رجال المقاومة البولندية ، الذين كانوا يتجسسون لحساب الانجليز . وما أن اطمأن العمال اليه ، حتى قالوا له : « ان أمورا غريبة تجرى هنا . ان هذا المكان ليس مجرد مصنع للطائرات ، وإنما هو محطة للتجارب . وقد سمعنا كلمة « الصواريخ » تتردد أكثر من مرة ، كما رأى أحدنا فى إحدى الحظائر طائرة صغيرة ، ذات محرك واحد . ولكنها خلو من مكان للطيار ! »

واستطاع العمال - بإرشاد الضابط - أن يرسموا خريطة للمكان وسرعان ما أرسل سلاح الطيران البريطانى طائرة استطلاع صورت الموقع ، وإذا بخبرة فى تفسير الصور تقرر انها ترى فى الصورة طائرة بالشكل الذى وصفه العامل ! . ومن

هنا ندرك المصدر الذي استند اليه تشرشل عندما صرح في البرلمان - في ٦ يوليو سنة ١٩٤٤ ، أى بعد أولى غارات القنابل الطائرة - بأن انجلترا « تلقت في الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٣ تقارير من المصادر الكثيرة التي تستعين بها مخبراتنا ، تدل على ان الألمان كانوا يعملون على ابتكار سلاح جديد طويل المدى لضرب لندن » ! ٠٠ وفى أغسطس سنة ١٩٤٣ ، قام السلاح الجوى البريطانى بأكبر غارة فى الحرب ، لتدمير ذلك المصنع الذى كان قائما فى (بينيموند) ، تدميرا تاما على ان هذه الكارثة لم تحول الألمان عن غايتهم ٠٠ فمن العمال الأجانب أيضا ، عرف الجواسيس الانجليز ان قطع الصواريخ كانت تصنع فى مصانع متفرقة ، ثم يتم تجميعها وتركيبها فى مكان معين ، فهاجمت الطائرات البريطانية هذه المصانع كلها ٠٠ ولكن البولنديين الذين كانوا يقيمون على مقربة من مدينة (مييليك) لم يلبثوا أن أشاروا الى مصنع غير عادى فى تلك المنطقة ، أحاطه الألمان بحراسة شديدة ، واعتادت القطارات أن تتردد عليه ليلا ، وفى كل عربة من عرباتها حراس مسلحون ٠٠ وسرعان ما تسلل الى المنطقة جاسوس بولندي استدرج سائقى القطارات - التى كانت تتردد على المصنع - فى الحديث ، حتى جمع منهم بعض المعلومات ، كما عرف من فرنسي كان يعمل داخل المصنع ان بعض ذوى المكانة فى الحكومة الألمانية يزورون المصنع من وقت لآخر ، لا سيما مدير الارصاد الجوية بالذات !

وثبت ان المصنع كان ينتج أجهزة لاسلكية دقيقة ، توضع فى « بالونات » تطلق لتحلق فوق انجلترا ٠٠ وتجلى بعد ذلك ان هذه الأجهزة - التى أصبحت اليوم عادية - كانت تصدر اشارات لاسلكية عن الأحوال الجوية ، يستعين بها الطيران الألمانى فى غاراته !

كاد هتلر يكسب الحرب .. بقذائفه الموجهة !

♦ ومن (ريجويس) - ببولندا - تلقت المخابرات البريطانية تقارير من جواسيسها عن أجسام تشبه الطائرات شوهدت محلقة في السماء ، والضوء ينبعث من ذيلها .. وما لبث أن ظهر ان الألمان كانوا يجربون سلاحا جديدا .. وفي ذات يوم ، سقطت إحدى هذه القذائف بالقرب من نهر (بوج) دون أن تنفجر ، فبادر أعوان هيئة المقاومة السرية البولندية الى دفعها الى النهر ،



فلما بحث عنها الألمان لم يعثروا لها على أثر .. وما لبث البولنديون أن أخرجوا القذيفة من النهر ، فالتقطت لها صور ، كما فحصت أجزائها ، وأعد عنها تقرير مفصل سلم الى رجل كان ينتحل شخصية بحار سويدي ، فنقل التقرير في حذائه الى السويد ، ومنها الى لندن .. وفي ليلة وصوله أذيع في البرنامج البولندي بالاذاعة البريطانية نبأ بسيط في مظهره : « ان هتلر لا يقنع بالوعود التي تكتب على ورق ، وانما هو يريد الشيء الحقيقي .. ونحن كذلك ! »

ولم يكن النبأ سوى رسالة الى الجواسيس البولنديين ، أدركوا منها ان القذيفة ذاتها هي المطلوبة ، فنقلوا الأجزاء الهامة منها - وكانت تزن نحو قنطار - الى غابة في جنوب بولندا ، على

مقربة من بقعة فضاء كانت معدة لتهبط فيها طائرات القتال الألمانية عند الطوارئ ٠٠ وكانت عملية نقل القذيفة الى خارج بولندا من أشق العمليات ، لأن الجنود الألمان كانوا يرابطون على بعد ميل من المنطقة .

وصدر أمر الى طائرة بريطانية بأن تطير الى المنطقة ٠٠ وساعدها الحظ ، فهبطت هناك بسلام ، بعد منتصف احدى الليالى ٠٠ وحملت أجزاء القذيفة ، كما حملت أحد زعماء المقاومة البولندية ، وكان يدعى « رافال » ٠٠ ولكن اسمه الحقيقي هو « ارشيتزفسكى » ، وقد أصبح بعد ذلك رئيسا لوزراء بولندا !

وعند وصول الشحنة الثمينة الى لندن ، فحصها الخبراء ، فاذا بها أحدث أنواع القذائف الموجهة - فى ذلك الحين - وقد عرفت بالقذيفة : « ف - ا »

وهكذا ، كان الحلفاء قد عرفوا نبأ الصواريخ والقذائف الموجهة قبل أن يستخدمها الألمان فى غاراتهم ، فلما بدأت تلك الغارات ، كان الحلفاء قد استعدوا لها ، كما نظموا سلسلة من أعمال التخريب فى مصانع انتاج تلك الأسلحة - سواء فى ألمانيا أو فى الدول المحتلة - وغارات عنيفة متوالية عليها ٠٠ ومن ثم لم يقدر للألمان أن يرسلوا على بريطانيا ألف قذيفة فى اليوم ، كما كانوا يرجون !

ومن هنا نستطيع أن ندرك الدور الذى قام به الجواسيس فى تخفيف وطأة الأسلحة النازية السرية على بريطانيا ، وعلى لندن بالذات !

الفصل الرابع والعشرون

قضية التجسس فى كندا

♦ فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، غادر « ايجور جوزينكو »

— كاتب السفارة بالسفارة السوفيتية في كندا — مبنى السفارة، كما اعتاد بعد انتهاء عمله في كل ليلة لمدة عامين .. ولكنه في هذه المرة كان قد عقد عزمه على ان تكون هذه آخر مرة يغادر فيها السفارة !

وكان شابا صغيرا ، لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، وقد استمتع بعضوية « الكونسومول » — أو هيئة الشباب الشيوعي ، في روسيا — مذ كان طالبا . ولما توسم فيه المشرفون على هذه الهيئة مخايل مبشرة ، أحقوه بمدرسة الهندسة في موسكو ، ثم بمدرسة المخابرات السرية . وبعد ان اطمأنوا الى اخلاصه تماما ، بعثوا به الى كندا — في سنة ١٩٤٣ — ليكون كاتب السفارة بسفارة روسيا هناك . واذا به يجد نفسه في جو يشبه جو قصص الجاسوسية المثيرة ، التي يبتكرها خيال الكتاب .. فقد كان الجناح الذي يعمل فيه بمبنى السفارة ، مفصولا عن باقي أجنحة المبنى بحواجز ونوافذ فولاذية . ولم يكن من المباح لأحد ان يدخل الى تلك الأجنحة .. أما حراس الأبواب وخدم السفارة ، فكانوا جميعا من ضباط الجيش الأحمر ! .. ليس هذا فحسب ، بل ان « جوزينكو » لم يلبث ان تبين ان رئيسه المباشر — وهو الكولونيل زابوتين ، الملحق العسكري — كان قد نظم شبكة واسعة للتجسس !

واستطاب « جوزينكو » الحياة في كندا .. لذلك فانه لم يكد يسمع بأن النية قد اتجهت لاعادته الى روسيا ، حتى قرر ان يبقى — بأى ثمن — وان يحذر الكنديين من شبكة الجاسوسية ومن الخطط التي كانت ترمى الى اثاره الشغب والقتل في كندا . لذلك اختار عددا من الملفات التي تثبت ذلك ، وعرضها على إحدى صحف (اوتاوا) .. وكانت القصة غريبة ، ولعل غرابتها هي التي جعلت الصحيفة لا توليها نظرة جدية . ولم يكن لجوزينكو من هم سوى ان يجنب نفسه وزوجته وطفلهما ، ما كان يخشاه من وراء العودة الى روسيا ، لذلك راح يطوف



بكل ادارة حكومية ، وبكل صحيفة ، ولكن احدا لم يعن بقصته !
 وفي مساء اليوم الذي غادر فيه السفارة وهو مصمم على ان
 لا يعود اليها ، اقتحم بعض أعضاء تلك السفارة مسكنه ، ليستولوا
 على الوثائق التي سرقها . . وكان جوزينكو قد احتاط للأمر ،
 فنقل أسرته الى مسكن جار له كان جاویشا في السلاح الجوى
 الكندي ، فحاول رجال السفارة اقتحام هذا المسكن ، ولكن
 صاحبه استغاث بالبوليس . وقرر البوليس ان جوزينكو
 سارق ، فمن حق رؤسائه ان يعاقبوه ! . . وأثار هذا الموقف
 ضجة لفتت نظر السلطات العليا ، فبادرت الى تأليف لجنة لفحص
 القضية ، واذا وثائق جوزينكو تكشف عن حقائق خطيرة ! . .
 فقد ظهر ان الجناح المخلوق ، المحاط بالحراسة - في السفارة
 الروسية - كان في الواقع مركزا عاما لخمس منظمات للجاسوسية ،
 انبثت في مختلف ميادين النشاط في كندا ، كما كان كل فرد
 فيها يتجسس على زملائه ! . . وكان زابوتين هو الذي نظم كل
 هذا ، بناء على الاوامر التي كانت تصدر اليه من موسكو
 مباشرة . وكانت له شبكة خاصة مهمتها معرفة كل شيء عن
 القبلة الذرية ومصانعها ، وعن الجيوش التي ترسلها كندا
 والولايات المتحدة الى أوروبا ، وعن جهاز سري لحرب الغواصات ،
 وعن القنابل الاليكترونية وأنظمة الدفاع الكندية . .

وكانت هذه المهام تتطلب حشد عدد كبير من الجواسيس ، فاستخدم زابوتين وأعوانه وسائل تدل على خبرة باستغلال مواطن الضعف في نفس الانسان . . فقد اتصلوا - في بداية الامر - بالدوائر الشيوعية الكندية ، واتصل أعضاء هذه ، بدورهم ، بالمشايين للشيوعية أو الذين يعطفون عليها . . ونظمت اجتماعات لهؤلاء ، كانوا يلقنون فيها أساليب التجسس . وكانت السفارة تعنى بهم عناية فائقة ، لأنهم لم يكونوا شيوعيين ، ومن ثم كانوا بمأمن من الشبهات ! . . وكان زابوتين وأعوانه يهتمون بالعلماء والموظفين الحكوميين بوجه خاص ، ويبحثون حال كل واحد ينتقونه بحثا دقيقا ، حتى انهم كانوا يتحررون عن علاقاته برؤسائه المباشرين ، وأحواله المالية ، وأمانيه ، وميوله ، وموقفه ازاء سياسة بلاده ، ومدى نفوذ زوجته عليه !

وكانوا من البراعة بحيث استدرجوا بعض السذج الى شبكة الجاسوسية دون ان يظن هؤلاء الى ما كان يكمن وراء ذلك ، فلما انتبهوا الى ما تورطوا فيه ، حاولوا ان ينسحبوا ، ولكن فرصة الانسحاب كانت قد فاتت ! . . وكان زابوتين يعد لكل واحد ملفا خاصا ، ثم يلخص المعلومات التي جمعها عنه في بطاقة يرسل نسخة منها الى موسكو !

وفي الوقت الذي فر فيه جوزينكو من السفارة ، كان زابوتين منهمكا في مضاعفة أعوانه ، كما اقترح ايفاد بعثة تجارية روسية الى كندا ، ليتسلل معها عدد من الجواسيس الروس الى البلاد . . كل هذه الحقائق اكتشفتها لجنة التحقيق . . كما اكتشفت ان الشيوعيين كانوا مكلفين بالسيطرة على أكبر عدد ممكن من الجمعيات والنقابات ، بحيث لا يظن أعضاؤها الى انها أصبحت تحت اشراف الشيوعيين . . وبهذه الأساليب استطاع الجواسيس الروس ان يستغلوا رجالا كان من المحتمل ان ينفروا من الاتصال بالشيوعيين اذا انتبهوا الى حقيقتهم !

عالم بريطاني ينقل أسرار الذرة الى الروس !

♦ وكان نظام شبكة التجسس الروسية في كندا بسيطا في ظاهره ، ولكنه كان فعلا : كان كل فريق من الجواسيس المكلفين بمهمة واحدة ، ينتظمون في خلية لا يتصل بالروس منها سوى عضو واحد . . . وكان هذا العضو ينقل التعليمات الى أعوانه ، ويتلقى منهم المعلومات . . . وكانوا جميعا ينتحلون أسماء مستعارة وكانت هذه الخلايا تضم - فيمن كانت تضم من أعضاء - نساء كثيرات . وقد استطاعت المنظمة ان تدس احدهن ، وكانت تدعى « ايماء وويكن » ، في قسم السفارة بوزارة خارجية كندا ، الأمر الذي مكنها من الاطلاع على برقيات هامة ! . . . كما كان للمنظمة جاسوس يحتل مركزا رفيعا في ادارة الدخائر ، فاستطاع ان ينقل اليها بيانات عن التجارب والمتفجرات الجديدة بلغت من الدقة درجة لم يكن ليحلم بها أى جاسوس آخر !

وكان بين الجواسيس عدد من أصل روسى ، كما كان بينهم عدد من أصل بريطانى . . . بل ان واحدا منهم كان يتمتع بالجنسية البريطانية حتى ذلك الحين ، ومن ثم تولت السلطات البريطانية محاكمته . . . ذلك هو الدكتور « ألان نى ماى » . وكان عالما ذريا بارعا ، اشترك في التجارب الذرية الأولى في كندا . وقد استطاع - خلال عمله - ان يطلع على كثير جدا من المعلومات والبيانات عن الأبحاث الذرية وأعمال الهيئة المشرفة على « مشروع الطاقة الذرية » . وقد دلت التحريات على انه كان - قبل حضوره الى كندا - شيوعيا متحمسا ، في الخفاء ، وكان معروفا لدى السلطات في موسكو . وقد اتصلت به منظمة زابوتين عقب وصوله الى كندا ، وأطلقت عليه اسما مستعارا هو « اليك » ! . . . ولم تقتصر المعلومات التي قدمها على العمليات الفنية الخاصة بالقبلة الذرية ، بل انه ذهب في تحمسه الى درجة تقديم عينات من مختلف أنواع اليورانيوم الذي كان يستخدم في الأبحاث !

وقد رفض « ماى » - أثناء محاكمته - ان يذكر اسم الرجل الذى كان يتصل به ، ولكنه اكتفى بأن قال ان هذا الرجل كان روسيا ! ٠٠ على ان « ماى » لم يكن العالم الوحيد فى هذه الشبكة ، بل لقد كانت هناك خلية من الأساتذة المحترفين والى جانب ذلك ، كانت للجواسيس الروس فى كندا براعة فائقة فى تزوير جوازات السفر ٠٠ وكانوا يستخدمون الرشوة فى سبيل العبث بالملفات واستبدال الاستثمارات المزورة بالاستثمارات الأصلية وفقا لما يحقق مصلحتهم ! ٠٠ ولم يكشف هذه الطريقة الماكرة سوى ان كاتبها جاسوسا فى ادارة الجوازات وضع الاستثمارات المزورة فى الملفات ، ونسى ان يسحب منها الاستثمارات الأصلية ، فانتبه رؤساؤه الى المؤامرة !

وقد حنقت السلطات الروسية على ايجور جوزينكو أشد الحنق ، وحاولت بشتى الطرق ان تضع يدها عليه ، وذهبت الى حد مطالبة الحكومة الكندية رسميا بتسليمه اليها ، والى حد رفع دعوى عليه متهمة اياه بسرقة أموال من السفارة ٠٠ ولكن الحكومة الكندية لم تنظر الى شئ من هذه المحاولات نظرة جدية ، بل انها أحاطت « جوزينكو » بحراسة شديدة حتى لا ينتقم أعداؤه منه بقتله !

هذه القضية ٠٠ هزت اثنتى عشرة دولة !

♦ ولعل أهم ما أثارته هذه القضية هو : ما مدى المعلومات التى حصل عليها الروس بالوسائل التى اتبعتها شبكة الجاسوسية ؟ ٠٠ كان كل ما خرجت به لجنة التحقيق من تحرياتها فى هذا الصدد ، هو الآتى : « من المستحيل ان نعرف كمية المعلومات التى حصل عليها هؤلاء الجواسيس ، أو ان نقدر قيمتها ٠٠ فان العمليات ظلت مستمرة سنوات عديدة ، وليس فى شهادات الشهود ولا فى القرائن ما يوضح المدى الكامل لهذه

المعلومات .. ولكن الثابت هو ان الروس حصلوا على قدر كبير جدا من البيانات السرية ، من عدة مصالح وهيئات ووكالات حكومية !

وقد ذكرنا ان « ماي » قدم للروس بعض « عينات » من « اليورانيوم » المستخدم في التجارب الذرية، فتوصلوا الى بعض اختراعات حربية سرية ، تقدر قيمتها ببضعة ملايين من الجنيهات .. ولكن الخسارة الادبية كانت أكثر فداحة من الخسارة المادية، اذ ان ما تبين من سهولة اغراء الكنديين على التجسس لحساب روسيا ، كان صدمة زعزعت الروح المعنوية هناك !

ثم ان الاسرار التي سرقتها الجواسيس لم تكن اسرار كندا وحدها ، بل كان بينها اسرار تقسمها مع كندا دول أخرى ، كالولايات المتحدة التي كانت تتعاون معها في الأبحاث الذرية .. ومن ثم كان للقضية رد فعل في حوالى اثنتي عشرة دولة ! .. ففي بريطانيا ، بادرت الحكومة الى تطهير المناصب الكبرى ، التي يخشى على ما تحت أيدي أصحابها من وثائق ، لا سيما بعد ان أثبتت عمليات التجسس في كندا ان معظم الجواسيس الخطرين لم يكونوا شيوعيين قط ! .. على ان رد الفعل في الولايات المتحدة كان أشد وأقوى ، اذ اكتشفت السلطات ان ثمة شيوعيين وموالين للشيوعية في كل مكان من البلاد .. ودارت المناقشات في طول الولايات المتحدة وعرضها عن المعاني الكامنة وراء عبارة : « الشيوعي الأمريكي » .. أهو مجرد مواطن يؤمن بمذهب سياسى معين ؟ وهل في وسع الشيوعى ان يحتفظ بتحمسه للشيوعية وبولائه لوطنه أو للبلد الذى اتخذه موطناً ، في آن واحد ؟ .. وبلغ الاستنكار الشعبى مدى بعيداً ، حتى ان محكمة الاستئناف الجنائية في الولايات المتحدة ، أصدرت حكماً في سنة ١٩٤٧ بأن « من الأمور التي يؤاخذ عليها القانون ، ان يصف انسان غيره ، أو أن يصف هيئة بأنها شيوعية أو موالية للشيوعية ، لأن لفظ « شيوعى » أصبح يدل - في عقول كثير

من الأشخاص المحترمين ! - على صفة تحط من قدر المرء وتجعله هدفا لكرهية الجمهور » !!
 وكان من نتائج هذه القضية ، ان ضاعفت سلطات الأمن في الدول الغربية - وفي كندا والولايات المتحدة وبريطانيا بالذات - جهودها ، وأخذت تراقب كل من تحوم حوله أتفه الشبهات ، من العاملين في الأبحاث الذرية والحربية . وكان من هؤلاء شخص لم يلبث ان دمع بوصمة الجاسوسية . . ذلك هو الدكتور « كلاوس فوخس » ، الذي سأحدث عنه بعد ان أستعرض معك الجاسوسية بين «الحلفاء» ، في فترة الحرب العالمية الثانية !

الفصل الخامس والعشرون

مؤامرة ألمانية لاغتيال ستالين وروزفلت وتشرشل

♦ عندما أشرفت الحرب على نهايتها ، رأى أقطاب الحلفاء ان يجتمعوا لدراسة حالة العالم بعد الحرب ، فوضعوا نواة النظام الدولي الجديد ، وبتوا في مصائر زعماء الدول المهزومة ، واتفقوا على المبادئ الأولية لميثاق الأمم المتحدة . وقد بحثت كل هذه الموضوعات في ثلاثة مؤتمرات هامة ، عقدوها في (يالتا) بالقرم ، وفي (القاهرة) بمصر ، وفي (طهران) بايران .
 ومما يؤثر عن روزفلت ، الرئيس الأمريكي الأسبق ، انه كان يردد - عندما عقد الاقطاب الثلاثة مؤتمر يالتا - القول الآتي : « سواء وجد في يالتا جاسوس أو لم يوجد ، فان الأمر الذي لا شك فيه هو انه كان ثمة جواسيس في مؤتمر طهران » . .
 فقد كان مؤتمر طهران - الذي عقد في ديسمبر سنة ١٩٤٣ - هو المناسبة الأولى التي جمعت بين روزفلت وتشرشل وستالين بأشخاصهم . وعندما وصل روزفلت الى العاصمة الايرانية ، كانت قوات روسيا تحتل النصف الشمالي من ايران ، بينما

كانت القوات الانجليزية والأمريكية تحتل النصف الجنوبي ،
اذ كانت ايران من أهم المناطق التي كان الحلفاء يوافون الروس
بامداداتهم عن طريقها . .

وكان مبنى السفارة الأمريكية في بقعة شبه منعزلة عن
المدينة . وما ان استقر روزفلت فيه ، حتى تلقى رسالة غريبة
من ستالين ، جاء فيها : « هناك مؤامرة هتلرية للقضاء على
ثلاثتنا ، فالمدينة مليئة بالجواسيس الألمان . فهلا جئت وأقمت
معي في السفارة السوفييتية ؟ » . . واستجاب روزفلت للدعوة ،
فانتقل الى السفارة السوفييتية ، فاذا بها قد تحولت الى قلعة
حصينة . . وقد ظل فيها الى ان انتهى المؤتمر

ولقد كان ستالين صادقا فيما ذكره عن الجواسيس ، اذ ان
نبا المؤتمر لم يكن محوطا بتكتم كاف . . ولكنه كان مغاليا فيما
ذكره عن المؤامرة . . أو بالأحرى ، ان المؤامرة لم تكن قائمة حين
كتب رسالته . فقد وضعت المخابرات السرية الألمانية في الشرق
الأوسط خطة للقضاء على الاقطاب الثلاثة ، وعينت لتنفيذها
ضابطين وستة أفراد من « الجستابو » . . ولكن كثرة عدد
المتآمرين كانت السبب في فشل هذه الخطة ، اذ لم يلبث أحد
المكلفين بمعاونتهم - من جواسيس الألمان المندسين في ايران -
ان أفشى سر المؤامرة للحلفاء ، فسرعان ما نشطت سلطاتهم الى
تعقب المتآمرين حتى عثرت عليهم مختفين لدى أحد زعماء القبائل
. . ولكنها لم تعتقلهم ، بل تركتهم ليطمئن الألمان ، ثم ضربت
ضربتها في اللحظة الأخيرة ، فاعتقلت أفراد « الجستابو » الستة
وعرضا كبيرا من الجواسيس

أسرار أمريكا العليا . . في أيدي الشيوعيين !

♦ وكان الاجتماع التالي للاقطاب الثلاثة في (يالتا) ، في
فبراير سنة ١٩٤٥ . . ولم يكن ثمة خوف من الجواسيس
الألمان في هذه المرة ، اذ كانت هزيمتهم شبه محققة . . ومع ذلك

فإن بوليس الأمن السوفييتي أبدى نشاطا فائقا ، لأن (يالتا) تقع في أرض سوفيتية ، فكان الأقطاب الثلاثة أشبه بوديعة في عنق روسيا !

ولقد كان مؤتمر يالتا يفوق مؤتمر طهران أهمية ، إذ بحث فيه الأقطاب الحطط النهائية للأجهزة على ألمانيا وتقسيمها إلى مناطق احتلال ، كما تضمنت القرارات التي أسفر عنها مادة سرية بشأن دخول روسيا الحرب ضد اليابان . وتناول البحث كذلك : مسائل التعويضات ، ومساعدة الدول المتحررة ، ورسم الاداة الخاصة لاعداد العدة لقيام الأمم المتحدة . .

وليس هنا مجال الحكم على القرارات التي اتخذت في ذلك المؤتمر ، ولكننا نكتفي بأن نشير إلى أن روسيا كانت أكثر الحليقات الثلاث كسبا فيه . . وأن بذور الخلاف الذي ظهر بعد ذلك واستفحل ، بين روسيا وبين أمريكا وبريطانيا ، إنما بذرت في ذلك المؤتمر بالذات !

والواقع أن اتفاقية (يالتا) وضعت شرق أوروبا كله تقريبا تحت سيطرة روسيا ، وأدت إلى اضطرابات لم يسمع بمثلها في آسيا من قبل ! وتدل سجلات المؤتمر على أن ستالين كان قد حدد أهدافه ، فسعى إليها بكل ما في وسعه ، ووجد من تشرشل وروزفلت استجابة لمعظم مطالبه ! . . ولقد أثار مسلك الزعيمين الغربيين انتقادات مريرة ، حتى لقد اعتبر هذا المسلك - في نظر عدد من قادة الرأي في إنجلترا وأمريكا - بمثابة تسليم منهما لستالين . . فلماذا تراهما قبلا هذا الوضع ؟

يقول أصدقاء روزفلت - في هذا الصدد - أنه كان يدرك ما في الاتفاقية من أخطار ، ولكنه كان يعتقد أن نفوذه الشخصي لدى ستالين كان من القوة بحيث يمكنه من توجيه الاتفاق طبقا لتفسيره الخاص . . ولعل روزفلت كان مسرفا في التفاؤل ، ولكنه - على كل حال - لم يعيش حتى يجرب ذلك ! . . أما تشرشل ، فقد حاول أن يبرر موقفه في مجلس العموم - في

٢٧ فبراير سنة ١٩٤٥ - بأن تعلل بأن نجاح الاتفاقية أو فشلها انما يعتبر نتيجة لتباين معاني « الديمقراطية » و « الانتخابات الحرة » لدى كل من الشرق والغرب ! ٠٠ وعلى كل حال ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو ان تشرشل وروزفلت يجهلان مسئولية المتاعب التى يعانيتها العالم اليوم ، والتى نبعت من مقررات يالتا ! ترى هل كان الزعيمان الغربيان من الضعف والتراخي بحيث جرفت هما الدبلوماسية الروسية ؟ ٠٠ اننى لا أبغى التصدى للاجابة عن سؤال كهذا ، ولكن قد يكون ثمة تفسير آخر لحقيقة الموقف الذى جرى فى (يالتا) ، فلنبحث عنه فى القصة التالية :

ان الأمريكين يعجبون عادة بالشباب الناجح الذى يبني حياته بجهوده ٠٠ ومن ثم كان اعجابهم شديدا بشباب يدعى « الجير هيس » ، ولد لأسرة متوسطة كانت تقيم فى (بلتيمور) ، وأبدى فى مختلف مراحل دراسته تفوقا ، كما كان فى طليعة خريجي جامعة (هارفارد) ، مما سمح بتعيينه - فور تخرجه - فى منصب قانونى هام . ولازمه النجاح ، فأخذ يتنقل من منصب الى آخر أرفع منه ، حتى اذا كانت سنة ١٩٣٦ عين فى منصب مرموق فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ثم بلغ ذروة النجاح فى سنة ١٩٤٥ ، اذ عين سكرتيرا عاما للمؤتمر (سان فرانسيسكو) الذى وضع ميثاق الأمم المتحدة ، وافتتح بنفسه أول اجتماع لهذا المؤتمر التاريخي !

هذا النوع من قصص النجاح الذى يكتسب بالعمل والذكاء ، لا بالحسب والجاه ، يستهوى الأمريكين . ومن هنا كان اعجابهم بشخصية « الجير هيس »

وحدث فى سنة ١٩٤٨ ، ان أجرى تحقيق مع شيوعى أمريكى سابق يدعى « هويتاكر تشامبرز » ، فاذا الرجل يعترف بكل نشاطه السابق ، فيدوى هذا الاعتراف كالقنبلة ! ٠٠ فقد ذكر انه كان عضوا فى عصاةة للتجسس ، ولكنها لم تكن على نسق

عصابة «جوزينكو» في كندا ٠٠ وكان - عندما بدأ هذا النشاط - شيوعيا مثاليا ، وقد تولى نقل رسائل خلية كانت تسرق أسرار وزارة الخارجية الأمريكية ، فكان يسلمها الى جواسيس من الروس ، ذكر منهم - بوجه خاص - الكولونيل بيكوف ، الذى كان رئيسا للمخابرات العسكرية السوفيتية فى الولايات المتحدة ، وكان ينتحل لنفسه فى العصابة اسم « بيتر » ٠٠ على ان تشامبرز ما لبث ان شعر - كما قرر فى اعترافاته - بأن الشيوعية ليست بالعتيدة المثلى ، وكان من جراء تبدد يقينه فيها ان انقلب فصار من أعدائها ٠ وعندما استدعى أمام لجنة من لجان الكونجرس - وكان قد أصبح رئيس تحرير مجلة واسعة الشهرة - تبرع بذكر أسماء الذين كانوا يشتركون معه أيام كان جاسوسا ٠٠ وشدد ما كانت دهشة الجميع حين ذكر اسم « الجير هيس » بين تلك الأسماء ، وتماذى فأذاع اتهامه لهيس فى حديث بالراديو ، فما كان من هيس الا ان رفع الأمر للقضاء واتهمه بالتشهير به

وترى تشامبرز حتى اتخذت الدعوى سيرها القانونى ، ثم استخرج من مخبأ سرى - فى قطعة من أثاث بيته - حزمة من الوثائق يرجع عهدها الى عشر سنوات سابقة ٠٠ أى أيام كان ينقل الرسائل للجواسيس الروس ٠ وبهت المحامون حين تبينوا انها كانت وثائق سرية تتصل بالسياسة العليا لوزارة الخارجية الأمريكية ، وكان عددها خمسا وستين ٠٠ وقد كتب بعضها بخط « هيس » !

وسخر « ترومان » - وكان رئيسا للجمهورية اذ ذاك - من القضية ، وزعم انها حيلة سياسية من منافسيه استعدادا للانتخابات ، اذ كان « الجير هيس » من كبار موظفى حكومته ، ومن شأن أية وصمة تصيبه ان تمس برشاشها رئيس الحكومة ٠ ومما يذكر ان ترومان نجح فى الانتخابات ، ولكن عددا كبيرا من أعضاء لجنة مجلس الشيوخ - التى تولت التحقيق مع

تشامبرز - نجحوا هم الآخرون ، فاستأنفوا التحقيق . وهنا قال تشامبرز انه قبل عشر سنوات ، أعطى أحد أقاربه مظروفا مختوما بالشمع الأحمر ، وسأله ان يسلمه للسلطات ، ان أصيب هو - أى تشامبرز - أو زوجته بسوء بعد خروجه على الشيوعية ! . . وذكر انه استرد المظروف بعد ذلك ، وأخفاه في مزرعة له بماريلاند . ومن ثم أوفد أحد رجال المباحث التابعين لوزارة الخارجية الى المزرعة ، فعثر على المظروف ، وتبين ان فيه شرحا لما ذكره تشامبرز ، وعشرات من الأفلام الدقيقة الحجم ، التى التقطت لوثائق دبلوماسية أمريكية سرية جدا !

وترنحت لجنة الكونجرس لفرط الدهول ، لا سيما حين أثبت تشامبرز ان « هيس » هو الذى أسلمه تلك الوثائق فى سنة ١٩٣٨ ، ونسخ بعضها بخطه ! . . واستحوذت القضية على اهتمام الرأى العام الأمريكى ، فضاعت جهود ترومان فى التقليل من شأنها . . واستفلت العناصر السياسية هذه الضجة ، فأخذ السياسيون يزجون بأسماء بعضهم بعضا فى القضية نكاية ودسا ! . . واختلف المحلفون فى المحاكمة الأولى ، ولكن الاتهام جاء بشهود جدد ، بينهم « هيدى ميسنج » ، وكانت زوجة سابقة لزعيم شيوعى ألماني ، كما كانت جاسوسة . . وقد أقسمت على ان « هيس » كان شيوعيا ! . . كذلك شهدت خادم كانت تعمل لدى « هيس » بأن مخدمها اعتاد ان يزور دار تشامبرز فى (بلتيمور) قبل عشر سنوات . . ثم ظهر دليل قوى ، تمثل فى ان بعض الوثائق نسخ بالة كاتبة كانت خاصة بهيس !

وفى يناير سنة ١٩٥٠ ، أدين هيس لتجسس له حساب روسيا ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات !

واذا كان تشامبرز قد أفشى أسرار هيس التى عرفها قبل عشر سنوات ، فان أحدا لم يعرف ما كان من نشاط هيس التجسسى بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٤٨ . . والذى يعيننا من أمر

هيس انه كان من معاونى روزفلت فى مؤتمر (يالتا) فى سنة ١٩٤٥ ، كما كان من بين الذين رافقوا روزفلت للاقامة فى السفارة السوفيتية فى طهران ، عندما أشفق ستالين على حياة الرئيس الأمريكى ، أثناء المؤتمر الذى عقد فى العاصمة الايرانية !!

الفصل السادس والعشرون

قضية الدكتور كلاوس فوخس

♦ عندما اخترع الألمان مدفعهم الجبار « برتا الكبير » ، رموا بحممه العاصمة الفرنسية من مسافة ٧٥ ميلا - فى سنة ١٩١٨ - استنكر عملهم قس ألماني كان بفطرته يمقت الحروب ، وآلى على نفسه أن يبشر بالسلام . فلما قدر لألمانيا أن تنهض ثانية - عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى - وبدأ الاشتراكيون يسيطرون على شئونها ، ويسعون الى القوة ، ويبشرون روح العنف فى الحركة الوطنية ، أبى القس على ابنه « كلاوس » أن يشترك فى هذه الحركة ، وراح يحدثه عن الاخاء والسلام والوثام الدولى

وانصاع الابن لتعاليم أبيه ، وتحمل فى ذلك ألوانا من السخرية المقذعة التى كان زملاؤه فى المدرسة - ومعظمهم من أبناء الجنود - يصبونها عليه . ولكن « كلاوس » لم يلبث ان التحق بجامعة (كييل) ، واذا ذاك لم يجد نفسه وحيدا فى النفور من النازية ، اذ كان بين الطلبة من يتحدثونها علانية . . لانهم كانوا شيوعيين ! . . وبقدر ما كان عقل « كلاوس » جبارا فى التحليل العلمى والرياضى ، فانه كان ساذجا ازاء الحجج السياسية ، ومن ثم تقبل فى بساطة الأفكار المتطرفة التى كان الشيوعيون يبشرون بها وتتابعت التطورات فى الميدان السياسى ، فاذا النازيون

يستولون على أزمة الحكم ، فيضطهدون كل من لم يؤمن بمذهبهم . . . واعتقلوا القس « فوخس » وساموا ابنته العذاب حتى انتحرت . . . أما ابنه « كلاوس » فقد استطاع أن يهرب الى انجلترا !

وهناك أحس « كلاوس » بالوحدة ، وبالحاجة الى أن يتبين حقيقة نواذعه وآرائه : كان يميل الى ما يكتبه الشيوعيون عن مبادئ الأخوة والسلام والوثام الدولى . . . وكان يميل الى الدين . . . وكانت نظرته الى المستقبل - حتى ذلك الحين - مائعة ، مضطربة . . . وظل العلم هو العنصر المسيطر على عقله الى أن فاز بالدكتوراه من جامعة أدنبره - فى سنة ١٩٣٨ - وتوقع له أساتذته ان يصبح بين طلائع رواد الميدان العلمى الجديد : ميدان الذرة ! على أنه لم يلبث ان اعتقل عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، وأرسل الى كندا . فقد كان ألمانيا ، وكانت تدبيرات الأمن تضع كل ألماني فى انجلترا موضع الشك . وكان هذا الاجراء صدمة للعقيدة التي كانت قد بدأت تتكون فى ذهن العالم الشاب عن الديمقراطية الغربية ، فاذا ايمانه فى الشيوعية يتجدد . على أنه لم يقض فى المعتقل أكثر من عام تقريبا ، ثم أطلق سراحه وأعيد الى انجلترا حيث عين بجامعة بيرمينجهام للعمل تحت اشراف أحد الخبراء الذين كانوا يتوفرون على الأبحاث الذرية ، فأبدى الشاب من العبقرية ما جعل السلطات تمنحه الرعوية البريطانية بعد عام . وما ان أقسم « كلاوس » يمين الولاء لوطنه الجديد ، حتى اختير عضوا فى فريق من علماء الذرة البريطانيين ، أوفد الى أمريكا للعمل مع الفريق الأمريكى الذى كان متوفرا على الأبحاث الذرية . وهناك ، أتيح لكلاوس - بحكم مركزه - ان يطلع على أهم الأسرار الذرية . . . وكان من زملائه الدكتور « ألان نى ماى » الذى روينا قصته من قبل !

وكان الجواسيس الروس قد سعوا الى الاتصال بكلاوس فى انجلترا من قبل ، واستطاعوا أن يقنعوه بأن واجبه الانساني يقتضيه ان يعاون القضية الشيوعية عمليا ، وان سلطان الطبقة العاملة - ممثلا فى نظام الحكم القائم فى روسيا - لن يلبث ان يتداعى تحت ضغط حلفائها السابقين ، ما لم تتمكن روسيا من ان تبارى بريطانيا وأمريكا بالذات ، فى مضمار القوة . . . وكانت تنتاب « كلاوس » فترات من الاضطراب ، اذ يستيقظ ضميره ليهيب به انه خائن للبلاد التى ائتمنته ووثقت فيه . ولكن الروس كانوا يلاحقونه باغرائهم وبأموالهم ، حتى انصاع وأصبح تحت رحمتهم . . . وبينما كانت « القنبلة الذرية » تهر بأخر مراحل التجربة ، ظل جاسوس روسى على اتصال مستمر بالعالم الشاب ، متبعا فى اتصالاته أساليب بارعة لم تعرضه أو تعرض كلاوس لأية شبهة !

وعندما تمت هزيمة دول المحور ، عاد كلاوس الى انجلترا ، حيث عين فى منصب من مناصب المسئولية الرئيسية فى أول مركز للأبحاث الذرية فى انجلترا ، وهو مركز أبحاث (هارويل) . وهناك ، خفت وطأة العجلة التى كانت تتطلبها حاجة الحرب ، فبدأ كلاوس يجد متسعا من الوقت لامعان الفكر . . . وبدأت الهواجس تراوده ، اذ تناهت الى انجلترا الضجة التى أحدثتها قضية الجاسوسية الروسية فى كندا ، واسترعى انتباه كلاوس بالذات ما تجلى خلال تلك القضية من استغلال الشيوعيين السذج فى التجسس . . . وزاد من هواجسه ان أيقنت السلطات الامريكية - عندما فجرت روسيا أولى قنابلها الذرية - ان الروس ولا بد قد تلقوا معونة من الخارج كشفت لهم أسرار العمليات الذرية ، فبدأ رجال مكتب التحريات الاتحادى - فى أمريكا - و « القلم الخاص » فى اسكتلنديارد بانجلترا ، يتحرون الأمر . . . وحصروا شبهاتهم

اولا فى العدد القليل من العلماء الذين كانوا يشتركون فى تلك العمليات ، فاخذوا يفحصون حالاتهم واحدا بعد آخر ، حتى تركزت الشكوك فى ستة من هؤلاء العلماء .. كان بينهم كلاوس فوخس !

وفى تلك الاثناء ، كانت الهواجس قد استبدت بالعالم الشاب ، وأصبح ذهنه مسرحا لافكار متضاربة متصارعة ، فلم يجد سبيلا الى التخلص من هذا التوتر المرهق الا بالاعتراف !

كلاوس ينتمى الى هذا الجيل .. الحائر !

♦ وكان اعترافه وثيقة عجيبة ، تنم عن حيرة الجيل الجديد من الجواسيس وتخبطهم .. وتدل فى الوقت ذاته على الاضطراب الفكرى الذى يسود عصرنا الحالى ! .. ووجد النائب العام - فى انجلترا - انه ازاء قضية بلغت ذروة الخطورة ، ولست أجد خيرا من أن أنقل بعض فقرات من قرار الاتهام : « لم يعد هناك ريب فى ان المعلومات التى أفشيت خليقة بأن تكون ذات فائدة عظمية لاية دولة تناصبنا العدا .. وقد لا تصبح الدولة التى قدمت اليها الاسرار عدوا لنا يوما ما .. فمع أن علاقاتنا بالاتحاد السوفييتى لا تزال فى حاجة الى كثير من الامور المرغوب فيها ، الا انها ليست علاقات معادية » .. « فى البيان الذى أفضى به السجين ، اختلطت الدوافع بالحقائق دون ما تفسير واضح : فالسجين شيوعى ، وهذا هو التفسير المباشر وموطن المأساة فى القضية .. اذ أن اخلاصه للشيوعية طغى على تفكيره الى حد جعله مزدوج الشخصية ، فاذا بالجزء المسيطر على سواه من اجزاء عقله ، يسمح له بأن يأتى اشياء كانت تلك الاجزاء الاخرى تعترف صراحة بانها تصرفات خاطئة » .. وكان النائب العام يعنى بذلك ان ولاء

المتهم للشيوعية طفي على كل ولاء آخر ، وجعله يأتي من الأعمال ما كانت مبادئه واتجاهاته الفكرية الأخرى تعينه .
ونقل النائب العام فقرات من بيان فوخس للتدليل على ذلك : « عندما علمت بالغرض المقصود من العمل الذي انتدبت له ، رأيت ان أبلغ روسيا الأمر ، فاتصلت بعضو آخر في الحزب الشيوعي ، ومنذ ذلك الحين أصبحت على اتصال مستمر بأشخاص لم أكن أعرف عنهم سوى شيء واحد ، هو انهم على استعداد لأن يقدموا كل ما لديهم من معلومات الى السلطات الروسية . . . وكنت اذ ذاك أثق ثقة تامة في السياسة الروسية ، كما كنت أعتقد ان الحلفاء الغربيين تعتمدوا اشغال نار الحرب بين ألمانيا وروسيا حتى تقضي كل منهما على الأخرى ! ولذلك لم أتردد في ان أفضي للروس بكل ما كان لدى من معلومات ، وان حاولت - رغم ذلك - ان أركز تلك المعلومات في نتائج العمل الذي كنت أقوم به . . . واستغللت فلسفتي الماركسية في تقسيم عقلي الى قسمين منفصلين ، سمحت لنفسى في أحدهما بأن أرتبط بصداقات وعلاقات شخصية ، فألتقي بالناس وأصبح في علاقتي معهم الرجل الذي كنت أرجو ان أكونه ، بل والذي كنته من قبل - الى حد ما - في علاقتي الشخصية بمن كان لي من أصدقاء في الحزب الشيوعي » . . .
أما القسم الثاني ، فهو الذي سمح فوخس لنفسه فيه بأن ينقل نتائج أبحاثه العلمية الى روسيا . ولقد حاول ، عندما طلبت منه السلطات الروسية مزيدا من التفاصيل عن القنبلة الذرية ، ان يقتصر على ابلاغها نتائج عمله فقط . على انه عندما عين في (هارويل) بعد ذلك ، بدأ يمحس المعلومات التي كان يقدمها

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، أوفد فوخس الى أمريكا لمواصلة أبحاثه ، فجدد العهد بأن يصون أسرار عمله . وقضى ١٨

شهرًا في أمريكا ، بعضها في نيويورك وبعضها في نيو مكسيكو . وقد عقد عدة اتصالات مع الجواسيس الروس في تلك الاثناء . ثم تناهت الاثناء من أمريكا عن تسرب أسرار ذرية في الفترة التي كانت البعثة البريطانية فيها هناك ، فأجريت تحريرات واسعة النطاق ، انحصرت الشبهات في نهايتها في فوخس . . . وسواء شعر بها أم لم يشعر ، فانه كان يحس بقلق وعدم اطمئنان الى مسلكه . وقد عبر عن ذلك في اعترافاته بقوله : « وفي أعقاب الحرب ، بدأت أشعر ثانية بهواجس ازاء السياسة الروسية . وفي تلك الفترة لم أعد واثقا ان بوسعى ان أمضى في اعطائهم ما لدى من معلومات . . . وتجلي لى - أكثر من ذي قبل - ان الوقت الذى يتم فيه لروسيا بسط نفوذها على أوربا جد بعيد ، فكان على ان أقرر ما اذا كنت أمضى في نقل المعلومات اليهم سنين عديدة أخرى ، دون أن أكون متأكدا في نفسى من اننى كنت على صواب فيما أفعل . . . وانتهى رأى الى اننى لن أستطيع . وتخلفت عن موعد كان بينى وبينهم - لأننى كنت مريضا اذ ذاك - كما قررت ان لا أذهب فى الموعد التالى . وبعد ذلك بقليل ، أنبأنى أبى بأنه قد يرحل الى المنطقة الشرقية من ألمانيا »

وبعد أشهر قلائل ، أخذ فوخس يزدد اقتناعا بوجوب تخليه عن عمله فى (هارويل) . . « على اننى بدأت أرى بوضوح اننى سأوجه ضربة قاصمة لهارويل ولكل العمل الذى أحبيته ، اذا أنا رحلت . . . كما اننى سألقى الشكوك على أصدقاء أحببتهم ، وعلى أشخاص كانوا يرون فى صديقا لهم . . . واذا ذاك تبينت أن الجمع بين المبادئ الثلاثة التى كونت شخصيتى ، كان جمعا خاطئا . . . بل ان كل مبدأ منها كان خاطئا فى حد ذاته . . . وتبينت ان ثمة معايير معينة للسلوك الخلقى لا يمكن اغفالها ! ولقد استغل الدفاع عن فوخس ذلك التوتر الذهنى الذى

كان العالم الشاب يعانیه ، فی مناشدة المحكمة ان تترفق فی الحكم علیه . . وأسهب فی وصف حيرته العقلية ازاء ما اعترض حياته - فی صباه - من تضارب بين الآراء النازية والشيوعية . . ثم ازاء تضارب الأحداث فيما بعد

ولم يشأ فوخص ان يعقب بعد ذلك الا بشكر هيئة المحكمة ، وهيئة الدفاع ، وهيئة السجن ، على معاملتهم وكان القاضي لاذعا فی التعليق الذي وجهه الى المتهم عندما قضى عليه بالسجن أربعة عشر عاما ، اذ قال : « لقد استغللت - وانت هارب من الاضطهاد السياسي فی ألمانيا - حقوق وكرم البلاد التي لذت بها . . وخنث الضيافة والحماية اللتين بسطا لك بأشجع غدر . . وفي رأيي ان هناك أربعة أمور أراها أخطر وجوه الجريمة : أولا ، انك بسلوكك عرضت للخطر حق الايواء الذي كانت هذه البلاد تبسطه للاجئين من قبل . . فكيف نجرؤ الآن على ان ناوى لاجئين سياسيين قد يكونون من اتباع هذه العقيدة السياسية التي تعادى عقيدتنا ؟ . . وثانيا ، انك لم تقتصر على افشاء مشروعات ومخترعات من انتاج ذهنك ، بل انك خنت أيضا أسرار غيرك من العاملين فی هذا الميدان من ميادين العلم ، لا فی هذه البلاد وحدها ، بل وفي الولايات المتحدة ، وألقيت أخطر الشبهات على أولئك الذين كنت تتظاهر بأنك صديقهم . . وثالثا ، انك ربما تكون قد عرضت للخطر ما بين هذه البلاد والجمهورية الامريكية من علاقات طيبة . . ورابعا ، انك ألحقت بهذه البلاد وبالولايات المتحدة أضرارا لا تعوز ، ولا يمكن معرفة مداها . . وقد فعلت كل ذلك لغرض واحد - كما يظهر من اعترافاتك - هو تعزيز عقيدتك السياسية . . فأننى أحب ان أسلم بأنك لم تفعل ذلك لكسب المال ! على اننى لست أحكم عليك لأعاقبك ، فان العقاب بالنسبة لرجل له مثل عقليتك لا يعنى شيئا ، وانما يدعونى واجبى الى

ان أوقع بك العقوبة حماية لهذه البلاد . . اذ كيف أطمئن الى انك لن تسمح لعقلك فى أية دقيقة أخرى بأن يسير بتلك الطريقة الغريبة ، فيفضى بك الى افشاء أسرار لها أعظم قيمة وأهمية فى هذه البلاد ؟ ! »

خطر العلماء . . على البشرية !

♦ ولا تكاد توجد قضية من قضايا التجسس أثارت مشاعر الرأى العام مثل هذه القضية ، اذ هزت رجل الشارع هذا ! كانت قضية التجسس فى كندا قد كشفت بجلاء عن ان ثمة شبكة للجاسوسية الروسية فى انجلترا ، وفى أوساط علمائها بوجه خاص . . ولكن الرأى العام البريطانى أبى ان يصدق ان مثل هذه الشبكة يمكن أن تقوم فى بلاده . فلما صدم بقضية فوخس ، راح يهاجم فى غضب نظام الأمن فى انجلترا . . ولكن أية دولة لا تصيب من الأمن الا بقدر ما تبذل من جهود ويقتطع واستعداد !

ومن الحقائق المذهلة التى أظهرتها هذه القضية ، هو اننا نزداد اعتمادا فى حياتنا الحديثة على العلم ، دون أن ندرك منه الا القليل ، مما يجعلنا تحت رحمة العلماء بدرجة هائلة ، ويمكنهم من ان يقرروا بنا بسهولة اذا شاءوا . . وقد لاحظنا أن هناك علماء بارعين فى ميادينهم ، ولكنهم فى تصرفاتهم يهبطون الى مصاف الأطفال السذج !

ولكن مما يتجافى مع المنطق ان ننظر الى قضية فوخس على انها وحدة قائمة بذاتها ، بل يجب ان نربط بينها وبين الماضى - قضية التجسس الكندية - وبينها وبين المستقبل . . فليس من شك فى ان سير التجسس قد اتخذ طريقا جديدا ، وأصبح يستعين بوسائل حديثة - الى جانب القديمة - ومن ثم وجب ان تتغير نظرتنا اليه ، ووسائلنا فى مقاومته !

الفصل الختامي

مستقبل الجاسوسية

♦ على الرغم من ان الشجاعة التي يبديها الجاسوس الذي يعمل لصالح بلده تخفف من قبح الجاسوسية وشناعتها ، الا انها لا تمحو تماما ما في مهمة الجاسوس من صفة ممجوجة . فلماذا اذن تسكت عنها الشعوب وترتضيها أحيانا ؟ الواقع ان الجاسوسية في حد ذاتها ليست علة أو سببا ، وانما هي نتيجة ، أنمتها الحروب المتعاقبة ، والخوف من الحروب . فلو اننا استطعنا ان نمحو الحروب ، لتلاشت الجاسوسية !

ان ثمة ضبابا كثيفا يلف أوروبا والشرط الأكبر من العالم اليوم . . ضباب الشك والتوجس ، الذي لا يثير الاضطراب شيء مثله . فأنت لا تدري ما اذا كانت اليد التي تمتد اليك تبغى أن تأخذ بيدك وترشدك ، أو انها تمتد لتتشل ما في جيبك !

وهذا الضباب العالمي قديم العهد ، طويل العمر ! وليس من الانصاف ان يلقي عبء تنميته كله على روسيا وحدها . بل ان أكبر ذنب أتاه زعماء السوفييت هو انهم لم يستغلوا الفرصة التي سنحت - عندما حانت ساعة النصر في سنة ١٩٤٥ - لتبديد هذا الضباب ، فجعلوا سياسة الدنيا يقضون الساعات الطوال في مناقشة آثاره ، دون أن يذكروا أسبابه الاصلية . . ومن ثم فان الضباب يزداد تكاثفا ، وشرور الحرب لا تزال تخيم على أفق العالم . . فلا نجد ركنا في الأرض يخلو من القلق والهواجس . . وكل هذا خليق بأن يؤخر كل تقدم حقيقي !

ولسنا تجاوز المعقول في شيء ، اذا قلنا ان في العالم اليوم من الجاسوسية الحربية والبحرية والجوية أكثر مما كان فيه ،

فى أية فترة من فترات السلام (١) . . . وكل ما هنالك هو ان أسلوب التجسس قد تغير . . . فأصبح رجال المخابرات الموكلون بتصيد الجواسيس - فى البلاد الديموقراطية - هم أكثر الناس عناء وتعرضا للارهاق . ثم ان مراقبة الخونة من أهل البلاد تعتبر أشق بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب . ذلك لأن الأجنبي عرضة لأن يفضح نفسه بأتفه خطأ يبدية نتيجة جهله بالعادات المحلية . أما الخائن لوطنه ، المتجسس فى داخل بلاده لدولة أجنبية ، فمواطن كغيره من المواطنين ، لا يختلف عنهم فى شئ الا بأفكاره وآرائه - وهى أشياء يمكن ان تختفى وراء مظهر خادع - فضلا عن انه يعرف بلاده ، وله كل حق قانونى فى أن يتنقل فى أرجائها . . . ومن ثم نرى بجلاء ان مراقبة الخونة المحليين أصعب بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب

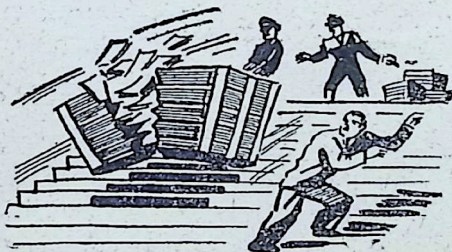
مستوى الدبلوماسية . . فى انهيار مستمر !

♦ ولقد يسخر الشباب الحديث من أسلافه ، ولكن بعض أساليب الأجيال الماضية كانت أسمى من أساليب الأجيال الراهنة من الناحية الخلقية . . . اذ أثبتت القضايا الحديثة هبوطا عاما فى المستوى الخلقى الدولى : فلم تعد « المعاهدة » اليوم وثيقة مصونة محترمة ، ولكنها أصبحت وسيلة للخداع . . . وصارت « كلمة الشرف » غير ذات معنى تقريبا !

وقد امتد انهيار المستوى العام للأخلاق الى الميدان الدبلوماسى ، الذى كان من قبل نظيفا فى أساليبه الى حد كبير . ولا يخفى الروس ايمانهم بذلك ، فهم يعتبرون كافة الدبلوماسيين الأجانب فى بلادهم جواسيس . . . ومن

(١) ثبت فى قضية شبكة الجاسوسية المعروضة امام القضاء المصرى الآن ، ان الجواسيس كانوا على اتصال ببعض ملحقى السفارة البريطانية بالقاهرة .

الطبيعى ان يتوقع غيرهم ان يكون كافة الموظفين الروس فى الخارج جواسيس لبلادهم أيضا ! .. وكان الألمان أبعد الناس عن ان ينساقوا للاوامر ازاء هذا الأمر . وقد حدث ذات مرة ، ان وصل الى ألمانيا دبلوماسى روسى - من حملة الحقائق الديبلوماسية - ومعه اثنا عشر صندوقا خشبيا كبيرا ، فراودت الهواجس أحد الألمان المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، ومن ثم أوعز الى أحد حمالى محطة (فريديريكسهافن) - إحدى محطات السكة الحديدية ببرلين - بأن يتعمد اسقاط أحد الصناديق على الأرض .. وعندما تهشم الصندوق ، تناثرت منه ألوف من المنشورات الثورية !



ولقد كانت الحصانة الديبلوماسية امتيازا عظيم القيمة يوما ، ولكنها انحطت اليوم الى الدرك الذى جعلها تتخذ أحيانا ستارا للتجسس واعمال التخريب ، وبث الدعايات التحريضية والانقلابية ! .. كما كانت « الحقيبة الديبلوماسية » يوما أداة لها كرامة وحرمة .. وكانت هذه الحقيبة من قبل صغيرة ، اذ لم تكن ترسل فيها سوى الاوراق السرية فقط .. أما اليوم فقد تضخمت الحقائق الديبلوماسية بدرجة كبيرة وانحطت كرامتها .. ومن الأمثلة على هذا ، ان سفيرا فى بريطانيا أراد يوما أن يقيم حفلة ، فاستورد مائة صندوق من خمور وطنه

في « الحقيبة الدبلوماسية » ! وأعرف دبلوماسيا انجليزيا كان في موسكو - أثناء الحرب - فاعتاد ازاء أزمة الصابون ان يرسل « ثيابه المتسخة » الى مفصل في انجلترا ، في « الحقيبة الدبلوماسية » ولك ان تتصور منظر « رسول الملك » - كما كان يسمى حامل الحقيبة الدبلوماسية الانجليزية اذ ذاك ! - وهو يحرس في وقار حقيبة تشتمل على ثياب متسخة ، مرسلة من طرف أوروبا الشرقي ، الى طرفها الغربي !

لذلك فان الواجب أصبح يقضى باعادة النظر في النظم العتيقة ، لاسيما وان أسلحة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا ، سواء من حيث سرعة ارسالها أو قوة تدميرها . . . ومن الاقتراحات التي أثرت في هذا الصدد ، ان يقابل استغلال الامتيازات الدبلوماسية في التستر على أعمال الجاسوسية بمثله !

ومما يؤثر عن الكولونيل والتر نيكولاى - مدير المخابرات السرية الألمانية في الحرب العالمية الاولى - قوله : « ان التجسس مهمة لا يمارسها سوى السيد المهذب المثقف ! » .

وقد ينطبق قوله هذا على من يتجسس لصالح بلده ، ولكنه لا ينطبق على من يخون بلده لمصلحة غيره ، ولا على من يتوسل بالتآمر الدبلوماسي الذي لا يقوم على مبدأ أو أساس

ولقد كان الشعور الذي ساد بريطانيا بعد قضية « فوخس » أبعد ما يكون عن الاستنكار والغضب للكرامة القومية . . . كان شعورا من القلق وعدم الطمأنينة : ترى كم « فوخس » آخر . . . كم شخصا على غرار فوخس لا يزالون طلقاء . . . وهكذا أحرز الروس - بهذه القضية - نصرا في إحدى مناوشات الحرب الباردة التي تعتمد على اضعاف الروح المعنوية بالتخويف (١)

(١) يجب ان نذكر ونحن نقرأ هذا الجزء ان مؤلف الكتاب انجليزى ،
وانه يتحدث عن الموقف كما يراه الغرب .

وفي بعض الدول اليوم ، ينبث البوليس السرى فى كل ناحية من نواحي الحياة ، ويستعان بأجهزة التسجيل الميسورة الاخفاء ، وبأساليب التحقيق البوليسى الشديدة ، لمقاومة الجاسوسية الاجنبية . ومكتب التحريات الامريكى ذاته - رغم ما تفخر به أمريكا من اعتزاز بالحريات - يستخدم وسائل تعتبر افتثاقا على الحريات . . فيكفى ان يشتبه فى ان شخصا ما شيوعى ، لكى يتبعه البوليس السرى أياما وأسابيع ، ولكى يتعرض أصداقاه ومعارفه لاستجوابات دقيقة ، وتراقب اتصالاته التليفونية ورسائله . . ذلك لأن من واجبا ان نعترف بأننا نخوض حربا فعلية وان لم تكن رسمية . . سواء سميت هذه الحرب « حربا باردة » أو « حربا ساخنة » !

ولقد فطنت الولايات المتحدة الامريكية - أثناء الحرب العالمية الاولى - الى أن قوانينها الخاصة بمقاومة الجاسوسية كانت متخلفة عن قوانين سائر بلاد العالم . أما الآن ، فان بريطانيا هى المتخلفة ! ولقد كشفت محاكمة وليم جويس - الذى كان يوجه الاذاعات الى بريطانيا من راديو برلين أثناء الحرب العالمية الثانية ، والذى اشتهر باسم لورد « هاو هاو » - ان الصحافة الفاشية التى كان يصدرها فى انجلترا حتى سنة ١٩٣٩ ، كانت تعتمد فى مواردها المالية على ألمانيا . . ولو أن هذا حدث فى الولايات المتحدة لاعتبر جريمة ، ولكن القانون فى انجلترا يبيح لاية دولة أجنبية ان ترسل الاعانات المالية للصحف والمؤلفين وجمعيات الصداقة مع الدول الاجنبية وسائر الهيئات الممكن استغلالها فى الدعاية . وليس فى القانون ما يجبر هؤلاء على أن يذيعوا مصدر العون المالى الذى يتلقونه !

« أدركوا السلام . . قبل فوات الاوان ! »

♦ أما عن احتمال نشوب الحرب عن عمد وتدبير وقصد ،

فهو في رأيي أمر مستبعد ، اللهم الا اذا كان الجنس البشرى قد بلغ من الغباء حدا يفوق التصور ! على ان أحدا لا يستطيع ان ينكر ان هناك ما يسمى « حربا باردة » ، وان هذه الحرب لا تقل في نتائجها المدمرة عن الحرب العسكرية ! .. وان المشكلات الموجودة اليوم في العالم ، لتدل على ان الانسان لا يفيد من دروس الماضي .. والمنازعات القائمة اليوم بين الدول - في شرق الأرض وغربها - ميادين تعمل فيها الجاسوسية بنشاط ودأب . وقد يساهم بعضها في زيادة حدة التوتر بين الشرق والغرب ، أو بين روسيا والديمقراطيات الغربية .. وهذا هو الخطر الأعظم كما قلنا من قبل ! .. لقد كشفت الأحداث عن ان نظام الجاسوسية السوفيتية يشمل العالم على سعته ، وليس ثمة ما يبرىء الغرب من ان يكون له مثل هذا النظام ! .. و « الحرب الباردة » قد تتحول في أوجز وقت الى لهب . ومن ثم فنحن اليوم في حاجة الى تعريف جديد لكل كلمة من كلمات الحياة اليومية العادية .. نحن في حاجة الى تفسيرات جديدة ، لا لكلمة « الديمقراطية » فحسب ، وانما لكلمة « الجاسوس » أيضا . ولست أزعم ان أية أساليب تبتكر كفيلة بأن تمحو الجاسوسية محوا ، فان هذا مستحيل .. ولكنها قد تساعد على ان تجعل نشاط الجاسوسية الشرقية في الغرب عسيرا متعذرا ، كنشاط الجاسوسية الغربية في الشرق .. أى في الدول السوفيتية . وتشديد الاجراءات المحكمة ضد الجاسوسية ، بأساليب الأمن والبوليس ، لن تزيد الموقف الدولي سوءا .. ولقد كان الضباب من العوامل التي كثيرا ما عاقت السلاح الجوى البريطانى في أثناء الحرب الأخيرة ، فماذا فعل ؟ .. لقد ابتكر أجهزة لتبديد الضباب الذى يتكاثف على المطارات الرئيسية . ونحن اليوم في حاجة الى جهاز عقلى لتبديد الضباب المخيم

على العالم .. ولست أرى خيراً من الأفكار الذكية والعمل الدائب لتكوين هذا الجهاز . ولدينا الأسس الذي نقيمه عليه ، ممثلاً في ميثاق الأطلنطي وميثاق الأمم المتحدة ، فهما لا يزالان في حاجة الى عمل شاق وجهود جبارة لاقرار السلام العالمي .. ومن أهم الاجراءات التمهيدية خلق جهاز تبديد ضباب الشك المخيم على العالم ، فهم كل شعب لوجهات نظر الشعوب الأخرى .. وفهم كل من الكتلتين الغربية والشرقية لوجهات نظر الأخرى بالذات !

ان الاحصاءات التقديرية توحى بأن دول العالم تنفق سنوياً ما لا يقل عن ١٨٠ مليوناً من الجنيهات على الجاسوسية ، وهي أشد ما تكون حاجة الى هذه الأموال لتحسين أحوالها بعد الحروب المتعاقبة التي مرت بها

لقد قال ليتفينوف أثناء الحرب العالمية الثانية : « السلام لا يتجزأ » .. وهذا حق ، فكما نطالب بتسريح القوات المسلحة، يجب ان نطالب بتسريح الجواسيس .. ويجب ان لا يتم التسريح من أحد الجانبين دون الجانب الآخر !

كذلك قال الكولونيل نيكولاى الألمانى - وهو من أشهر أساتذة الجاسوسية فى عصرنا هذا - ان « الجاسوسية بارومتر يسجل درجة الضغط بين الأمم » .. وهذا البارومتر يوحى اليوم بأن فى الجو بوادر عاصفة هوجاء ، ينبغى تسكين حدتها !

تم الكتاب

اقْرَأْ فِي هَذَا الْمَدَدَةِ:

أغرب قصص الجاسوسية ، الواقعية في كل العصور:
منذ عصر موسى والمسيح ويوسف الصديق..
إلى عصر قيصر ، والاسكندر المقدوني ،
وجنكيز خات ، وتيودورا ، وريشليو ،
ولويس الرابع عشر ، وكروموويل ،
وكاترين دي مدسيس ، ونابليون ..
ثم في العصر الحديث في حروب غليوم ،
وهتلر ، وستالين .. الخ ..

سَجَل تَارِيخِي وَقَصَصِي
يَجِبُ أَنْ تَقْرَأَهُ وَتَقْنَنِيَهُ

